

أَنْبِيَاءُ الْحُبِّ

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٦٣٢٦

بطاقة فهرسة

محروس، مجدي
أنياب الحب: رواية/ مجدي محروس، ط ١ - القاهرة:
دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٨
٤٠٨ صفحة؛ ٢٠ X ١٤ سم
تدمك: ٣-١٦٦-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨
١ - القصص العربية
أ - العنوان

٨١٣، ٩٠٣١



دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

مروة صلاح

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

أَنْيَابُ الْحُبِّ

رواية

مجدي محروس



(دموعُ الحبِّ جميلةٌ إذا وجدتَ مَنْ يَمَسُحُهَا)

جبران خليل جبران



إهداء

إليها..

إلى مَنْ انتزعت أشواك الحياة، واستبدلتها برياحين الأمل..
إلى مَنْ ملأت روعي بهجةً وأملاً وسطَ أعاصير اليأس..
إليها وحدها بعد أُمِّي.. "زوجتي"

مجدي محروس



(١)

قبيل الفجر بقليل، كان "فريد" وحده داخل مقهى "شفيق"، يجرع الكأس
تلو الآخر، ألقى بالكأس الأخير في جوفه دفعةً واحدة، ثم رمى بالزجاجة
الثانية أرضاً، وراح يصرخ في جنون، وهو يبذل مجهوداً خرافياً؛ ليحتفظ
بجفنيه مفتوحين:

- يا "شفيق" .. خمرُك مغشوشة يا ملعون.

خرجت إليه "روايح" تسبقها مدافعها البارزة، ويدها زجاجة أخرى،
انتزعها منها "فريد" في لهفة، وراح يجرع الزجاجة مباشرة دون الحاجة
لكأس.. في حين جلست "روايح" على مقعد بعيد تتابعه، وأصابعها تعبث
بشعرها الذي ينسدل فوق كتفيها العاريتين في نعومة.. ألقى "فريد" الزجاجة
الثالثة أرضاً، وقد أتى عليها تماماً، ولم تعد قدماه قادرتين على حمله، بل لم يعد
قادراً علي إبقاء جفنيه مفتوحين، فهوى مكانه أرضاً كالحجر..

ومع أول أشعة الفجر..

استيقظ أهالي القرية كلها في فزع، على صراخ "روايح" وهى واقفة أمام المقهى بقميص نومها الممزق، تصرخ:

- الحقوني.. الحقوني يا أهل البلد..

انهارت "روايح" أرضاً، وسط جموع القرية - التي استيقظت فرعة - وهى غارقة في بحر من الدموع الكاذبة، وصراخها يتردد في أرجاء القرية:

- "فريد الرشيدى" دا وحش، حيوان معندوش رحمة..

بداخل المقهى تخلص "فريد" من أثر الخمر على صراخ "روايح"، وهمهمات أهل القرية الغاضبة، وأدرك الفخ الذي أوقع نفسه فيه، وأنه صار الآن في أعين أهل البلدة فاجراً هاتكاً للأعراض..

في تلك اللحظات لعب رجال "حمزة الرشيدى" دورهم ببراعة، وانطلقوا بين الأهالي البسطاء يوغرون صدورهم ضد "فريد" الفاجر هاتكاً الأعراض، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً، حيث لم تمر دقائق على صراخ "روايح" إلا وكان معظم أهالي القرية يحاصرون مقهى "شفيق" بالنبابيت، ويطالبون بخروجه..

وفي الداخل تحامل "فريد" على نفسه، وجرّ قدميه جراً يريد الخروج لأهل القرية؛ ليوضح لهم الحقيقة، ولكن "شفيق" - الذي اختفى طيلة الليل - ظهر فجأة، وتعلق بقدمه قائلاً:

- لا يا سي "فريد".. لو خرجت هيقتلوك.

دفعه "فريد" بقدمه؛ ليتخلص منه، وهو يقول:

- سييني يا ملعون، أنا برئ..

وحاول الخروج، ولكن "شفيق" تشبث بقدمه أكثر وأكثر، وهو يردد:

- لا.. يا سي "فريد" مش هتخرج.. مش هتخرج.

وفجأة.. وكأنه كان على موعد..

ظهر "حمزة الرشيدي" فوق جواده..

تطلع لأهالي البلد الذين يطالبون بخروج "فريد"..

تطلع إلى النبأيت في أيديهم، والتي يلوحون بها في غضب..

لمع في عينيه بريق جنوني، وهو يهتف في أعماقه بفرح:

- عظيم.. عظيم يا "حمزة".. كل اللي أنتَ عاوزه حصل.

ثم تطلع لأهالي القرية، وارتدى قناع الغضب، وهو يصرخ في وجوههم

قائلاً:

- إيه اللي جرى يا أهل البلد؟ ومين دا اللي بطالبوا بدمه؟ إنتوا نسيتموا

فريد دا ابن مين؟ وأخو مين؟ دا أخويا أنا.. أنا "حمزة الرشيدي".

تطلع أهالي القرية إلى "حمزة" في خوف، في حين كان "الزناقي" يصرخ

قائلاً؛ ليثير الأهالي مرة أخرى:

- النار ولا العار.

وردد وراءه عدد كبير من الأهالي في غضب شديد في حين سيطر "حمزة"

على جواده - الذي أفرعته الجموع الغاضبة - وقال لهم وهو يمثل أعظم

أدوار حياته:

- أنا المسئول يا أهل البلد.. إنتوا سامعين؟

وصمت قليلا يتطلع لوجههم الغاضبة، ثم استطرد قائلا بصوت قوي
تردد في أرجاء القرية كلها:

- وأنا "حمزة الرشدي" أو عدكم إن "فريد" مش هينام الليلة دي في البلد
بس بشرط واحد مفيش حد منكم يمسه بسوء.

تراجعت همهمات أهالي القرية، في حين صرخ "ربيع" و "الزناقي" في صوتٍ واحد:
- النار ولا العار.

وأمام صراخهما زادت همهمات أهالي القرية الغاضبة مرة أخرى، وهم
يرفعون النبايت، فما كان من "حمزة" إلا أن أخرج سلاحه - وهو يسيطر على
جواده في صعوبة - وأطلق رصاصتين في الهواء، وهو يصرخ في وجوههم قائلا:
- هو دا اللي عندي، واللي هيقرب من أخويا هضره بالنار.

تراجع غضب أهالي القرية مرة أخرى أمام ثورة "حمزة" الزائفة، وتصنّع
"ربيع" و "الزناقي" الخوف، واستكانوا وسط الأهالي، تطلع إليهم "حمزة" وهو
يعيد سلاحه لجيبه مرة أخرى، ثم التفت إلى "روايح" التي ما زالت بالأرض
عارية الجسد، ممزقة الثوب، غارقة في بحر من الدموع الكاذبة، ورمى عليها
عباءته لتستر نفسها، ثم تطلع لباب المقهى، وصرخ بصوت سمعه الجميع:

- اخرج يا "فريد".. اخرج ومتخافش، إنت أخو "حمزة الرشدي".

"فريد" في تلك اللحظة يدفع "شفيق" الذي يتشبث بقدمه في قوة، ويرميه
بعيداً ويخرج - وقد تخلص من أثر الخمر تماما -، وراح يصرخ في أهالي
البلدة:

- لا يا أهل البلد، متصدقوش الكلام دا، أنا برئ، ودي مسرحية من تأليف "حمزة" صدقوني.

تطلع إليه أهالي البلدة في احتقار، ولم يرد عليه أحد..

التفت إلى "حمزة" الذي يتطلع إليه من فوق جواده..

ودارت بينهما - كعادتهما دوما - الحرب.. حرب النظرات..

هتف "فريد" بعينه:

- عارف إنك ورا المسرحية القذرة دي، بس أنا مش هسيب البلد يا حمزة،

سامع.. مش هسيبها.

ردّ "حمزة" بعينه ساخرا:

- خلاص الي أنا عاوزة حصل وهتخرج مطرود زي الكلاب م البلد.

- أنا عارف هدفك كويس.. بس مش هيحصل يا "حمزة"، وحقني مش

هسيبه أبدا.

- ها.. ها.. احمد ربنا إنك هتخرج م البلد سليم.

تطلع إليه "فريد" ودموع القهر في عينيه، وصرخ صرخة قوية تردد صداها

في أرجاء القرية..، صرخة رددتها الأشجار والطيور في لوعة وحزن..

- مش هسيب البلد يا حمزة.. مش هسيبها، سامع؟ مش هسيبها.

والتفت "فريد" حوله، فلم يجد مخلوقا من أهل البلدة، لقد تركوه وانصرفوا

جميعا..

انصرفوا بعد أن أصدروا عليه حكمهم.. بالإعدام.

(٢)

في مساء نفس اليوم كان "فريد" بحجرتة داخل الفيلا يصرخ في وجه أمه،
قائلا:

- دي مؤامرة يا أمي، صدقيني مؤامرة من حمزة.
- بكى قلب الأم بدموع من دم، وراحت تقول بألم:
- هو دا اللي كنت خيفة منه يا "فريد"، وحمزة خلاص عمل اللي هو عاوزة.
- ردّ فريد قائلا في ثورة:
- بس أنا مش هسيب البلد يا أمي ..
- فجأة احترقت صيحات أهل البلدة الغاضبة مسامع فريد وأمه، وقد أحاطوا بالفيلا، وفي أيديهم النبايت والمشاعل بعد أن نجح رجال حمزة في إقناعهم بأن فريد يتحدى أهل البلدة، ويرفض الخروج منها:
- النار ولا العار.. النار ولا العار..
- تطلعت الأم إلى الجموع الغاضبة، وهتفت بألم، وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة:
- مفيش فايده يا ابني؛ حمزة لعبها صح ولازم نمشي ونسيب البلد.

ترددت الصيحات الغاضبة في أذن فريد، وقال في حسرة:

- بس يا أمي..

قاطعته الأم، وهى تعد حقيبة السفر، ولم تعد قدماها قادرتين على حملها:

- خلاص يا ابني فات الأوان، ولو مخرجناش دلوقت أهل البلد هيخلصوا عليك، وهو ذا اللي عاوزه "حمزة".

ردّ فريد قائلاً، ودموع القهر في عينيه:

- وحقي يا أمي؟ عاوزاني أسيبه؟

- لا يا ابني إحنا هنمشي دلوقت، بس إنت هترجع بعدين، وتأخذ حقك، ومش هتسيبه، سامع يا "فريد"؟

نهض "فريد"، ومسح دموعه، واحتوى جسد أمه الواهن بين ذراعيه، وهتف:

- سامع يا أمي، وأوعدك من النهارده هتشوفي "فريد" اللي كنتي بتتمنيه، "فريد" اللي قلبه ميعرفش غير الحقد والقسوة.

قال "فريد" ذلك، وقبّل جبين أمه، ثم حمل حقيبة السفر، واتجه للخارج، ومن خلفه كانت أمه تسير في ألم، وقد تضاعف إعياءها..

لمح "فريد" على سلم الفيلا الداخلي حمزة في عباءته، وهو يتطلع إليهما في سخرية..

وكالعادة..تحدثت العيون..

هتف "فريد":

- هرجع ثاني يا "حمزة"، وهددفع تمن كل الي عملته.

ردّ "حمزة":

- خلاص اللعبة خلصت يا "فريد"، ولو راجل ارجع البلد ثاني والأهالي هيقتعوك.

خارج الفيلا كان الأهالي قد تجمهروا في أعداد غفيرة، وصنعوا بأجسادهم طريقا ضيقا؛ ليمر منه "فريد" وأمه، وعلى الجانبين كانت النبايت تتأرجح في أيديهم، والمشاعل تلقي ظلالا رهيبة على وجوههم، وهم يرمقون "فريد" وأمه في غضب، وأنفاسهم الحارة تلقي حمما ملتهبة، تلفح وجه "فريد" وأمه في قسوة.. ولكن مهما كان حجم غضبهم، فهو لا يفوق ما تشتعل به أعماق "فريد" في تلك اللحظة، فقد كان بداخله بركان، بركان من الغضب !
ولكن مهلاً..

هذه ليست البداية..

حتماً ليست البداية..

السؤال الآن..

كيف كانت البداية؟

كيف؟



(٣)

من هنا..

من تلك القرية الصغيرة الهادئة..

النائمة في أحضان إحدى محافظات مصر..

كانت البداية..

أشرقت شمسٌ ذلك اليوم من أيام يناير على غير عاداتها في فصل الشتاء، وألقت بأشعتها الذهبية الجميلة على المزارع، والمباني في تلك القرية الهادئة البسيطة.. وتساقطت أشعتها - أيضا - على سطح البحيرة الجميلة - التي تفصل بين القرية ومحطة السكة الحديد - فتصاعد بخار الماء في رقة وعذوبة تخلق العقول والأبصار.. بدأت الحياة تدب شيئاً فشيئاً في جسد تلك القرية، حيث استيقظ أهلها مع صياح الديكة، وبدءوا يوماً جديداً من أيامهم المتشابهة، التي تتميز بالنقاء والبساطة..

من بين مباني تلك القرية، التي كان معظمها من الطوب اللبن، برز ذلك البناء الأبيض الشاهق في شموخ، وقد التفت حوله حديقة كبيرة، مترامية الأطراف، حفلت بشتى أنواع الفواكه، والزهور..

فيلا الحاج "محمود الرشيدى" ..

في حديقة الفيلا كان "أبو السعد الجنائنى" يعمل في الأرض بفأسه،
ليعد حوضين جديدين لزراعة شتلات جديدة.. بداخل الفيلا التي زحرت
بأثاث عريق ينطق بالأصالة، هبط من فوق السلم رجل في الخامسة والستين
من عمره، أشيب الفودين، تتضح عليه معالم الهيبة، والوقار..

نزل الرجل السلم، وهو يعدل من وضع عباءته، مناديا على زوجته قائلا:
- يا "تهاني" .. يا أم فريد.

برزت زوجته "تهاني"، من إحدى حجرات الطابق السفلي.. كانت قد
تعدت الخمسين بعام أو عامين، ولم تستطع بعض الشعيرات البيضاء التي
ظهرت من فوق جبينها، أن تخفي ما كانت تتمتع به من جمال مبهر في شبابها،
وقالت في خفوت، وفي عينيها فرحة كبيرة، وهي تتطلع لزوجها:

- نعم يا حاج.

- الكارثة جاهزة؟

- جاهزة يا حاج.. و "عوض" مستنيك من بدري .. بس ليه هتنزل
بدري كده النهارده؟

تطلع الحاج "محمود" مبتسماً من نافذة الفيلا إلى الحصان الأبيض، وهو
يرفع قائميه، ويطلق صهيلا قويا في سعادة، وكأنه يشعر بقدوم صاحبه،
الذي يحنو عليه، وقال:

- النهارده جني المحصول، ولازم أكون مع الفلاحين.

تضاعفت الفرحة في عين تهاني كعادتها دوما حين تسمعه ينادها بـ "أم فريد"، وقالت في سعادة:

- في رعاية الله يا حاج.

اتكأ الحاج "محمود" على عصاه الأبنوس، وهو يتجه صوب باب الفيلا، ولكنه توقف مرة أخرى قائلاً، وعلى شفثيه ابتسامة:

- النهاردة إجازة "فريد" أوعي تنسي يا "تهاني".

تنهدت "تهاني" في سعادة، وقالت بفرحة غامرة:

- أنسى! أنسى ازاي بس يا حاج!

- والأكل يا تهاني.. اعملوا كل الأكل اللي بيحبه.

ارتفع صوت "تهاني" بالضحك، وقالت في حنان:

- اطمن يا حاج متقلقش، ومع السلامة أنت في رعاية الله.

ابتسم الحاج "محمود"، قائلاً وهو يشير بعصاه الأبنوس:

- بلّغي "همزة" لما يصحى يمرع الحوض القبلي، ويتابع الفلاحين.

ثم غادر الفيلا، ووقف للحظات يتابع "أبو السعد" الجنائني، ثم اتجه نحوه قائلاً في بشاشة:

- صباح الخير يا "أبو السعد".

رمى "أبو السعد" الفأس من يده، وقال رافعا ذراعيه في سعادة:

- صباح الورد يا حاج "محمود".

تطلع الحاج "محمود" إلى الزهور الجميلة التي تتفتح في حياء، وقال:

- إيه أخبار أولادك يا "أبو السعد"؟

- الحمد لله يا حاج، "مديحة" خلصت الدبلوم، و"مختار" في كلية الزراعة مع المهندس "فريد".

- ربنا يوفقهم يا "أبو السعد" ويبارك فيهم. ثم استطرد قائلاً، وهو يشير لعوض:

- جاهز يا "عوض".

اقترب "عوض" بالكارتة، ونزل من فوقها قائلاً في سعادة:

- اتفضل يا عم الحاج.

اقترب الحاج "محمود"، ومسح بكفه على ظهر الحصان الأبيض، الذي رفع قائميه في سعادة، ثم هتف بعوض، وهو يركب مكانه فوق الكارتة:

- الحوض البحري يا "عوض".

لكز "عوض" الجواد في جانبه برفق، وقال:

- أمرك يا حاج.

انطلق الجواد في سرعة فوق الطريق الترابي الممتد على شاطئ البحيرة التي تحتضن القرية في حنان، كأّم تزود عن أولادها... انبعث في تلك اللحظة - علي الطرف الآخر من البحيرة - نفير القطار، وهو يدخل محطة القرية - فرفع الحصان رأسه في نشوة، وانطلق ينهب الأرض وكأنه يسابق القطار..

وطوال الطريق وذراعا الحاج "محمود" مرفوعتان، يرد بهما تحية أهل القرية، وعلى وجهه كل آيات البشر والسرور؛ كان الرجل محبوباً من الكبير،

والصغير، والغني، والفقير، لم يرد محتاجا في يوم من الأيام، أو يصد سائلا..
لمح بطرف عينيه من بعيد العمال، وهم يجنون المحصول، وعلى رأسهم
"إسماعيل" ذراع الحاج "محمود" اليمنى في متابعة الأرض... هرول إسماعيل
والحزن باد على وجهه، ومدّ يده للحاج "محمود" ليتكى عليها، وهو ينزل من
الكارثة.. تطلع إليه الحاج "محمود" في قلق وتساؤل، وهو يعدل عباءته فوق
كتفه، فبادره "إسماعيل" قائلا بعد تردد:

- الحقيقة يا حاج الخسارة كبيرة ع الكل بس عندنا الخسارة أكبر، والدودة
قضت على معظم المحصول.

هزّ الحاج "محمود" رأسه، وقال في أسى:

- "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".

ثم شرد بنظره بعيدا نحو المجهول، وهو يردد في أعماقه:

- يا تري.. إيه أخبار الحوض القبلي يا "حمزة"؟!

ثم أخذ قلبه وعقله يرددان في آن واحد جملة واحدة:

- "ربّ إني لا أسألك ردّ القضاء.. ولكنني أسألك اللطف فيه".

وتطلعت عيناه إلى السماء في خشوع.



(٤)

علت ابتسامة هادئة شفتي شاب متوسط القامة، نحيل الجسد، ذو ملامح وسيمة، ونظرات حاملة، وهو يجلس داخل ذلك القطار الذي ينهب الأرض نهبا - فصارت الأشجار والمزارع وأعمدة النور تمر أمام عينيه كلمح البصر - التقط الشاب نفسا عميقا من هواء الريف النقي ملأ به صدره، وهو يغمض عينيه، وابتسامته تتسع فوق شفتيه في سعادة ..

- "فريد"!!

استيقظ "فريد" من شروده على صوت صديقه "مختار"، الذي يماثله في العمر، وكان يجلس بجواره قائلا:

- أيوه يا "مختار"؟

- رocht فين يا صديقي؟

شرد "فريد" بنظره بعيدا، وقال:

- تصدق يا "مختار" .. أنا بكره المدينة أوي بكل الزحام والدوشة اللي فيها.

ردّ "مختار" مبتسماً:

- وبتحب القرية .. مش كده؟

هزّ "فريد" رأسه، وقال في سعادة:

- طبعا بحب القرية يا "مختار".

- وبتحب شجرة الصفصاف كمان؟

تضاعفت السعادة في عيني "فريد"، وقال:

- وشجرة الصفصاف أيضا.

بنظرة مأكرة استطرد "مختار" قائلاً:

- شجرة الصفصاف بس؟!

شرد "فريد" بنظره بعيداً، حيث توجد القرية، ولمح بين الأشجار التي يمر عليها القطار في سرعة عيني حبيبته "مديحة" - أخت مختار -، وقال:

- وهى الشجرة ليها قيمة من غيرها يا صحبي؟!

في تلك اللحظة رأى "فريد" علامات ضيق وقلق على وجه صديقه "مختار"، فقال له:

- مالك يا "مختار"؟!

- خايف .. خايف يا "فريد".

- خايف ! من إيه يا "مختار"؟

- من المستقبل يا صحبي.

- ليه يا "مختار"؟
- تطلع "مختار" بعيداً، وقال وفي صوته رنة حزن واضحة:
- اسمع يا "فريد"، "مديحة" أختي، وأنت صاحب عمري و..
قاطعه "فريد" بقلق:
- تقصد إيه يا "مختار"؟
- إنت "فريد" ابن الحاج محمود الرشيدي، وأنا "مختار" ابن أبو السعد
الجنائني و..
قاطعه "فريد"، وهو يقول بذهول:
- "مختار".. مالك يا صحبي؟ عمرك ما اتكلمت كده!
- تضاعف الألم والحزن في عيني "مختار"، وهو يقاطعه قائلاً:
- عشان الفرق الي بينا وبينكم، والواقع الي لازم نعترف بيه.
ربت "فريد" على كتفه، وقال:
- متخافش يا صحبي، صدقني خوفك دا مالوش أساس.
- وصل القطار في تلك اللحظة إلى محطة القرية التي توجد على الجانب
الآخر من البحيرة، فتناول كل منهما حقييته، وواصلوا طريقهما على رصيف
المحطة، و"مختار" يقول بأسى:
- يا ريتني أقدر يا "فريد".. يا ريتني!

قال "فريد" محاولاً تغيير دفة الحديث، وهو يتطلع للقرية القابعة خلف البحيرة في عشق وهيام:

- عارف يا "مختار" .. كل حاجة في البلد وحشتني حتى عم "نوح".

حاول "مختار" الابتسام، وهو يقول:

- وأنا كثير بخاف أركب مع الراجل دا وبحس إنه مجنون.

- لا يا "مختار"، عم "نوح" راجل طيب، يا ريت أهل البلد كلهم زيّه!

وقفز كل منهما بحقيبتيه داخل قارب عم نوح، وقال فريد:

- السلام عليكم يا عم "نوح".

تطلع الرجل إلى "فريد"، ولم يبدُ عليه أنه تعرّفه، أو حتي رآه من قبل،

وقال بصوتٍ ضعيف:

- إنت مين؟

- أنا "فريد" ابن الحاج محمود الرشيدي.

رد الرجل، وهو يلقي بمجاديف القارب في ماء البحيرة:

- ابنه؟! وهو "محمود الرشيدي" اتجوز؟

ضحك "مختار" في خفوت، وهو يضرب "فريد" في كوعه قائلاً:

- مش قتلتك؟!

نظر "فريد" إلى مياه البحيرة الصافية، وراح يتأمل عم "نوح" صاحب

الرأس الأصلع من المنتصف، ولا يوجد بها غير بعض الشعيرات القليلة

المتناثرة على جانبي رأسه، وعمره الذي لا يعرفه أحد من أهل القرية من

كثرة حكايات الرجل التي يرددها كثيرا عن الحملة الفرنسية، والاحتلال الإنجليزي، والملك فاروق؛ فاختلفت آراء أهل القرية حول عمره، ولكن لم يصل أحدهم إلى رأي قاطع في ذلك..

وصل بهما القارب في تلك اللحظة إلى الشاطئ الآخر للبحيرة، حيث توجد القرية فنزلا الصديقان وسارا جنبا إلى جنب على الطريق الزراعي للقرية الموازي لشاطئ البحيرة..
وفجأة..

برز "دياب" من بين المزارع - كعادته - قائلاً لفريد، ولعابه يسيل من بين شفتيه على رقبته:

- وحشتني أوي يا "فريد".

ربت "فريد" على كتفه بعطف، وقال:

- وأنتَ كمان وحشتني يا "دياب"، عامل إيه؟

مطَّ "دياب" شفتيه، وقال:

- أنا بحبك أوي يا "فريد".

ابتسم "فريد"، وقال:

- وأنا كمان بحبك يا "دياب".

فجأة تطلع "دياب" لمياه البحيرة، وقال وقد تجهم وجهه:

- حورية ماتت يا "فريد".

ضحك "فريد"، وهو يربت على كتف "دياب"، الذي راح يتطلع لمياه البحيرة التي هبّت عليها في تلك اللحظة رياحا خفيفة حرّكت مياهها، فوضع طرف جلباه بين أسنانه، وأخذ يجري بطريقته المضحكة، وهو يردد:

- حورية.. حورية..

تابعه: "فريد" حتى اختفى بين المزارع، وقال بأسى:

- معذوريا "دياب".

رد "مختار"، وهو يتطلع إلى داره التي ظهرت من بعيد:

- "دياب" معذور؟!!

- أيوه يا "مختار".. "دياب" ضحية من ضحايا الحب.

- الحب؟! وليه غرّق حورية في البحيرة؟

- برضه بسبب الحب يا "مختار".

ضحك "مختار"، وقال وكان قد وصل إلى داره:

- ماشي يا عم الفيلسوف، هستناك بكره عشان نساfer سوا.

تركه "فريد"، وواصل طريقه إلى الفيلا، التي ظهر بناؤها الأبيض الشاهق

من بعيد..

ومن خلف نافذة تطل على الطريق بمنزل "مختار"..

كانت هناك عينان تراقبانه في سعادة، كانت عينا حبيبته..

عينا "مديحة"!!



(٥)

في حديقة الفيلا جلس الحاج "محمود" مع ابنه "فريد"، وأمامهما المائدة استعدادا لتناول الغداء، تطلع الأب إلى ولده "فريد"، وربّت على كتفه قائلاً في حنان:

- أخبرك إيه يا باشمهندس؟

لم يخف على "فريد" الإجهاد البادي على وجه والده، والذي يحاول إخفاءه عنه، فقال في قلق:

- أنا الحمد لله يا حاج، بس صوتك باين عليه التعب و..

ربّت الأب على كتف ابنه في حنان أبوي غامر، وقال مقاطعاً:

- متقلقش يا حبيبي، دا تعب عادي من الأرض اليومين دول.

ثم استطرد قائلاً، وهو ينادي على زوجته:

- يا "تهاني" .. يا أم فريد..

أقبلت "تهاني" ومن وراءها الخادمة العجوز "أم الخير"، وهما يحملان صحاف الطعام التي حفلت بكل ما لذّ وطاب، وانبعثت منها الروائح الشهية، وقالت بفرحة غامرة؛ لعودة ابنها الوحيد، وقرّة عينها:

- إحنا جاهزين يا حاج، بس "حمزة" لسه مجاش.

- تتم الأب في خفوت:
- استرها يا رب.
- هتف "فريد" قائلاً بقلق:
- بتقول حاجة يا حاج؟
- رسم الأب ابتسامة على وجهه، وقال:
- لا يا ابني بس "حمزة" اتأخر.
- وضعت "تهاني" باقي صحاف الطعام، وهى تقول:
- النهارده له ظروفه يا حاج ..
- قاطعها "فريد"، وهو يتطلع إلى "حمزة" عند مدخل الحديقة، وهو يجذب عنان جواده في قسوة، مما جعل الجواد يطلق صهيلاً غاضباً قائلاً:
- خلاص مفيش داعي للقلق، "حمزة" وصل.
- نزل "حمزة" من فوق جواده، وهو يصرخ في غضب:
- يا "عوض" .. يا حمار.
- أقبل "عوض" راكضاً، وهو يتناول لجام الفرس هاتفاً في فرع:
- تحت أمرك يا سي "حمزة"، تحت أمرك.
- رمقه "حمزة" في احتقار، وأقبل عليهم، وعلى وجهه علامات الغضب..
- كان شاباً قوي البنية، كث الشارب، حاد النظرات، ذو ملامح قاسية، تعدى عمره الخامسة والثلاثين بأشهر قليلة، تطلع لأخيه "فريد"، وسلّم عليه في فتور قائلاً، وهو يجلس على مقعده حول المائدة:
- مش هتصدق يا حاج الحوض القبلي كله ..

قاطعته الحاج "محمود" قائلاً، وقد تضاعف الألم في عينيه:

- الغدا الأول يا "حمزة".

ردّ "حمزة" قائلاً في إصرار:

- بس الحوض القلبي..

هتف الأب في غضب:

- الغدا الأول يا "حمزة".

سكت "حمزة" على مضض، وعلى وجهه الغضب والضيق، في حين تناولت

"تهاني" حمامة محشية بالأرز والتوابل، أعطتها لفريد قائلة:

- كُل يا حبيبي.. كُل.

تناولها منها "فريد"، وتطلع إليها مبتسماً، وهو يقول:

- تسلم إيديكي يا أمي.

رسم الأب على وجهه ابتسامة أخرى، وقال لفريد:

- وإيه أخبار الدراسة يا باشمهندس؟

- خلاص يا حاج كلها شهور، وآخذ شهادة البكالوريوس، وأتابع الأرض

و..

ردّ "حمزة" مقاطعاً، وهو يأكل في نهم:

- أنا مش شايف لازمة للمصاريف دي، طالما في الآخر هتشتغل في الأرض

زي أي فلاح.

تراجع "فريد" بظهره للوراء، وقال في هدوء، وعلى شفثيه ابتسامة:

- لا يا "حمزة"، فيه فرق كبير طبعاً؛ أنا دلوقت اتعلمت أحدث الأساليب لتنمية المحصول، واختيار أجود أنواع البذور، وكيفية التعامل مع التربة بكل أنواعها، وكمان اتعلمت أساليب حماية المحصول ..

قاطعته "حمزة" ساخراً، وهو يقول:

- أي فلاح يعرف كل دا من غير تعليم ووجع دماغ .

التقط الأب طرف الحوار هذه المرة، وردّ على "حمزة" قائلاً:

- لا يا "حمزة" .. مش أي فلاح يعرف اللي اتعلمه "فريد"، وبعدين الرسول "ص" قال (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) صدق رسول الله "ص" وكمان إنت اللي رفضت تكمل تعليمك .

تابع "فريد" الحديث، واستطرد قائلاً:

- أيوه يا "حمزة" الفرق كبير، وهتشوف بنفسك لما أرجع وأتابع الأرض .

همهم "حمزة" بشفثيه، وقال بامتعاض:

- الأرض !! أيوه .. أيوه الأرض !

نهض "فريد" قائلاً، وقد انتهى من طعامه:

- هخرج يا حاج أشم شوية هوا .

ربت الأب على كتفه في حنان، وقال:

- مع السلامة يا ابني .

اتجه "فريد" صوب بوابة الفيلا، ونادى على "عوض" قائلاً:

- الحصان يا عم "عوض" لو سمحت.

ردّ عليه "عوض"، والابتسامة تملأ وجهه، وهو يتساءل بينه وبين نفسه كيف لهذا الملاك المؤدّب أن يكون أخاً لهذا المغرور المتعجرف "حمزة الرشيدي":

- تحت أمرك يا سي "فريد".

التفت "فريد" لأم الخير، وهو يتطلع لبرج الحمام الذي يعلو سطح الفيلا، وقال:

- إيه أخبار الحمام يا "أم الخير"؟

- بخير يا باشمهندس.. دا أنا براعيه بنفسي.

تركها "فريد"، وصعد سلم الفيلا في شباب وحيوية، ودخل برج الحمام، وقبض بكفيه في رفق على حمامة بيضاء جميلة، يعلو ذيلها بعض السواد، وتطلع إليها هاتفاً في عشق وهيام، وهو يتحسس رأسها وذيلها:

- يا ترى.. حبيبة قلبي، وحلم عمري "مديحة" أخبارها إيه؟

ثم قبل الحمامة، قبل أن يتركها لتطير، وتقف فوق إحدى أشجار الحديقة.. وانطلق يقفز درجات السلم في رشاقة؛ ليمتطي صهوة جواده في براعة حيث اللقاء..

لقاء الحب.



(٦)

- "كارثة يا "تهاني" ... كارثة".

نطق الحاج "محمود" بتلك العبارة، وهو يخلع عباءته قبل أن يلقي بجسده المنهك فوق الفراش، ردت "تهاني" قائلة، وهي تتناول منه العباءة وتعلقها:

- المهم صحتك يا حاج.

تابع الحاج "محمود" في ألم، وكأنه لم يسمعها:

- الحوضين يا "تهاني" البحري والقبلي، الدودة قضت ع المحصول اللي فيهم كله.

- كله يتعوض يا حاج.. المهم صحتك .

- إزاي بس يا "تهاني"؟! هو أنتِ نسيِتِ إن إحنا واخدين سلفة من البنك بضمان المحصول؟

- يعني إيه يا حاج؟

تطلع الرجل إلى سقف الحجرة في ألم، وقال:
- يعني إما أن أدفع مئة وخمسين ألف جنيه للبنك، وإما يحجز على الأرض.

شحب وجه "تهاني" وهي تردد:

- يحجز علي الأرض!

- أيوه يا "تهاني" .. أرض الحاج "محمود الرشيدي" البنك هيحجز عليها!

- وهنعمل إيه يا حاج؟

تضاعفت نظرة الألم في عيني الرجل، وهو يتطلع من نافذة حجرته
للسماء، التي بدت شاحبة مختنقة خلف السحب، وراح يردد:

- العمل عنده يا "تهاني"؛ عند اللي لا بيغفل ولا بينام.



(٧)

هناك..

في آخر الطريق الزراعي..

وقبيل الغروب بوقت قصير..

وتحت شجرة الصفصاف التي تلقي بفروعها الوارفة فوق البحيرة جلس

فريد..

جلس في مكانه المفضل، وحيث اعتاد لقاء حبيبته "مديحة"..

أخذ يتطلع لقرص الشمس، وهي في طريقها للغروب كعذراء تجذب

طرف ثوبها في حياء..

وفجأة.. أحسَّ "فريد"، وكأن الشمس قد غمرت الكون بضياؤها من

جديد..

نعم.. فمن هناك، وأمامه على الطريق الزراعي كانت حبيبته..

"مديحة"..

الفتاة التي لم يخفق قلبه إلا لها..

الفتاة التي سيطرت على قلبه، وعقله، ووجدانه..
أقبلت "مديحة" تتعثر في حياء، بوجهها الخمرى الجميل وعينيها العسليتين،
وشعرها الأسود الذي ينساب خلف ظهرها في نعومة أسفل غطاء خفيف،
راح يتطاير مع نسائم الغروب الجميلة..
اقتربت منه، واقتربَ منها..
كل منهما غاص في عيني الآخر، وكأنها بحرٌ لا قرار له..
لم تتكلم الألسنة، بل تكلمت القلوب..
تكلمت بحديث لا يفهمه سوى المحبين..
لا.. بل العاشقين..
احتواها "فريد" بعينه كرحالة اكتشف فجأة ما يبحث عنه بعد قرون من
الترحال..
تطلعت "مديحة" لعينه، وأطرقت خجلاً، وهى تهتف:
- "فريد" .. عينيك !!
وضع "فريد" أنامله على شفتيها برفق ليمنعها عن الحديث..
نعم.. لقد كان الصمت هو أبلغ ما يقال في تلك اللحظة..
لحظة اللقاء..
من أعماق أعماقه هتف بلا صوت:
- "مديحة".

وبكل لوعة الفراق التي تنن بها جوارحها هتفت:

- "فريد".

تطلع "فريد" إلى عينيها طويلا هذه المرة، ووجد شيئا طالما بحث عنه طيلة فترة سفره..

وجد الدفء، والحنان، والصفاء.. هتفت وكفاها بين راحتيه:

- وحشتني يا "فريد"! مبعتش قادرة يعدي على يوم من غير ما أشوفك.

تطلع إليها في وله وهيام، وهو يتحسس راحتيتها بين كفيه، فاستطردت في خجل مبتسمة:

- بس خلاص.. لما شوفتك، روحي رجعتلي، وشمسي نورت.

ضغط "فريد" على كفيها برفق وحنان قائلا:

- وأنتِ كمان يا "مديحة" وحشتيني كثير و..

ضحكت "مديحة" برقة وعذوبة، رقص لها قلب فريد طربا، وهتف بحنان:

- بتضحكي ليه؟

- افكرت أول مرة شوفتك فيها.

وشردت بعقلها بعيدا، وكأنها تتذكر، ثم استطردت قائلة:

- كنت دايما تعدي قدام دارنا تتمشى ع البحيرة ساعة المغرب.

- وأنتِ واقفة ورا الشباك كل يوم بتشوفيني.

- كنت دايمًا أبصلك، واستغرب لما ألاقيك ماشي على طول سرحان، وعينيك ع البحيرة.
- أكيد قلت في نفسك دا مجنون؟
- لا.. قلت دا حاجة من اتنين يا شاعر يا عاشق.
- لحد يوم الحادثة.
- أيوه.. والعربية كانت هتخبطك، وأنت مش دريان.
- وصرّخت.
- محستش إلا وأنا بصرخ؛ عشان تاخذ بالك.
- ولما التفت، وعينيا جت في عينيكي، لقيت جسمي بيتنفض زي ما يكون فيه تيار كهربى فوق الألف فولت، وساعتها بس اكتشفت إن جوايا قلب بين ضلوعي، وعرفت يعني إيه حب.
- بس إنت اختفيت بعدها فترة؟
- عشان "مختار" هو صديقي الوحيد، ومكتشش أعرف إن عنده أخت زي البدر ليلة تمامه، وكم إن مكشش ينفع أفكر فيكي من وراه.
- كانت تسمع كلماته، وقلبها يخفق في قوة، وتجوب بعينها ملامح وجهه - التي لم تغب عنها لحظة واحدة حتى أثناء وجوده بالقاهرة -، وراح يستطرد متطلعًا إلى عينيها في عشق كملاح وجد بغيته بعد عناء طويل:
- ولما اتأكدت من مشاعري، كلمت أبويا الحاج "محمود" ووافق، وبعدها كلمت "مختار" ..

يومها كان الموضوع صعب أوي عليه، وشوفت الدموع في عينيه، بس هو
كان عظيم ونبييل وقدّر موقفني؛ لما عرف إن الحاج "محمود" موافق، ووافق
هو كمان بعد ما قلّي كلمة عمري ما هنساها
(لو حصل في يوم، واتسببت في أي ألم لمديحة، هتكون حكمت على
علاقتك بيها، وعلاقتك بيا بالإعدام)
ترقرقت الدموع في عينيه حين وصل لتلك اللحظة، فتطلعت لعينه
وهتفت بكل جوارحها:
- أنا بحبك أوي يا "فريد" !
- وأنت أجمل إنسانة في الدنيا يا "مديحة".
تضرج وجهها بحمرة الخجل، فنظر "فريد" لساعته وقال:
- الوقت اتأخر، لازم تروحي دلوقت.
وأمامه على الطريق الزراعي سارت "مديحة"، وظل يتابعها من بعيد حتى
وصلت لمنزلهم، ثم ركب جواده وانطلق..
وهناك.. خلف جذع شجرة ضخمة، كان "مختار"..
كان يتطلع إلى السعادة البادية على وجهيهما وعلى خده كانت توجد..
دمعة !!



(٨)

داخل حجرة "مختار" التى لم تكن تحتوى إلا على فراش للنوم، و مكتب صغير للمذاكرة، و صوان للملابس، و راديو صغير، جلس "مختار" فوق طرف فراشه، يتطلع من نافذة حجرته إلى الظلام الذي بدأ يرخي سدوله على صفحة الكون، كانت تبدو الحيرة على وجهه، كان لا يدري ماذا فعل؟ و ماذا يقول؟ هل يخسر صديق عمره؟ هل يحكم على أخته بالموت؟ و لكن.. ما ذنبهما؟ هل ذنبهما أنَّ الحب ربط بين قلوبهما برباط لا ينقسم؟

تساقطت من عينيه دمعة حزينة، وهو يسمع باب بيتهم يفتح، وقد عادت "مديحة" ..

ترك دمعته تسيل على خده ساخنة، وقد سيطر عليه - في تلك اللحظة - إحساس مرير بالعجز، وشعر أنه أمام قوة جبّارة لا قبل له بها، قوة جبّارة تساوي القدر ذاته..

القدر الذي جعله ابن أبي السعد الجنايني، وجعل فريد ابن الحاج محمود الرشيدى..

ولكن هل يملك الإنسان مصير نفسه؟

هل يمكنه أن يتفادى ضربات القدر مهما أوتي من عزم وقوة؟
هل يمكنه أن يحقق لنفسه ما يصبو إليه من سعادة وهناء في ظل حبيب
يهفو له قلبه؟
هل..

في تلك اللحظة دخلت "مديحة"، فأزاح "مختار" أثر دمعته، وقال بحزن:
- كنتَ فين؟

تطلعت إلى الحزن البادي على وجهه، وقالت:
- كنتُ مع "فريد". ثم استطردت تسأله بقلق:
- مالك يا "مختار"؟

تطلع إليها ولم يرد، هتفت مرة أخرى، وقد تضاعف قلقها:
- "مختار" إيه اللي حصل؟ وليه الحزن دا كله؟
ردّ "مختار"، وقد تضاعف حزنه مرات ومرات:
- مفيش يا "مديحة"، مفيش.

هتفت في لوعة:
- "مختار" .. أنا أختك الوحيدة، أرجوك متخبيش حاجة علىّ.
تطلع من نافذة حجرته إلى الظلام الذي غمر المكان، فازدادت نفسه
وحشة، وقال:
- متخافيش يا "مديحة"، كل حاجة هتبقي تمام.

تساقطت من عينيها دمعة لمعت فوق خدها، وهي تهتف في جزع:

- "مختار" .. أنا عمري ما شوفتك كده و..

نهض "مختار"، وقبل جبين أخته قائلاً لها، وهو يربّت علي كتفها:

- متخافيش يا "مديحة"، أنا عارف المرض، وكمان عارف العلاج، وقريب

أوي هوصل لحل.

ثم ربّت علي كتفها مرة أخرى، وقال وعلى شفّتيه شبح ابتسامة باهتة:

- ودلوقت روحي جهزي الأكل عشان نتعشى مع عمك "أبو السعد"؛

زمانه على وصول.

وما أن خرجت "مديحة"، وأغلقت الباب خلفها حتى انهمر من عينيه

شلال..

شلال من الدموع الحبيسة.. وراح يهتف في أعماقه من بين دموعه:

- ياريتني أقدر يا "مديحة" .. ياريتني.



(٩)

عاد "فريد" من نزهته، وأعطى لجام الفرس لعوض، ووقف بين أحواض
الحديقة يتنسم عطر الزهور، والسعادة بادية على وجهه، وفجأة جاءه من
خلفه صوت "حمزة" يهتف به، قائلاً في غلظة:

- كنت فين؟

- كنتُ بتفسح شوية في البلد.

ردّ عليه "حمزة" ساخراً، وهو يشيح بوجهه بعيداً عنه:

- بتتفسح؟!

تطلع إليه "فريد" في ضيق، ثم تركه واندفع لداخل الفيلا؛ يستطلع الأمر،
فوجد أمه في بهو الفيلا، والحزن يكسو وجهها فسألها:

- إيه اللي حصل يا أمي؟

تطلعت إليه الأم في حنان وإشفاق للحظة، ثم قالت بآلم:

- خير يا حبيبي متقلقش، أبوك مستنيك فوق.

في لحظات كان "فريد" قد قطع درجات السلم، ودخل على أبيه في
حجرته، ودُهِل لما رآه..

كان والده الحاج "محمود" راقدًا فوق فراشه، والعرق يكسو جسمه
ووجهه، فهتف "فريد" في جزع:

- مالك يا حاج؟ إيه اللي حصل؟

تطلع إليه الأب في حنان، وقال:

- كنت فين يا "فريد"؟

- أنا كنتُ..

جاهد الأب ليرسم علي وجهه ابتسامة خرجت على الرغم منه شاحبة
باهتة، وهو يقاطعه قائلاً:

- عند شجرة الصفصاف!

أطرق "فريد" برأسه أرضاً، وقال في خفوت:

- أيوه.

ابتسم الأب، وقال في ضعف:

- هانت يا حبيبي، كلها شهور وتخلّص، وأجوزك "مديحة".

احمرّ وجه "فريد" خجلاً، وقال:

- يا حاج أنا..

- متقولش حاجة يا حبيبي، خلّص إنت بس الامتحانات، وأنا أكلم

عمك "أبو السعد"، ونخلّص على طول، عشان تجيب أول حفيد لمحمود
الرشيدي.

ترقرقت الدموع في عيني "فريد"، وقال:
- يا حاج.. الكلام دا مش وقته، المهم صحتك.
- اطمن يا حبيبي.. أنا بخير.
- لا يا حاج، التعب باين عليك أوي.
أخفي الحاج "محمود" نظرة ألم تجمعت بعينه، وقال:
- يا ابني متشغلش بالك، مشاكل بسيطة في الأرض، وهتتحل بإذن الله.
وصمت لحظة ثم استطرد، وهو يربت علي كتفه:
- روح يا حبيبي عشان ترتاح؛ إنت وراك سفر الصبح.
تطلع "فريد" إلى والده في نظرة طويلة، حاول من خلالها أن يستشف ما يخفيه عنه، ولما فشل في ذلك، قال له قبل أن يخرج:
- تصبح علي خير يا حاج.
وخرج "فريد" تاركا والده، الذي تعلّق بصره بسقف الحجرة يحاول البحث عن مخرج للأزمة..
ولكن.. بلا جدوى!



(١٠)

داخل مقهى القرية جلس "حمزة" وسط رفيقيه "ربيع" و"الزناتي" في عباته البيضاء الفضفاضة، وقد تصاعدت أدخنة النارجيلة، وصنعت فوقهم غمامة ضخمة من الدخان الأزرق كأنها غمامة الشيطان، أقبل عليهم "شفيق" صاحب المقهى، وهو يعرج بقدمه العاجزة - التي أكسبته مشية مضحكة كانت دائما مثار سخرية من الجميع - وأنفه الكبير، وثوبه الرث الممزق، والابتسامة المقيتة التي لا تفارق شفتيه، وقال لهم:

- تؤمرني يا سي حمزة.

تطلع إليه "حمزة" في ضيق، وقال:

- نفسي في طلب صغير يا "شفيق".

برقت عينا "شفيق" في جشع، وهو يقول:

- تحت أمرك يا سي "حمزة".

ناول "حمزة" النارجيلة للزناتي، وقال ضاحكا:

- مش عاوز أشوف وشك العكر.

وضجَّ "حمزة" ورفيقاه بالضحك، في حين كان "شفيق" يتطلع إليهم في بلاهة، وهنا ارتفع صوت أنثوي ناري من داخل المقهى تتبعه امرأة في الثلاثين من عمرها، قائلة في دلال:

- طيب وأنا يا سيد الرجاله مش عاوز تشوفني؟

تطلع الثلاثة إلى "روايح" زوجة شفيق، وقد خرجت عليهم بجسدها القوي الفتان المليء بالتعاريج كصحراء وعرة التضاريس، وعيناها المليئة بالإصرار علي الأخذ دائماً، وثوبها الذي التصق بجسدها فبدت وكأنها عارية أمامهم، اقتربت منهم رويح، وطوّقت رأس "حمزة" من الخلف بذراعيها، قائلة في دلال:

- إيه رأيك يا سيد الرجاله؟

ربت "حمزة" على ذراعها البضة، وهو يريح رأسه فوق نهديهما، اللذين يبرزان في تحدٍ وشموخ، وقال:

- طبعا عاوز أشوفك يا "روايح"، لولاكي ما كنا جينا المكان دا ولا شوفنا وش الغراب "شفيق".

ضحك "شفيق" في بلاهة، وغمز لرويح قبل أن يتركهم، وكأن الأمر لا يعنيه، في حين ألفت "روايح" بجسدها فوق مقعد أمام حمزة قائلة بدلال، وقد كشف فستانها الضيق عن ساقها البضة:

- عامل إيه يا سيد الرجاله؟

تطلع "حمزة" لجسدها الذي يتلوى أمامه كحبة رقطاع، وقال في نهم:

- متضايق يا "روايح".

ضربت "روايح" على صدرها، فبرز نهداها في تحدٍ سافر، ومالت عليه قائلة في رغبة:

- ومين يسامحني لو كان لسة قلبي بيدق جوايا، وسيد الرجالة متضايق؟

تطلع "ربيع" قائلاً، وهو يشير إلى "شفيق" الذي ينظر إليهم من بعيد:

- بس يا "روايح" والغراب دا؟

ضحكت ساخرة، وهى تقول:

- الغراب كل اللي يهमे الفلوس وبس!

ضحك "حمزة"، وأخرج ورقة مالية رماها أرضاً أمام عيني "شفيق" الذي انكبّ عليها لاهثاً، تطلع إليه "حمزة" ساخراً، ثم أشار لرفاقه فدخلوا، ومعهم "روايح" إلى حجرة جانبه بها بعض المقاعد المجدولة من أشجار الغاب، ومن ورائهم أقبل "شفيق"، ويده أربع زجاجات من الخمر، وضعها على المائدة أمامهم، وتركهم خارجاً، ويده ما زالت تتحسس الورقة المالية التي رفعها من الأرض!

بداخل الحجرة الجانبية اتخذ الثلاثة مقاعدهم، وراحوا يجرعون كئوسهم، في حين كانت "روايح" وسطهم ترقص وتتمايل، وعيونهم تتابع جسدها الذي يتلوى أمامهم كحبة رقطاع!



(١١)

وصل "فريد" لمنزل مختار وعلى كتفه حقيبة سفره، وقبل أن يطرق الباب وجده يُفتح، ومن خلفه برزت "مديحة"، وفوق شفتيها ابتسامة بلون الفجر، أطرقت برأسها خجلاً، وقالت بصوت يحمل لمحة من الحزن:

- خلاص مسافر؟

- أيوه يا "مديحة".

في تلك اللحظة خرج "مختار" من حجرته - وكان ما زال في ملابس البيت - وتطلع إليهما لحظة، ثم قال لفريد في ألم:

- اتفضل يا "فريد".

تطلع إليه "فريد" في دهشة، وقال:

- إيه دا؟ ! إنت لسة ملبستش؟

نظر إليه "مختار"، ولم يرد، ثم تركه، ودخل حجرته، تطلع فريد لمديحة في ذهول، ثم تبعه لحجرتة، وهو يهتف به:

- "مختار" .. مالك؟ فيه حاجة حصلت؟

تشاغل "مختار" بالنظر من النافذة، ولم يرد فهتف فريد بقلق:

- مال عينيك يا "مختار"؟ إنت مَتمش إمبراح؟!

تطلع إليه "مختار" في نظرة طويلة هذه المرة، وقال بيأس يشوبه الألم:

- أنا م؟ ! خلاص يا صحبي وقت النوم راح!

و.. توقف "مختار" عن مواصلة الحديث، وقد غلبته دمعة انحدرت من عينيه رغماً عنه، وحاول عبثاً أن يخفيها، وهو ينظر من النافذة، سقط قلب "فريد" بين قدميه، وهو يرى تلك الحالة التي عليها صديقه، فقال في ألم:

- "مختار" .. أنا صاحبك و..

قاطعته "مختار" في ألم:

- وهى دي المشكلة.

- مشكلة إني صاحبك؟!

- أيوه يا "فريد" أنا كثير بتمنى بيني وبين نفسي لو مكنتش عرفتك و..

قاطعته "فريد" قائلاً غير مصدق ما تسمعه أذنه:

- وليه كل دا يا صحبي؟!

لم يستطع "مختار" أن يتماسك أكثر من ذلك، فانهمرت الدموع من عينيه كالشلال، واندفع يقول:

- زي ما قتلتك قبل كده يا "فريد"، أنا خايف م المستقبل.

أحسّ "فريد" بما يعاينه صديق عمره، فاحتواه بين ذراعيه، وقال وهو ينظر إلى عينيه، وقد قبض على كتفيه في قوة:

- وأنا زي ما قلتلك قبل كده يا صحبي، متخافش واتطمئن، كلها شهور زي ما قال الحاج "محمود" إمبارح بالليل، ويكلم عم "أبو السعد"، وتم الجواز. هتف "مختار" قائلًا بفرحة، وهو يمسخ دموعه:

- بجد يا "فريد"؟ الحاج "محمود" قال الكلام دا إمبارح؟ مسخ "فريد" بكفه ما تبقى من دموع "مختار"، وقال:
- بجد يا صحبي، ولازم تعرف إن عمري كله ميساويش ذرة ألم ممكن تعاني منها "مديحة".

ثم صمت لحظة استطرد بعدها قائلًا، وهو يمسك حقييته:
- أنا هسافر دلوقت يا "مختار"، وأنت تلحقني بكره الصبح براحتك. وتركه خارجا، وفي وسط الدار وجد "مديحة"، وقد ألقت برأسها على الحائط، ودموعها تلمع على خدها كحبات من اللؤلؤ..
نظر إليها، ونظرت إليه..

غاص كل منهما في عيني الآخر..
وكالعادة..

وبلغة العيون..

هتف: - راجع قريب يا "مديحة".

هتفت: - هستناك اللي فاضل من عمري يا "فريد".



(١٢)

اضطجع الحاج "محمود" فوق فراشه، وقد ازداد وجهه شحوبا، ونظر
لزوجته وسألها:

- فريد سافريا "تهاني"؟

أشارت الزوجة برأسها في حزن، بينما وضع الحاج "محمود" كفه على جبهته،
وقال:

- الحمد لله.

تطلعت إليه "تهاني"، وقالت بتردد:

- "فريد" دلوقت بقى راجل يا حاج، والمفروض يعرف المشكلة، ويقف
جنبك زي "حمزة".

تنهّد الحاج "محمود"، وقال في إجهاد:

- لا يا "تهاني".. "فريد" غير "حمزة"؛ فريد حسّاس وطيب، ولو عرف الي
إحنا فيه، مش هيسافر قبل ما يطمئن علينا، والامتحانات قرّبت خلاص.
ردت الأم قائلة في ألم:

- عندك حق يا حاج، بس تعرف أنا كتير بتمنى بيني وبين نفسي إن "فريد"
يبقى زي "حمزة"، ويتعلم الخشونة والقسوة؛ عشان يعرف يعيش.

ابتسم الأب قائلاً في إجهاد، وقد ظهرت عليه علامات المرض:

- لا يا "تهاني"، الدنيا محتاجة الاتنين، محتاجة "فريد" بطيبته وإحساسه، ومحتاجة "حمزة" بقسوة قلبه وخشونته، بالظبط زي الخير والشر، والأبيض والأسود.

وتوقف الرجل لحظة يلتقط أنفاسه في إجهاد، ووقعت عيناه على ساعة الحائط التي تعدت الثانية بعد منتصف الليل، وقال بحسرة:

- "حمزة" لسه مرجعش يا "تهاني" .. مش كده؟

سكتت الزوجة، ولم ترد، فقال الأب بآلم:

- شوفتي الخشونة والقسوة عملت في "حمزة" إيه؟ ! علمته السهر والعريضة كل يوم لوش الفجر، وخلته يرفض الجواز بعد ما قرّب ع الأربعين ..

قاطعت الزوجة قائلة، وهى تناوله الدواء:

- وحياة حبيبك النبي متتعيش نفسك؛ عشان صحتك، وخُذ الدواء.

ردّ الأب قائلاً في ألم، من بين أنفاسه المتلاحقة:

- عليه الصلاة والسلام، عندك حق يا "تهاني"، هاتي الدوا عشان؛ أنا محتاج أنام وأرتاح.

أعطته الزوجة الدواء، وأراحت رأسه فوق الوسادة، وشدّت عليه الغطاء، ثم أغلقت الباب في هدوء، ومن حلقها انطلقت تنهيدة قوية؛ وقد سيطر عليها شعور غريب في تلك اللحظة، شعور يقول بأن أيام الراحة قد ولت، نعم.. ولّت إلى الأبد.



(١٣)

خرج الطلاب من قاعة المحاضرات بكلية الزراعة، ووقفوا في تكتلات حول بعض الأساتذة يلقون عليهم أسئلتهم، ووسط كل هؤلاء كان "فريد" يشق طريقه إلى حيث اعتاد أن يجلس مع أصحابه في حديقة الكلية .. - "فريد".

التفت لمصدر الصوت فوجد صديقه "ممدوح رضوان" مقبلا عليه، استقبله فريد، وسلم عليه، و"ممدوح" يقول، وهو يشعل إحدى سجائره: - أهلا يا "فريد" .. وصلت إمته؟

رد عليه "فريد" قائلاً:

- إمبراح.

وصمت لحظة، ثم استطرد قائلاً، وهو يتطلع للسيجارة المشتعلة بين شفتي صاحبه:

- تعرف يا صحتي .. أنا مش شايف سبب واحد لإصرارك التدخين دا، مفيش فيه ولا فايده غير إنه بيصيبك بالأمراض وبيلوث الهوا ..

قاطعه "ممدوح" قائلاً، وهو يضحك:

- كفاية يا "فريد" .. أنا للأسف عارف كل دا، بس نعمل إيه؟ التدخين
بقي مرتبط بكل المشاعر اللي بنمر بيها، وإحنا فرحانين وزعلانين، لما نصحى
ولما نيجي ننام، قبل الأكل وبعده حتى .. حتى وإحنا في الحمام.

ابتسم "فريد" وقال في هدوء:

- الهوا النقي دا نعمة من الخالق سبحانه وتعالى، ولازم نحافظ عليه.

ضحك "ممدوح"، وقال:

- ماشي يا عم الشاعر الرومانسي، إنتَ عندك حق، بس خلي بالك يا
صحبي، أنا عايش وسط الرحمة في حي القلعة، وبقضي وقت في القهوة بتاعة
أبويا أكثر م الوقت الي بقضيه في الجامعة أو حتى وأنا نايم، بعكسك إنتَ يا
صحبي الي عايش في الريف وسط الخضرة والطبيعة الجميلة ..

صمت "ممدوح" فجأة عن الكلام، وهو يتطلع لشيء ما خلف "فريد"،
ثم قال:

- بص يا صحبي هناك.

ردد "فريد" بدهشة:

- فيه إيه يا "ممدوح"؟!

ضربه "ممدوح" بكوعه، وهو يقول:

- "وفاء" .. وفاء عبد الحميد، كانت بتبص علينا، أقصد عليك.

- "وفاء" بتبص علىّ أنا؟!

- ضحك "ممدوح" بشدة اهتز لها جسده الضخم، وقال:
- أيوه يا عم الروماني، وواضح كده إن الكل عارف إلا إنت.
- قاطععه "فريد" قائلاً بذهول:
- الكل عارف إيه يا "ممدوح"؟ اتكلم على طول.
- هتف "ممدوح" بلهجة بدت طفولية، ولا تتناسب مع حجمه إطلاقاً:
- "وفاء" غرقانة في حبك يا عم الروماني ..
- صمت فجأة عن الكلام، وهو يقول:
- "وفاء" جايّه علينا.
- التفت "فريد"، فوجد بالفعل وفاء مقبلة عليهما في ثوب طويل رقيق، بدت فيه أشبه بالسند ريلاً خاصة مع ملامحها الرقيقة الجميلة، هتفت بصوت يقطر رقة وعذوبة:
- صباح الخير.
- ردا عليها التحية، ثم استأذن "ممدوح" وتركهما، فما كان من "فريد" إلا أن قال لها:
- اتفضلي يا آنسة "وفاء".
- جلسا معا على مقعدين متقابلين، وهتفت "وفاء" بخفوت، وقد تورّدت وجنتاها:
- عامل إيه يا "فريد"؟
- الحمد لله.

شمليها الصمت للحظات لم يتكلم أحدهما، فنظرت إليه "وفاء"، وقالت
بارتباك:

- "فريد" .. أنا ..

صمتت عن الكلام، فحثها "فريد" قائلاً:

- اتكلمي يا أنسة "وفاء" .. إنتِ إيه؟

حاولت أن تتكلم فعجزت، فهزّت رأسها قائلةً بحزن:

- إنتِ مستعد كويس للامتحان؟

كان على يقين بأنها كانت تود إخباره بشيء آخر، ولكنه ردّ عليها قائلاً
بهدوء:

- تقريبا وإنتِ؟

لم ترد عليه لسبب بسيط أنها لم تسمعه، فقد كانت غارقة بكل كيائها
ومشاعرها، وهى تشاهد عصفورين جمعهما عُش واحد فوق إحدى الأشجار
الضخمة، فهتفت هامسة كالنائمة:

- بص يا "فريد" .. كم هى جميلة حياة العصافير !

تطلع إليها "فريد" طويلاً هذه المرة، وقال فى هدوء:

- فعلاً يا "وفاء" حياة العصافير جميلة، بس هو إحنا كنا هنشوف المنظر

الجميل دا لو عصفور من دول كان مشغول بحبيب تاني؟

اتسعت عيناها بعض الشيء فى دهشة، ولكنه استطرد قائلاً:

- ببساطة يا "وفاء" عشان تنجح العلاقة دي، لازم الطرفين يكون عندهم

نفس الرغبة، وغير كده هيكون مستحيل .

- "مستحيل"

انطلقت تلك الكلمة من بين شفتي "وفاء" كالقنبلة، انطلقت بوجه صاحب فقد نضارته وجماله، وحينها أدرك "فريد" الجرم الذي ارتكبه، لقد قضى على كل أحلامها بكلمة واحدة، كلمة هوت بها من عالم الأحلام الوردي الجميل لعالم الواقع الكئيب، فأحسّ بالذنب، وحاول أن يصلح شيئاً مما أفسده فقال:

- آنسة "وفاء" أنا..

قاطعته "وفاء"، وهى تنهض قائلةً في ثقة، بدت غريبة في تلك اللحظة:
- متبررش يا "فريد"، إنتَ عندك حق، مفيش حياة بتقوم على طرف واحد، بس أنا مؤمنة بحاجة يا "فريد"، وهى إننا طالما عايشين، وطالما جوانا قلب بينبض بالحياة، لازم يبقى فيه أمل.

وصمتت لحظة استطردت بعدها وهى تنهض قائلة:

- وأنا جوايا أمل يا "فريد"، أمل عمره ما هيموت.

تطلع إليها "فريد"، وهى تغادر المكان بخطوات قوية واثقة، ثم رفع عينيه إلى الشجرة حيث العصفورين اللذين غادرا عشهما، والعجيب أنه وفي تلك اللحظة شاهد وبين أغصان الشجرة عينا حبيته..

عينا "مديحة" !



(١٤)

تحت هالة ضخمة من الدخان الأزرق، تجمّع "حمزة" و "ربيع" في منزل "الزناتي"، وكان رابعهم الشيطان، أخذ حمزة نفساً ضخماً من النارجيلة، وقال بضيق:

- كل حاجة في الفيلا بقت كئيبة.

تطلع "الزناتي" إلى "ربيع" في ذهول، ثم قال لحمزة، وهو يضحك ساخراً:

- كئيبة !! وإنّ يهمك إيه يا "حمزة" ؟ !

لم يلمح "حمزة" رنة السخرية في صوت "الزناتي"، فقال وهو يناول النارجيلة لربيع:

- إزاي يا "زناتي"؟ هو الرجل اللي راقد عيان دا والديون محصره مش أبويا؟

تضاعفت رنة السخرية بصوت "الزناتي"، وهو يقول:

- أيوه أنا عارف إنه أبوك، بس كمان أنا عارفك كويس يا "حمزة".

ردّ "حمزة" في غضب:

- عارفني كويس ! تقصد إيه يا "زناتي" ؟

أخذ "الزناتي" نفساً عميقاً من النارجيلة، وهو يتطلع إلى "حمزة" في برود،

ثم قال وسط سحابة الدخان الأزرق التي انطلقت من فمه:

- أيوه أنا عارفك كويس، زي ما أنا عارف كمان إن كل اللي يهملك هو المال والأرض بس، حتى لو أبوك راح في ستين داهية.

قفزت كل شياطين جهنم فجأة في رأس "حمزة"، وتطاير الشرر من عينيه، وهو يهّب واقفا ممسكا بقطعة من الخشب، يريد أن يهوي بها على رأس "الزناتي"، وهو يصرخ:

- إنت يا حيوان تتجرأ علىّ، وتقولي الكلام دا؟!!

ولكن "ربيع" هبّ واقفا، وحال بين "حمزة" و"الزناتي"، وهو يصرخ:

- ميصحش يا "حمزة"، عيب يا "زناتي".

"حمزة" يقول بغضب، وهو يرمي قطعة الخشب جانبا:

- إنت مش شايف الحيوان دا بيقول إيه؟

رد "الزناتي"، وهو يجلس على مقعده مرة أخرى:

- أنا حيوان! الله يسامحك يا عم "حمزة".

"ربيع" جذب "حمزة" وأجلسه على مقعده قائلا، وهو يضع حجراً آخر على

النارجيلة:

- معقول الكلام اللي بيحصل دا؟ هي دي صداقة العمر اللي بينا؟!!

هتف "الزناتي"، وهو يتطلع لحمزة:

- إنت عارف كويس يا "ربيع" إن أنا بحب "حمزة"، وبخاف على مصلحته.

ردّ "حمزة" ساخرا، وهو ينفث دخان النارجيلة بقوة:

- واضح إنك بتحبني يا "زناتي"!!!

اعتدل "الزناقي"، وقال بهدوء:

- يا "حمزة" اسمعني كويس، إحنا أصحاب من زمان، وكل واحد فينا عارف الثاني كويس، ودا معناه إننا لما نقعد مع بعض لازم نقلع القناع.

ردد "حمزة" و"ربيع" بذهول في آن واحد:

- القناع !!

تطلع إليهما "الزناقي" بنفس النظرة الباردة، وقال:

- أيوه نقلع القناع، قناع الشرف والأمانة والنزاهة.

ردّ "حمزة"، وهو يناوله النارجيلة:

- وإيه علاقة دا بخوفي على أبويا؟

لوّح "الزناقي" بذراعه ساخرا مرة أخرى:

- أهو إنت كده بتلبس القناع من تاني يا "حمزة".

تطلع الاثنان إليه مرة أخرى بذهول، فاستطرد قائلاً:

- لأنك في الحقيقة مش خايف على أبوك وصحته، قد ما أنت خايف من

طموح أخوك "فريد".

"حمزة" يتطلع إليه، وهو يردد كالمسحور:

- طموح "فريد".

- أيوه يا "حمزة" طموح أخوك، البشمهندس "فريد الرشيدي".

عندئذ ألقى "حمزة" النارجيلة جانبا، وتراجع بظهره في مقعده للوراء،

وراح يتطلع إلى "الزناقي" الذي عرّاه تماما، ثم شرد بنظره بعيدا نحو المجهول،

لقد فعلها "الزناقي"، وضغط على الجرح وبكل قسوة.

(١٥)

داخل حجرة الوالد الذي تمكّن منه المرض، وأضحى طريقا للفراش، كان "حمزة" يقف في منتصف الحجرة، في حين كان "فريد" بجواره على طرف الفراش، وقد عاد لتوه من القاهرة، بعد أن علم من "مختار" الأزمة التي يمر بها والده، تطلع "حمزة" لأبيه، ولوّح بذراعه، هاتفا في غضب:

- كثير حذرتك يا حاج، وأنت عمّال تبعت فلوسك شمال ويمين ع الفقرا والمقاطيع، تقدر تقولي نفعلونا في إيه دلوقت؟ واقفين يتفرجوا علينا، وتلاقهم كمان شمتانين فينا.

ردّ "فريد" قائلا في ذهول من منطق أخيه:

- لا يا "حمزة" .. الي إحنا بندفعه للفقرا دا حقهم في أموالنا الي ربنا قال عليه، وثوابنا عند ربنا مش عندهم.

ربّت الأب على كتف "فريد"، وقال بخفوت:

- ربنا يحفظك يا "فريد" وبارك فيك يا ابني.

كظم "حمزة" غيظه، بينما وضع "فريد" عينيه بالأرض، وقد ظهر على وجهه علامات حزن عميق، فتطلع إليه الأب، وربت على كتفه قائلا بحنان:

- عشان الحزن الي في عينيك دا يا "فريد" مكتش عاوزك تعرف حاجة.

- ردّ "فريد" قائلاً بألم، وبريق الدموع في عينيه:
- إزاي يا حاج الكلام دا؟ طبعا كان لازم أعرف، عشان نشوف حل و..
قاطعه "حمزة" ساخرا:
- وأديك عرفت يا بشمهندس، ورّينا بقى هتعمل إيه؟!
تطلع إليه "فريد" بغضب صامت، في حين صرخ الأب في وجه "حمزة":
- أوعى تتكلم مع أخوك مرة ثانية بالطريقة دي.. سامع يا "حمزة"؟
لوّح "حمزة" بذراعه، وقال ببرود:
- وهو أنا قلت حاجة يا حاج؟ أنا بس حبيت أعرفه إن المشاكل دي
للكبار و..
- فجأة نهض "فريد" من مكانه غاضبا، وهو يقول لأبيه قبل أن يغادر
الحجرة:
- أنا مسافر دلوقت يا حاج.
- وتركهم خارجا، في حين تطلع الأب لحمزة، وقال بألم:
- ليه يا "حمزة"؟ ليه؟
لمعت عينا "حمزة" بنظرة مأكرة، وهو يقول ببراءة:
- سيبه يا حاج يسافر؛ مدرسته أولى بيه.
- قال "حمزة" ذلك، وغادر الحجرة في عنف، في حين تطلع الأب لسقف
الحجرة، وراح يهزّ رأسه في أسى .



(١٦)

الحاج "محمود" في بهو فيلته جالسا فوق مقعده، وهو يتكئ على عصاه الأبنوس، وراح يتطلع بعينين زائغتين تملؤهما الحسرة إلى كل ركن، كل قطعة أثاث، كان ينظر للفيلا، وكأنه يودعها..

كان قد أعياه البحث للوصول لحل يخرج من تلك الأزمة، تعلق عيناه بسقف الفيلا، وهتف بصوت متهدج:

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

دخل "عوض" في تلك اللحظة يقول في حزن:

- لجنة البنك وصلت يا حاج.

هزّ الحاج "محمود" رأسه، دون أن يرد، وما هي إلا لحظات ودخلت لجنة من البنك؛ لإجراء الحجز على الفيلا والأرض، وانتشر أفرادها داخل أرجاء الفيلا يعاينون محتويات الفيلا ويسجلونها، ومن خلف الستار كانت "تهاني" تراقب الموقف، وتتمتم في خفوت:

- استرها يا رب.. صحته مش هتستحمل.

تطلع رئيس اللجنة للحاج "محمود" في إشفاق قائلاً:
- طبعاً إنت عارف يا حاج، إنكم لازم تحافظوا ع الفيلا بكل محتوياتها
لحد ما نعمل المزاد أول الشهر.
تطلع إليه "حمزة" في غضب، في حين أوماً الحاج "محمود" برأسه مرة
أخرى، دون أن يرد، وعينه تلمعان بالدموع، واقترب منه رئيس اللجنة،
قائلاً وهو يقدم له ورقة وقلماً:
- من فضلك وقّع الإقرار دا يا حاج "محمود".
تناول الحاج "محمود" القلم بيد مرتعشة، وعينه ما زالتا تتفقدان أرجاء
الفيلا و..
- استنى يا حاج، أوعى تمضي على حاجة.
عبارة انطلقت بصرخة قوية من مدخل الفيلا..
عبارة بصوت "فريد"..
رفع الحاج عينيه عن الورقة، وتطلع لفريد بتساؤل، فقال له "فريد"، وهو
يضع أمامه حقيبة كبيرة، كانت بيده:
- خلاص يا حاج، البنك مش هيجزع الفيلا ولا الأرض، وبكره
هندفع القرض كله.
قال "فريد" ذلك، ثم فتح الحقيبة التي معه لتتسع عيون الجميع في ذهول،
الحقيبة مكتظة عن آخرها بالأموال.
قال الأب بصوت متقطع من الذهول:
- إيه يا ابني الفلوس دي كلها؟!

تطلع إليه "فريد"، ومسح على خده مرة أخرى في حنان، ثم نهض من مكانه قائلاً لرئيس اللجنة:

- من فضلك هنسدد القرض كله بكره، ولو عاوزني أوقع على إقرار بكده، أنا تحت أمرك.

ربت رئيس اللجنة على كتفه قائلاً:

- لا يا ابني من غير إقرار ولا حاجة، وبانتظاركم في البنك بكره.

خرجت اللجنة، في حين كان الأب يتطلع لفريد غير مصدق، أما "حمزة" فراح يتطلع لحقيبة الأموال، وقد جحظت عيناه في جنون.. خرجت "تهاني"، وأخذت ابنها بين أحضانها، وهي تهتف والدموع في عينيها:

- حمدا لله ع السلامة يا حبيبي.

أخذ "فريد" أمه بين أحضانها، وهو يقول:

- الله يسلمك يا أمي.

ردد الأب قائلاً في خفوت، في حين كان "حمزة" يتحسس الأموال في جنون:

- اتكلم يا ابني، إيه حكاية الفلوس دي كلها؟

ابتسم "فريد"، وقال:

- متقلقش يا حاج، هحكيك كل حاجة.



(١٧)

راح "فريد" - وهو جالس في مقعد منزوٍ بالقطار المتجه للقاهرة- يتابع في شروء المباني والأشجار والحقول، التي يمر عليها القطار سريعاً، وعلت شفتيه ابتسامة مريرة، وقد ذكرته سرعة القطار بلحظات السعادة التي تصادفنا في حياتنا، والتي ما أن تأتينا لا تفتأ تفكر في الزوال، ولكن سرعان ما اختفت ابتسامته، وامتلاً حلقه بغُصة من الألم والمرارة، وقد استعاد ذهنه منظر والده وحالته السيئة، وهو على فراش المرض، وتضاعفت غُصة المرارة في حلقه مرات ومرات حين استعاد ذهنه - أيضاً - معاملة "حمزة" السيئة له، وسخريته الدائمة منه، والحقيقة أنه كلما جال ذلك الخاطر بذهنه، كان يتعجب بشدة؛ فهو يحب "حمزة"، ولم يؤذِهِ يوماً.. إذا لم يعامله بهذه الطريقة؟ لم؟

حاول قدر استطاعته أن يُنحِّي تلك الأفكار جانباً، ويركز كل تفكيره في طريقة يساعد بها أباه لعبور أزمته الأخيرة، وحين وصل به القطار للقاهرة كان قد اتخذ قراره، إما أن يتوصل لطريقة يساعد بها أباه في حل تلك المشكلة، ويثبت لحمزة أنه كبير، وإلا فلن يتوصل أحد لمكانه أبداً !

وما أن غادر المحطة ميدان رمسيس حتى كان قد اتصل بصديقه "ممدوح رضوان"، الذي أصرّ على أن يذهب إليه "فريد" حيث يسكن في حي القلعة، وبالفعل وصل فريد للقلعة، واهتدى بسهولة لمقهى والد ممدوح..

مقهى شعبي شهير بالحي يحمل اسم "مقهى أولاد البلد".. ما أن رآه "ممدوح" حتى أحسّ أنه يواجه مشكلة، ولكنه لم يعرف أية تفاصيل، وحاول "ممدوح" معه كثيرا لينزل عندهم ويقيم معهم في بيتهم، ولكن "فريد" أصرّ على استئجار حجرة بأحد الفنادق القريبة، وجاء الحاج "رضوان" والد ممدوح ورحب بفريد، كانت ملامح الرجل كلها تنطق بالطيبة و الشهامة، وعلم الرجل برفضه الإقامة في بيتهم، تطلع الرجل لفريد في إعجاب، وقال لولده:

- "فريد" عنده حق يا ابني.. مش هيرتاح لو قعد معانا.

رد "ممدوح" بضيق:

- وينفع يا حاج ينزل في فندق وصاحبه موجود و..

قاطعه الأب قائلا في طيبة:

- طبعا مينفعش يا "ممدوح".

وصمت للحظة استطرد بعدها، وهو يشير بإصبعه لأعلى:

- "فريد" هيسكن هنا، فوق القهوة.

ردد "ممدوح" قائلا بذهول تغمره الفرحة:

- شقة عم عدوي.

رد "فريد" بذهول:

- عم عدوي !

ابتسم الأب، والتفت لفريد قائلاً:

- دي شقتي يا ابني، وكل اللي عليك دلوقت تقعد تشرب الشاي مع صاحبك على بال ما أبعت العمال ينصفوها.

تركهم الأب، في حين جلس الصديقان يرتشفان الشاي، وهتف "فريد" بصديقه في شغف لا يدرى سببه:

- عاوزك بقى يا صحبي تحكيلى مين عم عدوي دا؟ وحكايته إيه؟

ابتسم "ممدوح" وهو يقول:

- عم عدوي.. دا صاحب أغرب حكاية في حي القلعة كله، الراجل الوحيد اللي عاش بينا من غير ما حد فينا يعرف حقيقته.

اعتدل "فريد" في مقعده، وقد جذبه حديث "ممدوح" عن عم عدوي، في حين تراجع "ممدوح" بجسده الضخم في مقعده، وقال:

- عم عدوي كان راجل كفيف، مقطوع من شجرة زي ما بيقولوا، ومفيش حد بيسأل عليه، وكان بينام في الشارع قُدام القهوة على أي كرتونة، لكن أبويا المعلم رضوان عطف عليه، وفتح له شقتنا القديمة

اللي فوق القهوة؛ عشان يعيش فيها بدل الشارع، ومرت خمس سنين ع الوضع دا، والكل كان بيعجب عم عدوي ويعطف عليه لأنه كان دمه خفيف، ودايما بيسخر من عاهته لدرجة إنه كان ساعات يبقرا الكف للزباين.. المهم

في يوم مات عم عدوي مكانه ع الكرسي اللي ع الباب دا، وأبويا اتكفل بكل خارجته بعد ما دفنه في المقابر بتاعتنا، لغاية كده والموضوع عادي يا صحبي، بس ما فيش إلا أسبوع واحد يمر على موت عم عدوي إلا ونسمع إشاعة جامدة جدا، قال إيه عم عدوي أكبر تاجر مخدرات في القلعة كلها، وحت الشرطة، هاجمت الشقة اللي فوق القهوة، وفتشتها بس ملقوش حاجة.

تناول "ممدوح" رشفة من كوبه، وهو يستطرد قائلا:

- وبكده يا صحبي صار عم عدوي أكبر لغز في حي القلعة.

ردد "فريد" بذهول:

- فعلا حكاية غريبة و..

وصل في تلك اللحظة والد ممدوح قائلا، وهو يعطي مفتاح الشقة لابنه:

- مع صاحبك يا "ممدوح" ع الشقة عشان يرتاح؛ العمال خلاص نصفوها.

ابتسم "فريد" قائلا، وهو يربّت على كتف الحاج "رضوان":

- أنا متشكر جدا يا حاج "رضوان"، وعمري ما هنسى جميلك دا.

- متقولش كده يا ابني، دا أنت زي "ممدوح".

ربّت "فريد" مرة أخرى على كتفه في امتنان، وتركه ومضى في طريقة

للشقة مع "ممدوح"، وحكاية عم عدوي تتردد في ذهنه.. وتدوي في أعماقه.



(١٨)

تمدد "فريد" فوق فراشه داخل شقة عم عدوي، وقد وضع ذراعيه تحت رأسه، وغرق في بحر من الأفكار التي سيطرت على كيانه وشغلت عقله، كان قلبه يتمزق من أجل أبيه الذي تركه مريضاً يعاني المرض والألم، وأحس أنه أخطأ بتركه للقرية، وأنه كان يجب عليه البقاء بجواره، وانحرف تفكيره نحو أخيه "حمزة"، الذي دوماً يعامله معاملة سيئة، ويسخر منه، ويقلل من شأنه في كل مناسبة تجمع بينهما، وصرخت أعماقه في ألم:

- هو ممكن يكون فيه أخ يعامل أخوه كده، حتى ولو كان كل واحد فيهم من أم تانية؟

لقد وعى الدنيا أول ما وعى، ولم يجد أمامه غير "حمزة" أخيه، الذي يكبره بما يزيد عن الخمسة عشر عاماً، فأحبه واعتبره أخاه وسنده، ولكنه شيئاً فشيئاً - ومع تجاوزه لمرحلة الطفولة - وجد حمزة يتغير ويتعد عنه في عالم خاص صنعه لنفسه، فلم يجد أمامه غير حضن أمه وأبيه فصارا بالنسبة له كل شيء، الأم والأب والأخ والصاحب، والدنيا كلها حتى تعرّف بمختار، وصار

صديقه الوحيد، وبعدها ظهرت "مديحة" في حياته لتكتمل بعدها دنياه، ولم يعد يريد منها شيئاً آخر..

انطلقت من حلقة تنهيدة حارة، وهو يتقلب فوق فراشه، محاولاً أن يطرح أفكاره جانباً، ويحظى بقسط من النوم؛ ليستعيد ذهنه صفاءه ليعرف كيف سيكون تصرفه فيما هو قادم من حياته و..

أغمض عينيه مراراً وهو يتقلب فوق فراشه ولكن بلا فائدة، لقد خاصم النوم جفونه، وتركه فريسةً للأرق والقلق، وعلى الرغم منه وجد تفكيره ينحرف تجاه عم عدوي، ذلك الرجل الذي مات ولم يعرف أحد حقيقته، رسم في خياله أكثر من صورة لعم عدوي من خلال ما سمعه من "ممدوح"، ولكن ولا صورة منها استطاعت أن تجيب السؤال، هل هو شريف أم لا؟

تطلع لساعة يده في إجهاد فإذا بها تقارب الثالثة صباحاً، ظل يتقلب في فراشه، وما زال النوم مخاصماً لجفونه، وكلما وقعت عيناه على أحد الأركان في حجرة نومه، لمح إحدى الصور التي رسمها في خياله لعم عدوي، نهض من فراشه في ضيق، وهو يلعن في سره عم عدوي ألف ألف مرة، تحرّك في خطوات متناقلة يجر قدميه جراً إلى المطبخ؛ ليعد لنفسه فنجاناً من القهوة، فرك عينيه في إجهاد، وهو يتناول كنكة القهوة بعد أن أشعل الموقد، اتجه نحو صنبور المياه، وصور عم عدوي التي رسمها في خياله تحاصره في أركان المطبخ، زفر في ضيق، وهو يفتح صنبور المياه، وفجأة..

وقعت الكنكة من يده أرضاً على أرضية المطبخ المصنوعة من الخشب، وتوقف فريد في ذهول يتطلع لأرضية المطبخ، وتناول كنكة القهوة مرة

أخرى وألقى بها أرضاً، وتضاعف ذهوله وقد ازدادت عيناه اتساعاً، ودبّ في جسده نشاط عجيب وفقد أي أثر للنوم، ورمى الكنكة أرضاً للمرة الثالثة..

وللمرة الثالثة - أيضاً- التقطت أذناه نفس الدوى الذي سمعه من المرة الأولى، تطلع "فريد" لأرضية المطبخ، وقد لمع في عينيه بريق عجيب، وراح يردد في نفسه:

- هو ممكن يكون..

ولم يعط نفسه فرصة ليكمل العبارة، وإنما رقد أرضاً على أرضية المطبخ، ووضع أذنيه على الأرض وراح يدق عليها بأصابعه، وتألقت عيناه بالبريق العجيب مرة أخرى، وهو ينهض من مكانه واقفاً، وراح يمسح بعينيه أرجاء المطبخ حتى عثر على بغيته، آلة حديدية ذات سن مدبب ملقاة بأحد أركان المطبخ، تناول الآلة الحديدية، وأنفاسه تتلاحق في سرعة، ووضعها بين لوحين من الخشب، ونزع اللوح الأول والثاني والثالث.. تلاحقت أنفاسه أكثر وأكثر، وهو يتطلع لذلك التجويف السري الذي ظهر أمامه، ونظر إلى تلك الحقيبة السوداء الضخمة القابعة بداخل التجويف..

وقف مكانه لحظات يمسح عرقاً غزيراً تصبّب به وجهه، ثم انبطح أرضاً مرة أخرى وتناول الحقيبة، وفتحها، رباها!! الحقيبة مكتظة عن آخرها بالأموال.

وفي تلك اللحظة استطاع "فريد" أن يتوصل لإجابة السؤال الذي حير الجميع..

نعم.. لقد عرف حقيقة عم عدوي !

(١٩)

استمع الحاج "محمود" للقصة كاملة من بين شفتي "فريد"، داخل حجراته الخاصة بالطابق العلوي، وظهر الحزن مرة أخرى على وجه الحاج "محمود" ما أن انتهى "فريد"، وقال له:

- وإزاي تسمح لنفسك تأخذها؟ دي فلوس حرام، وكمان مش بتاعتنا، دي فلوس الدولة يا "فريد".

تناول "فريد" كف والده، وقال:

- عارف يا حاج إن اللي أنا عملته غلط، وإن الفلوس دي مش من حقنا، وعشان كده كنتُ متردد آخذها، بس بصراحة دارت في عقلي أسئلة كثير، هو إيه اللي خلاني أسيب البلد وإنتوا في الأزمة دي؟ وإيه اللي خلاني أتصل بممدوح مع إني ليا أصحاب كثير بالقاهرة؟ وإيه اللي خلّى المعلم "رضوان" يوافق أسكنُ بشقته؟ وإيه اللي خلاني أهتم بحكاية عم عدوي وأسأل عليها ممدوح؟ وإيه اللي خلاني الوحيد اللي يوصل للفلوس دي، ويعرف حقيقة عم عدوي و..

قاطعہ الأب قائلًا فی حیرة:

- یعنی ایہ یا "فرید" یا ابني؟ وعاوز تقول ایہ؟

ابتسم "فرید"، وهو یربّت علی کتف أبيه قائلًا:

- کل الأسئلة دي یا حاج خلّتي أوصل لحاجة واحدة، إن ربنا عاوزني

أنا من دون الناس أعرف مكان الفلوس عشان نحل بيها أزمتنا.

أراد الأب أن يقاطعه، ولكن "فرید" استطرد قائلًا، وهو یربّت علی کتفه

مرة أخرى:

- مع وعد مني یا حاج، لأ مش وعد، دا قسم إن الفلوس دي دين في

رقبتي، وهرجعها تاني لما تتحل أزمتنا.

تطلع الحاج "محمود" طويلا لولده هذه المرة، وقد ترقرت الدموع في

عينيه، ثم مدّ يده تحت وسادته والتقط مصحفا، وضعه بين كفي ولده،

وقال:

- دا كتاب ربنا یا "فرید"، عاوزك تحلف قدامي دلوقت إنك هترجع

الفلوس دي تاني، سواء كنت أنا عايش أو ميت.

ترقرت الدموع في عيني "فرید"، وهو يضع كفه فوق كتاب الله، وقال:

- أقسم یا حاج.. أقسم بالله العلي العظيم إنني هرجع الفلوس دي تاني.

عندئذ ارتسمت ابتسامة صافية على وجه الحاج "محمود" الذي اعتدل،

وقد استرد عافيته، وقبض بكفيه علی کتف "فرید" قائلًا:

- ربنا يبارك فيك یا بني.

وألقى "فريد" بجسده بين أحضان والده، وراح يربّت على كتفه في حب وحنان.

وهناك.. خلف باب الحجرة كانت أذن "حمزة" قد سجلّت كل كلمة تبادلها "فريد" مع أبيه، وقد جحظت عيناه في جنون وشيطانه يتراقص من حوله، ويردد في أعماقه:

- يا ترى.. طموحك وصل لإيه دلوقت يا "فريد"؟!

وهز رأسه، وهو يترك مكانه متسللا فوق أصابعه؛ ليغادر الفيلا، وقد تضاعف بريق الجنون في عينيه مرات ومرات..

في تلك اللحظة ظهرت "تهاني" من خلف الستار، وقد رأت الغضب والجنون في عيني "حمزة"، وتضاعف قلق "تهاني"، تضاعف ألف ألف مرة.



(٢٠)

خلف جذع شجرة ضخمة تطل على شاطئ البحيرة، اتكأ "دياب" بظهره،
وراح يتطلع لمياه البحيرة في شروء، وهو يأكل كسرة من الخبز كانت بيده،
وراح يردد في حزن، وعيناه معلقتان بمياه البحيرة:
- حورية..

حورية..

البت الحلوة الجنية..
تنزل لها تطلع م المياه..
تطلع لها تنزل ف المياه..
تبص عليها تقولشي حورية..
وهي حورية.

راح يردد تلك الكلمات، وبين كل فنية وأخرى يتناول قطعة من كسرة
الخبز التي بيده، وفجأة لمح "فريد" في طريقه لقارب عم نوح، فهبّ من مكانه
مسرعاً، ووضع ذيل جلبابه في فمه كعادته، وراح يجري تجاه "فريد"، وهو
ينادي قائلاً:
- يا "فريد".

التفت إليه "فريد" وقال، وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

- أهلا يا "دياب"، عامل إيه؟

وقف "دياب" بجواره وقال:

- إنت طيب يا "فريد"، وأنا بحبك أوي.

رَبَّتْ "فريد" على كتفه، وهو يفتح حقيبة سفره، ويتناول منها تفاحة كبيرة،

ناولها له قائلاً:

- وأنا كمان بحبك يا "دياب"، خد كُل دي.

تناول منه "دياب" التفاحة في فرحة، وأخذ منها قضمه كبيرة في سعادة،

وهو يقول:

- إنت حبيبي يا "فريد".

وأخذ قضمه أخرى في سعادة، وفجأة وقعت عيناه على مياه البحيرة التي

تحركت مياهها بفعل رياح خفيفة، فانقلبت ملامحه، وظهر عليها حزن وجزع

شديدان، وراح يجري تجاه البحيرة، وطرف جلابه بين أسنانه كعادته، وهو

يصرخ:

- حورية... حورية....

هَزَّ "فريد" رأسه مبتسماً، وتابع طريقه إلى قارب عم "نوح"، وكان قد

اعتاد على تلك التصرفات كثيراً من "دياب".. وهو في طريقه راح يخرق

الأفق بناظره محاولاً أن يلمح ولو من بعيد منزل حبيبته "مديحة" التي لم يرها

بسبب زيارته القصيرة للقريه، وراح قلبه يخفق في قوة.

(٢١)

مرّت الأزيمة، واسترد الحاج "محمود" عافيته ودفع ديونه، وعاد يباشر أرضه مرة أخرى، في حين كان "حمزة" ما زال غارقاً في ظلمات الشر وسط رفاق السوء ربيع والزناقي..

وفي تلك الليلة عاد الحاج "محمود" من أرضه، وتناول العشاء، وظل جالساً في بهو الفيلا، ولم يشأ أن يذهب لفراشه كعادته.. تطلع لزوجته "تهاني" طويلاً في صمت، ثم قال لها:

- إنت عارفة يا "تهاني" إن الفضل يرجع لفريد بعد ربنا سبحانه وتعالى في حل الأزيمة الأخيرة.

ابتسمت الأم وقالت:

- الحمد لله يا حاج.

رمى الحاج "محمود" بنظره من النافذة، ورأى القمر الذي بدا مختنقاً خلف السحب، وقال:

- بس أنا مش عاوز أقابل ربنا وأنا ظالم.

- قاطعته تهاني في جزع:
- ربنا يطول في عمرك يا حاج، ليه بتقول كده؟
- ابتسم الحاج "محمود"، وقال:
- طال ولا قصر، الموت جاى جاى يا "تهاني" وبعدين..
- قاطعته "تهاني" قائلة:
- إنتَ عاوز تقول حاجة يا حاج.
- صمت الرجل مرة أخرى طويلاً، ثم حسم أمره أخيراً، وهو يقول بحسم:
- أيوه يا "تهاني"، أنا قررت أكتب الفيلا لفريد.
- تضاعف القلق الخفي في قلب الأم، وقالت في جزع:
- بس يا حاج..
- قاطعها الرجل قائلاً:
- اسمعيني كويس يا "تهاني"، أنا عارف إن "فريد" و"حمزة" إخوات، ومينفعش أفرّق بينهم، بس "فريد" هو اللي حل الأزمة الأخيرة، وحلف قدامي إنه هيرجع الفلوس تاني..
- هتفت الزوجة في حيرة قائلة:
- كل دا أنا عارفاه يا حاج.
- هتف الرجل قائلاً:
- لكن لنفرض إن "فريد" مقدرش يرجع الفلوس لأي سبب، يبقى ساعتها يقدر يبيع الفيلا، ويرجع الفلوس من تمناها.

انقبض قلب الأم، وتضاعف قلقها الخفي آلاف المرات، وهى تقول:

- أيوه يا حاج، بس "حمزة" ..

قاطعها الأب قائلاً:

- وحمزة ماله يا "تهاني"؟! وهو كان هيعمل إيه لو البنك حجزع الفيلا والأرض؟

وصمت قليلاً تطلع خلالها لساعة الحائط التي تخطت عقاربها منتصف الليل بنصف الساعة، وقال وقد امتلأت عيناه بالألم والحسرة:

- وبعدين تقدرى تقوليلي "حمزة" فين دلوقت؟ كل ليلة ع الحال دا، ميرجعش إلا وش الفجر مش قادر يصلب طول م الهباب الي بيشربه.

وصمت الأب للحظة، استطرد بعدها قائلاً بحسرة مضاعفة:

- أنا مش عارف الواد دا طالع مين، أمه - الله يرحمها - كانت كلها طيبة وبتحب كل الناس.

قاطعته الأم، وقد خافت عليه من أن يعاوده المرض مرة أخرى، وقالت:

- وحياتك عندي تهديا حاج، وتعالى دلوقت عشان تنام وترتاح.

ردَّ الرجل بإصرار، وهو يتطلع للساعة التي قاربت الثانية صباحاً:

- لأ يا "تهاني" .. مش هنام قبل ما أشوف "حمزة"، وأحط معاه النقط ع الحروف.

تطلعت إليه الزوجة في يأس، ثم تحركت نحو السلم في استسلام حيث الطابق العلوى، وهى تدعو في سرها أن تمر تلك الليلة على خير..

أما الحاج "محمود" ظل قابعا مكانه فوق كرسيه، ولمح القمر في السماء، وقد ازداد اختناقاً خلف السحب، فتطلع إلى السماء، وراح يردد وفي حلقه مرارة وأسى:

- هيه.. سبحان من له الدوام، لك الحمد ولك الشكر يا رب، اللهم بحق رحمتك وعفوك وغفرانك يا حي يا قيوم أن تهدي ولدي "حمزة" وتعينه على نفسه الأثارة بالسوء، وتحفظ ولدي "فريد" وتحميه من كل سوء وتعينه علي طاعتك وعلى رد الي في رقبته.

مسح الحاج "محمود" دمعة انحدرت علي خده، في نفس اللحظة التي كان فيها باب الفيلا يفتح، و"حمزة" يدخل في هدوء يتحسس خطاه، وعيناه على الطابق العلوي حيث حجرة أبيه ..
- "حمزة".

انتفض جسد "حمزة" إثر صوت والده الذي انطلق فجأة من بهو الفيلا، ففرك عينيه، وحاول أن يتماسك أمام والده، ولكن رائحة فمه الكريهة انبعثت منه، وسبقته إلى والده الذي راح يتطلع إليه في غضب، وهو يقول:

- أيوه يا حاج.. فيه حاجة؟

ردّ الأب في صرامة:

- كنت فين لغاية دلوقت؟

يرد "حمزة" بجفون متثاقلة:

- كنتُ في القهوة ..

قاطعہ الأب قائلًا، وقد يئس منه، وأحسَّ وكأنه كمن يحرث في البحر،
أو يحاول أن يقبض على الهواء بيديه:
- تعالى يا "حمزة" واقعد، عاوزك في موضوع مهم.
ألقى "حمزة" بجسده فوق المقعد في امتعاض، وهو يجاهد ليبقي عينيه
مفتوحتين، وهو يقول:
- تحت أمرك يا حاج .
أخذ الأب نفسًا عميقًا، وقال:
- اسمعني كويس يا "حمزة"، وركز في كلامي، إنت طبعًا عارف إن
الأزمة الأخيرة مرّت على خير.
- الحمد لله يا حاج.
- وكم إن عارف إن الفضل في اللي حصل لفريد أخوك بعد ربنا
سبحانه وتعالى.
شعر "حمزة" بالانقباض حين جاء ذكر "فريد"، واستعادت ملامحه
شراستها، وهو يقول:
- تقصد إيه يا حاج؟
- أنا هكتب الفيلا لأخوك "فريد" و..
قاطعہ حمزة صارخًا، وقد جحظت عيناه في جنون:
- تكتب الفيلا ملين؟!
- يا ابني متنساش إن البنك كان هيحجز على الفيلا والأرض لولا "فريد"
أخوك و..

قاطعته "حمزة" قائلاً بصوت عميق كفحيح الأفعى:

- وأنا؟!

سيطر الحاج "محمود" في إجهاد علي الحسرة التي بداخلة من الطريقة التي يتكلم بها "حمزة"، وقال في ألم:

- هاكتبلك البيت القديم، والأرض هتتوزع بينكم بشرع الله إنت وفريد وأمه. قاطعه "حمزة" في ثورة:

- بس دا ظلم.. ظلم.

شعر الحاج "محمود" بأن بهو الفيلا قد انهار فوق رأسه، وقال في صدمة:

- أنا ظالم يا "حمزة"؟!

ردد "حمزة" صارخا، وقد تضاعفت ثورته:

- أيوه.. إنت ظالم.. ظالم..

خرجت "تهاني" في تلك اللحظة صارخة في وجه "حمزة"، وقد رأت ألما هائلا على وجه الحاج "محمود":

- كده ميصحش يا "حمزة"، ومتنساش إنك بتكلم أبوك.

استدار إليها "حمزة"، وقد تضاعف جنونه مرات ومرات صارخا في وجهها:

- طبعاً ميصحش، ما هو كل دا من تدبيرك إنت وابنك.

وهنا لم يتمالك الحاج "محمود" نفسه، وهوى على وجه "حمزة" بصفعة قوية، وهو يصرخ فيه قائلاً:

- إنت مش ابني، اخرج بره.. بره مش عاوز أشوف وشك.

اندفع "حمزة" خارجا، ويده على خده مكان صفة أبيه، والشرر يتطاير من عينيه، ومن حوله تتراقص جميع شياطين جهنم.. في نفس اللحظة كانت "تهاني" تلقي بجسدها أرضا صارخة، وهى تبكي:

- حصّل الي كنت خايفة منه، ليه يا حاج؟ ليه؟

ألقي الرجل بجسده على أحد المقاعد، وقد عاوده المرض وأجهده بشده، وردد قائلا في وهن من بين دموعه:

- كنتُ عاوز العدل يا "تهاني".

- وكده العدل اتحقق يا حاج؟ ! إنت زرعت الشر بينهم للأبد.

رفع الرجل عينيه إلى السماء التي اختفى قمرها تماما خلف السحاب، وراح يردد وسط دموعه، وهو يجاهد بصعوبة ليلتقط أنفاسه:

- العدل يا عدل.. العدل يا عدل..

في حين كانت "تهاني" تنظر إلى الباب الذي خرج منه "حمزة"، وتنظر إلى زوجها الذي عاوده المرض في قسوة، ثم قبضت بكفيها على جانبي رأسها، وراحت تردد:

- استرها.. استرها يا رب.

ولم تكن تدري "تهاني" في تلك اللحظة، وهى تردد تلك العبارة، أن هناك زائرا الآن في طريقه لفيلا الرشيدى..

زائر لا يمكن رده.. أبدا !



(٢٢)

طرقات قوية على باب منزل "الزناتي" الذي يسرع ليرى من يطرق بيته بعد الفجر، وكم كانت دهشته وهو يرى أمامه "حمزة" الذي فارقه عند مقهى روايح وشفيق منذ ما يقرب من الساعة، دخل "حمزة" والغضب على وجهه و"الزناتي" يقول له:

- خير يا "حمزة" .. إيه اللي حصل ؟ !

صمت "حمزة" لحظات، ثم قال وهو يلقي بجسده على أحد المقاعد بردهة المنزل:

- ولّع الفحم يا "زناتي"، وبعدين هحكرك كل حاجة.

تطلع إليه "الزناتي" بنظرة فاحصة يحاول من خلالها أن يسبر أغواره ليعرف ما يخفيه، ثم اتجه للموقد، وبدأ في إشعال الفحم وإعداد النارجيلة، و"حمزة" يفكر فيما حدث، والذي كان لا يتصور حدوثه في أشع كوابيسه، كان يعرف جيداً أن "فريد" ذو طموح لا حدود له، ويعرف أيضاً أن والده يحبه، ويفضله عليه، ولكن أن تصل الأمور لهذا الحد، فهذا هو المستحيل بعينه، ولا يمكن السكوت عليه أبداً ..

- "كله جاهز يا "حمزة" .. قولي بقى إيه اللي حصل ؟

نطق "الزناقي" بتلك العبارة، وهو يناول "حمزة" النارجيلة التي أخذ منها نفساً عميقاً، انطلق بعدها الدخان من فمه كحمم بركانية، ثم أطلق زفيراً حاراً، وقال وهو يهزُّ رأسه في غضب:

- عاوز يكتبله الفيلا.

ردد "الزناقي" بذهول:

- بتقول إيه؟ ومين دا اللي عاوز؟

أخذ "حمزة" نفساً آخر وقال:

- ومين غيره يا "زناقي"؟ ركّز شوية، أبويا عاوز يكتب الفيلا للمحروس "فريد".

تراجع "الزناقي" بظهره إلى الوراء في مقعده، وفي عينيه لمعت نظرة مأكرة تختلط بسعادة خفية، وهو يتطلع إلى "حمزة" في صمت، فقد كان يحب أن يراه دائماً في أزمات متتالية، يخرج من ورطة ليقع في غيرها؛ ليكون دائماً في حاجة إليه، وإلى رأيه ومشورته باستمرار؛ حتي يتخلى عن غروره وتكبره وعنجهيته الدائمة في التعامل معه هو وربيعة..

ارتدى "الزناقي" قناع الحزن على وجهه، وقال متصنعا الدهشة:

- بس إزاي الكلام دا يا "حمزة"؟ دا أنت الكبير..

تنهّد "حمزة" في حسرة، وقال مقاطعاً:

- قال إنه هيكبلي البيت القديم.

تراجع "الزناقي" للوراء، وقال بهدوء وعلى شفثيه شبح ابتسامة ساخرة:

- وإنّ عملت إيه يا "حمزة"؟

ترك "حمزة" النارجيلة للزناتي، وهو يقول:

- رفضت طبعاً، واتهمته بالظلم، فطردي من الفيلا.

تضاعفت النظرة الماكرة في عيني "الزناتي"، وهو يقول:

- طردك! بس إنت غلطان يا "حمزة".

ردد "حمزة" قائلاً بذهول:

- غلطان؟! !

- أيوه طبعاً غلطان، إنتَ كان لازم تعمل نفسك موافق وتسايه؛ عشان

فريد وأمه ميسيطروش عليه، ووقت الجد هيكون فيه كلام تاني.

تطلع "حمزة" إلى الزناتي في إعجاب لدهائه وذكائه، وقال:

- عندك حق يا "زناتي"، بس أنا مقدرتش أمسك نفسي، أول ما سمعت

كلامه، كان نفسي أحرق وأولع وأدمر و..

ابتسم "الزناتي" قائلاً بسخرية، وهو يطلق دخان النارجيلة من فمه بغزارة:

- تحرق وتدمر ها.. ها.. هو دا حمزة الي أعرفه، "حمزة" من غير قناع..

قاطع "حمزة"، وهو يلوح بذراعه قائلاً:

- "زناتي" .. أنا عندي اللي مكفيني، ومش ناقصة سخافتك.

تطلع "الزناتي" إلى ضوء النهار الذي غمر القرية، وقال ضاحكاً:

- حاضر يا عم "حمزة" متزعلش، تعالى دلوقت ننام ساعتين، وبعدين

نروح لربيع نشوف حل.

وتضاعفت في عيني الزناتي النظرة الماكرة مرات ومرات .

(٢٣)

بعد الفجر بقليل وقفت "مديحة" - بعد أن أدت حق ربها وصلّت الفجر - في نافذة منزلهم، وأطلت بوجهها الملائكي على مياه البحيرة، وفي أعماقها لمحة من الحزن الدفين، كان بداخلها شعور أشبه باليقين بأن الأيام القادمة لا تحمل لها الخير، كانت تشعر بأن السعادة التي تتمناها مع مَنْ تحب لن تتحقق، كانت لا تدري سببا لذلك، ولكن هذا الإحساس يسيطر عليها، ويجثم على أنفاسها، كانت قد علمت من أبيها بالظروف القاسية التي مرّت بأسرة الرشيد، وكيف أن "فريد" عاد إلى القرية مرتين، وسافر دون أن تراه ..

- "حورية ماتت يا مديحة"

انتفض جسدها لصوت "دياب" الذي ظهر فجأة من وسط المزارع المجاورة لبيتهم، تماكنت نفسها وهتفت مبتسمة:

- الله يرحمها يا "دياب".

تطلع إليها "دياب"، وهو يتناول من جيب جلاببه ما تبقى من التفاحة التي أعطاها له "فريد"، وقال وهو يأخذ منها قضمه، ويعيدها لجيبه مرة أخرى:

- أنا شوفت "فريد" وهو مسافر.

تطلعت إليه في صمت، ولم ترد فاستطرد قائلاً في طيبة:

- "فريد" طيب أوي يا "مديحة"، وأنا بحبه.

حاولت أن تبسم، ولكن ظهر عليها انزعاج مباغت، وهي تتطلع إلى طائر قد حطَّ على الشجرة المجاورة لبيتهم، طائر يسبب لها إزعاجاً كبيراً في الأيام الأخيرة، طائر الغراب..

حاولت أن تتجاهل رؤيته، وقالت لدياب:

- استنى يا "دياب".

غابت بداخل المنزل للحظات، عادت بعدها ويدها رغيف من الخبز الطازج وبعضاً من الجبن القريش، ناولتهما لدياب الذي أخذهما، ثم اتجه لشاطئ البحيرة المقابل لبيت "أبو السعد"، وجلس يتناول فطوره، وهو يردد كعادته:

- حورية..

حورية..

البت الحلوة الجنية..

تنزل لها تطلع م الميه..

تطلع لها تنزل في الميه..

تبص عليها تقولشي حورية..

وهي حورية.

راحت "مديحة" تتابعه في إشفاق، وغرقت مرة أخرى في أفكارها، ولم تستيقظ منها إلا على صوت أبيها "أبو السعد" يقول لها، وهو يستعد للذهاب لعمله في فيلا الرشيدي:

- صباح الخير يا "مديحة".

ردت عليه بصوت مجهد، يشوبه حزن دفين قائلة:

- صباح الخير يا أطيّب أب في الدنيا، برضه مش هتفطر؟

ابتسم "أبو السعد" في طيبة بالغة، وهو يقول:

- حبيتي أنتِ عارفة إن الحاج "محمود" بيزعل لما أفطر هنا، وهو ميستاهلش نزعله يا بنتي.

شردت ببصرها، وقالت مبتسمة:

- عندك حق يا عم "أبو السعد"، الحاج "محمود" راجل طيب بيحب

الخير للناس كلها.

- هو بس يا "مديحة"؟

ابتسمت "مديحة" في شحوب، وهي ترمق - من النافذة - الغراب

الذي قبع فوق الشجرة واستكان تماما، وكأنه اتخذها بيتا له دون عداها من الأشجار:

- ادعيلي يا بابا، وحياء حبيبك النبي تدعيلي في كل صلاة.

تطلع الأب لابنته في جزع، وقال:

- مالك يا بنتي؟ وليه الحزن اللي في صوتك دا كله؟

تنهدت "مديحة"، وقالت في أسى:

- مفيش يا بابا، بس إنت ادعيلي.

ثم ابتسمت مستطردة لتزِيل قلقه:

- وبعدين مش هو دا حق البت على أبوها؟ إنه يدعيها ربنا يخفف عنها كرمها ويكرمها.

تطلع الأب لابنته طويلا هذه المرة، أحسّ أنها تتحمل فوق طاقتها، كان يعلم سبب خوفها وقلقها، وأحسّ بها، وقَدّم لها العذر، قبض على كتفيها بكفيه الضعيفتين، وقال لها، وهو يتطلع لعينيها الحزيتين:

- اسمعيني كويس يا بنتي، إنتِ عارفة إن أبوك مش متعلم، بس الحمد لله فاهم الدنيا كويس، وأعرف أميّز بين الناس، وكمان فاهم أمور ديني، وعارف إن الي ربنا كتبه هيكون غصب عن أي حد، عشان كده عاوزك تسلمي أمرِك لله، وترمي حملِك عليه، وخليك واثقة في عدله سبحانه وتعالى.

تطلعت "مديحة" إلى أبيها في تقدير، ثم أَلقت بجسدها بين ذراعيه الواهنتين، وقالت والدموع في عينيها:

- متشكرة أوي يا بابا، متعرفش كلامك دا ريّحني إزاي.

قاطعها الأب وهو يربت على كتفيها، ثم مسح دمعة انفلتت على خدها على الرغم منها، وراح يقول:

- ادخلي يا بنتي اتوضي، وصليّ ركعتين شكر لله، وبإذن الله خير.

قَبِلت "مديحة" يد أبيها، فربّت على كتفيها مرة أخرى، ثم تركها وخرج، وعلى الرغم منها وقعت عيناها عليه مرة أخرى.. على الغراب.



(٢٤)

أشرقت شمس الصباح لذلك اليوم، وسرى دفئها في أجساد أهل القرية جميعاً ما عدا جسداً واحداً، جسد حظى صاحبه باحترام وحب الجميع.. الكبير والصغير، الغني والفقير..

جسد الحاج "محمود الرشيدى" الذي صعدت روحه إلى بارئها، بعد أن بذل معه الأطباء محاولات مضمّنية طوال الليل، ولكن الزائر - الذي لا يجب رده - أبى أن يعود بيد فارغة إلا بعد أن ينفذ أمر ربه سبحانه وتعالى، ظلت "تهانى" تصرخ وتولول، حين غفا الحاج "محمود" قليلاً، وحاولت إيقاظه فلم يستيقظ، عاد "حمزة" إلى الفيلا غير مصدق ما سمعته أذناه، دخل إلى الحجرة الخالية إلا من جثمان أبيه، وقف طويلاً أمام جسد أبيه المسجى فوق الفراش بلا حراك، ولم يصدق أن أباه قد مات، تطلع "حمزة" حوله يمينا ويسارا، ومدّ يده، وهزّ جثمان أبيه، هزه في عنف، هزه مرات ومرات، وتأكد أنه مات..

وهنا وفي تلك اللحظة تراجع "حمزة"، واضطجع بظهره على حائط الحجرة، وأحسّ براحة..
راحة عجيبة..

من الخارج سمع الصراخ والعيول، فوجد أنه لا بد أن يحزن هو الآخر، فارتدى قناع الحزن، وخرج وسط الأهالي الذين فُجِعوا في موت الحاج "محمود" وبكوه جميعاً، بكوا الأبوة والكرم والحنان والعطف، وصل "فريد" إلى القرية، وبكى أباه طويلاً الذي شهدت جنازته حشداً من البشر لم تشهده جنازة من قبل، وعلى الرغم من أن "فريد" هو الذي وارى جسد والده تحت التراب، إلا أنه كان لا يزال غير مصدق وفاته، انصرف الجميع من عند المقابر إلا هو، أصرّ أن يبقى بجوار مدفن والده..

راح يتحسس القبر، ودموعه تنهمر في غزارة و..
- "فريد"

فاق من شروده على صوت "مديحة"، واقفة خلفه، وهتفت قائلة،
والدموع في عينيها:
- البقاء لله يا فريد.

- الحاج "محمود" مات يا "مديحة".

- "كل نفس ذائقة الموت"، وهو ذا حال الدنيا، بس إنت لازم تجمد،
وتدوس على حزنك؛ عشان تُقف جنب "حمزة" وتأخذ العزا في أبوك.
تطلع إليها "فريد" في ذهول، وقد كشفت له حقيقة لم يتبينها بعد في غمرة حزنه
على أبيه، لقد مات والده، وأصبح هو و"حمزة" وجهاً لوجه، وكأنهما عرايا..
نعم عرايا في صحراء جرداء.



(٢٥)

شهر كامل مرّ على وفاة الحاج "محمود"، شهر كامل عاش فيه فريد حياة الموتى، كان لا يفارق المقابر حيث قبر والده، وحين يهزمه التعب يرجع للفيلا، ويلقي بجسده فوق فراشه في إجهاد..

أما "حمزة" فقد تغيرت حالته، وظهر على حقيقته، فمن اليوم الثاني للوفاة ارتدى عباءة الوالد، وجلس مكانه على المائدة بل نام في حجرة أبيه، وذهبت "تهاني" لتنام مع "فريد" في حجرته؛ فقد كانت خائفة من أن يفشل في التغلب على أحزانه، ويتنبه لمستقبله، وامتحاناته التي صارت على الأبواب..

وكان "فريد" يتابع التغيرات التي طرأت على "حمزة"، وهو يتسم بأعماقه في سخرية، وسيطر عليه إحساس قوى بأن "حمزة" لم يحزن لوفاة أبيه بل كان يتمنى موته.

ظلّ "فريد" يراقب كل ذلك في صمت، حتى كان ذلك اليوم الذي دخل فيه "حمزة" حجرة فريد - الذي كان يعد حقيقته للسفر لحضور الامتحانات - دون أن يطرق الباب، وقال له في غلظة:

- إنتَ مسافر النهارده؟

ردّ فريد بهدوء:

- أيوه.. عاوز حاجة؟

انقلب حال "حمزة" فجأة، وراح يصرخ في وجهه بغضب:

- إنت مش ناوي تبطل لعب العيال دا؟

عقد "فريد" حاجبيه، وقال:

- تقصد إيه يا "حمزة"؟

- إنت كنت فين من ساعة؟

- كنتُ ع البحيرة.

يصرخ "حمزة" بغضب في وجهه:

- لأ.. كنت مع بنت الجنائي.

لم يستطع "فريد" أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك، فصرخ في وجه "حمزة"، وهو يلوح بإصبعه قائلاً في غضب:

- "حمزة".. أوعى تتكلم معايا تاني بالطريقة دي، وبنت الجنائي دي لازم تتكلم عنها باحترام؛ عشان هتجوزها بعد الامتحانات، وأبوك كان عارف وموافق.

تطلع إليه "حمزة" في سخرية، وهو يعدل عباؤه قائلاً:

- هتتجوزها كده مرة واحدة!

وصمت قليلا كسّر فيها عن أنيابه، وقال بغضب:

- اسمع بقى يا "فريد"، من النهارده كل حاجة اتغيرت، وبنت الباشا الجنائني مش عاوزك تشوفها تاني، وموضوع الجواز دا تنساه بالمرة.. سامع؟
تجمّعت كل شياطين الغضب في عيني "فريد"، وصرخ في وجه "حمزة"
قائلا:

- لأ يا "حمزة" مش سامع، و"مديحة" هتجوزها بمزاجك أو غصب
عنك.

قال ذلك، وتركه، واندفع خارجاً كالعاصفة في طريقه لمحطة القطار،
وفي تلك اللحظة ظهرت "تهاني" من خلف الستار، وراحت تهز رأسها في
أسى، وقد انقبض قلبها في قوة.



(٢٦)

داخل مقهى القرية تجمّع "حمزة" مع رفاقه، وراحوا يدخنون النارجيلة، و"ربيع" يهتف متعجبا:

- وليه يا "حمزة" ترفض جواز فريد من مديحة؟

رَبَّتْ "الزناتي" على كتف "ربيع"، وقال ضاحكا:

- "حمزة" ميهמוש "فريد" هيتجوز مين، "حمزة" كل اللي يهمه يضايق "فريد" وخلاص.

- وليه طالما كل واحد في حاله؟

- إنّت ناسي إن الحاج كان هيكتب الفيلا لفريد؟

- بس ملحّش يكتب يا "زناتي".

- صح يا "ربيع"، بس كمان "حمزة" مش قادر ينسى.

أخذ "حمزة" نفسا قويا من النارجيلة، وهو يتابع الحوار بينهما، ثم تطلع إلى "الزناتي" طويلا، وقال له:

- كثير يا "زناتي" بحس إنك عايش جوايا، وعارف كل اللي بفكر فيه.

ضحك "الزناقي"، وقال بمكر:

- وأنا كثير يا "حمزة" بحس إن نهايتي هتكون على إيدك.

تطلع الاثنان لبعضهما طويلا في شروء، وربع ينقل بصره بينهما كالأبله، وفجأة غرق الثلاثة في نوبة من الضحك الشديد.. في تلك اللحظة أقبلت عليهم "روايح" تتمايل بجسدها القوي، وتسبقها مدافعها البارزة كعادتها كسجينين يريدان الفكاك من الأسر، تطلع إليهما "حمزة"، وقال ضاحكا في فجاجة:

- سمعت إن التفاح غلي اليومين دول.

تنهدت "روايح" تنهيدة حارة لفحت وجوههم الثلاثة في قسوة، وانخلعت لها قلوبهم، وهى تغمز بعينها تجاه زوجها "شفيق"، وقالت:

- الغالي يرخصلك يا سيد الرجالة.

قالت ذلك ثم تركتهم، واتجهت للحجرة الجانبية، وقد شدّت الثوب على جسدها، فبرزت مفاتنها، وهى تسير الهوينى في دلال، وقبل أن تحتويها الحجرة التفتت إليهم، وألقت عليهم نظرة بعينها المليئة بالإصرار على الأخذ دائما، وقد انفرجت شفتها في رغبة، نهض "حمزة" من مكانه سريعا، وأخرج حافظته، وتناول ورقة مالية رماها على الأرض لشفيق، الذي أقبل يلتقطها من الأرض، وهو يلهث قبل أن يعطيهم ظهره، ويعود لمكانه حيث كان!

في حين مرر "حمزة" أصابعه على شاربه الكث، وهو يعدل عباءته، ويتجه للحجرة التي دخلتها "روايح"، في حين كان "شفيق" ما زال يتحسس الورقة المالية!

(٢٧)

داخل مبنى كلية الزراعة تجمّع الطلابُ بعد انتهاء الامتحان في مجموعات أمام المبنى، وفي حديقة الكلية يتحدثون عن الامتحان، تسلل "فريد" من بينهم، وذهب لمكانه المعتاد في الحديقة، وتبعه "مختار" الذي هتف به قائلاً:

- هسافر دلوقت يا "فريد" عشان أطمّن على أبويا وأختي، وهرجع على معاد الامتحان بكره الصبح.

سَلَّم عليه "فريد" قائلاً:

- مع السلامة يا صحبي.

ودعه "مختار" وانطلق في طريقه، وظلّ "فريد" وحيدا للحظات، جاء بعدها "ممدوح"، وبصحبه العديد من الأصدقاء، الذين جاءوا يقدمون واجب العزاء لفريد في موت والده، وشكرهم "فريد" جميعاً، وحين انصرفوا نظر "فريد" لصديقه ممدوح، وقال:

- إيه أخبار الحاج "رضوان"؟

- بخير يا صحبي، ودايماً بيسألني عليك.

شرد "فريد" بنظره بعيداً، وقال بصوتٍ بدا غامضاً لممدوح:

- بلّغه سلامي يا "ممدوح" وقوله جميله هيفضل في رقبتي ليوم الدين.

ضحك "مدوح"، وقال:

- جميل إيه يا صحي؟ دا أنت قعدت في الشقة ليلة واحدة، وكمان مشيت من غير مأحد يشوفك.

ابتسم "فريد" بغموض، وهو يقول:

- وهى ليلة واحدة شوية يا صحي؟ ..

- "البقاء لله يا فريد"

التفتا معا لمصدر الصوت..

كانت "وفاء" التي أقبلت عليهما في ثوب وردي طويل زادها جمالا، تطلع إليها "مدوح"، وقال لفريد:

- هعمل مصلحة وأرجعلك تاني يا "فريد". ثم التفت لوفاء قائلا لها:

- بعد إذنك آنسة "وفاء".

جلست "وفاء" بجوار "فريد" الذي قال لها:

- شكرا يا "وفاء".

تطلعت إليه وقالت، وهى تجوب بعينيها ملامح وجهه:

- بتشكرني على إيه يا "فريد"؟ دا حقك علىّ.

تطلع إليها في صمت ولم يرد، فصمتت هى الأخرى لحظات، ثم قالت:

- أهم شيء لازم تهتم بامتحاناتك، ومتخليش الحزن يآثر عليك.

هزّ رأسه، وقال:

- للأسف مفيش حل قدامي غير كده يا "وفاء"، رغم إن الألم بيعصر قلبي.

انفطر قلبها لكلماته الحزينة، وقالت:

- عارف يا "فريد" على الرغم من قسوة الموت، بس هو الحقيقة الوحيدة
اللي في حياتنا.

أوماً "فريد" برأسه، وقال:

- عندك حق يا "وفاء"، بس الحاج "محمود" - ربنا يرحمه - كان بالنسبة
ليا هو الأمان، والحنان، والصاحب، والصديق، وبموته أنا فقدت كل دا.
انتفض قلبها أكثر وأكثر في حزن لكلماته، وقالت:

- كل شيء في حياتنا يا فريد بيداً صغير ويكبر، إلا الحزن بيداً كبير ويصغر.
تطلع إليها "فريد" طويلاً هذه المرة، وعلى شفثيه شبح ابتسامة، وكأنه
يكتشفها للمرة الأولى، ويكتشف رجاحة عقلها واتزانها و..
- "فريد.. عينيك"

هتفت "وفاء" بالعبارة في حياء، ففاق من شروده، وقال بنفس الابتسامة:
- آسف يا "وفاء" .. بس إنت متعرفيش أنا أرتاحت إزاي بعد كلامي
معاك، وبجد أنا فخور بصدقتك.

ابتسمت ابتسامة هادئة زادتها رونقا وجمالاً، وقالت:

- وأنا كمان بعز بصدقتك يا فريد. ثم استطرت قائلة بنفس الابتسامة:
- بس أوعى تنسى إن أنا قولتْهالك قبل كده.

تطلع إليها بتساؤل، فاستطردت قائلة، وقد اتسعت ابتسامتها:

- إن الأمل هيفضل موجود طالما قلوبنا بتنبض بالحياة.
- أيوه يا "وفاء" عندك حق؛ من غير الأمل منقدرش نعيش لحظة واحدة.

صمتت "وفاء" لحظات أخرى، ثم قالت:

- "فريد" .. بعد أيام هنخلص امتحانات، ونستنى شهادة التخرج.

صمتت مرة أخرى، ثم استطردت وعيناها في الأرض في خجل:

- تسمح لي أطمئن عليك، حتى لو عن طريق التليفون.

رد عليها بهدوء شديد هذه المرة قائلاً:

- "وفاء" .. اللي إنت بتطلبية دا يسعد أي شاب، ويخليه يطير م الفرح؛ لأنك بجدة إنسانة جميلة وهادية وعاقلة، بس أنا قتلتك قبل كده أنا مرتبط، وفي نفس الوقت مرضاش لأختي تعلق نفسها بوهم ..

قاطعته قائلة، وهى تنهض، وقد زادت ابتسامتها أكثر وأكثر:

- خلاص يا "فريد"، وجهة نظرك واضحة ومش محتاجة تبرير، وصدقني بتمالك من كل قلبي ربنا يسعدك.

ثم التقطت حقيبتها قائلة، وهى تستعد للانصراف، وعلى شفيتها ابتسامة هادئة:

- بس أوعى تنسى الأمل هيفضل موجود.

ثم لوّحت له بكفها الرقيقة، وعلى وجهها أجمل وأرق ابتسامة، لوّح لها بكفه هو الآخر، وما أن انصرفت حتى تراجع بظهره إلي الوراء، وردد في أعماقه:

- يا ترى أخبارك إيه يا "مديحة"؟

وغاص في عالم الخيال مع محبوبته، ولم يدر بخلده ولو للحظة واحدة، أن

"وفاء" التي كانت أمامه منذ لحظات تُشع حيويةً وجمالاً وأملًا، تقف - الآن -

- هناك خلف إحدى الأشجار، تتابعه من بعيد، وقد فقدت حيويتها تماماً، وعلى خدها كانت توجد.. دمعة !

(٢٨)

على الطريق الزراعي كان الجواد يجز الكارثة، وعليها "حمزة" الذي كان يفتل شاربته كعادته، وأمام منزل "أبو السعد" توقّف الجواد، ونزل "حمزة" الذي راح يتطلع للدار في احتقار، وهو يطرق الباب بقبضته في عنف، فتح "أبو السعد" الباب، وراح يهتف به مرحبا، وهو غير مصدق:

- أهلا.. أهلا يا سي "حمزة"، اتفضل.

تطلع "حمزة" للدار مرة أخرى في قرف، وقال - دون أن يتجاوز المدخل بقدميه - وهو يلوح بإصبعه في وجه "أبو السعد":

- اسمع يا أبو السعد، عاوزك تقول للمحروسة بتتك تبعد عن "فريد"، وإلا..

تطلع إليه الرجل في ذهول، ولم يدر ماذا يقول، فهزّ رأسه في حزن، و"حمزة" يستطرد قائلا، وهو يلوح بإصبعه مرة أخرى:

- سامع يا "أبو السعد".. بتتك لازم تبعد عن "فريد"، سامع ولا لأ؟

وتركه خارجا، في حين تابعه الرجل ببصره، والدموع في عينيه، وألقى بجسده على الحائط، ثم هوى بجانبه أرضا، واضطجع بظهره عليه، وسالت من عينيه دموع القهر والعجز، وهو يتطلع لابنته التي سمعت كل شيء، تطلع إلى وجهها الشاحب الذي حاكى وجوه الموتى، ودموعها التي انهمرت على خدها، ولم يدر ماذا يقول لها؟ أو بم يواسيها، وهو في حاجة لمن يواسيه؟ شارك ابنته دموعها، وراح يعود بذاكرته للوراء..

إلى ذلك اليوم القريب..

بالتحديد قبل وفاة الحاج "محمود" بثلاثة أيام..

يومها ذهب إليه الحاج "محمود" وجلس على الأريكة الموجودة في الحديقة، وقال له:

- تعالى يا "أبو السعد"، عاوزك في موضوع مهم.

- تحت أمرك يا حاج.

جلس "أبو السعد" بجواره على الأريكة، وهو يقول بطيبة بالغة:

- أنا بطلب منك إيد "مديحة" بنتك لابني "فريد".. إيه رأيك يا "أبو

السعد"؟

- بس يا حاج..

- إيه يا "أبو السعد" مش عاوز تناسبني؟

- لا سمح الله يا حاج، وإحنا نطول، بس إنتوا فين وإحنا فين و..

- الكلام دا عيب يا "أبو السعد"؛ إحنا أهل، و"مديحة" زي "فريد"،

الأتنين ولادي.

رَبَّتْ "أبوالسعد" على كتف الحاج "محمود" في سعادة قائلا:
 - وها أقول إيه؟! هو دا الحاج "محمود"، ربنا ميحررنا منك.
 - طيب دلوقت هنقرا الفاتحة يا "أبوالسعد"، بس هتفضل سر بيني
 وبينك لحد ما "فريد" يخلص الامتحانات كمان شهرين وبعدين نعلن،
 ونجوزهم على طول.
 - الي تشوفه يا حاج زي ما قلت، الاتنين ولادك.
 وقرأ الاثنان الفاتحة التي لم يعلم بأمرها سواهما.
 تذكر "أبوالسعد" كل ذلك، فانهمرت دموعه بغزارة على خده، وهو يربت
 على كتف ابنته التي تنهمر دموعها كالشلال في صمت، وراح يقول لها:
 - كفاية يا بنتي، كفاية، هو دا حمزة من يومه، بس ربنا أقوي م الكل ولو
 ليك نصيب ف الموضوع هيتم غصب عن "حمزة"، وعن أي حد.
 واحتواها بين ذراعيه، وغرقا معا في نوبة بكاء شديدة.



(٢٩)

نزل "فريد" من قارب عم "نوح"، ومضى على الطريق الزراعي وحده، بعد أن تركه "مختار" عقب الامتحان مباشرة، وسبقه إلى القرية، وعلى وجهه علامات حزن دفين، لم يفصح عن سببه لفريد، راح "فريد" يواصل طريقه بجوار البحيرة، والسعادة تغمر جوانحه؛ حيث انتهى من الامتحانات، وكلها أيام، وتحقق أحلامه، ويتزوج مديحة ..

- "وحشتني يا فريد"

كعادته خرج "دياب" فجأة من بين المزارع، وقال عبارته، فابتسم "فريد" الذي تعود منه على ذلك وردّ عليه قائلاً، وهو يواصل طريقه:

- وأنتَ كمان يا "دياب".

- حورية ماتت يا "فريد".

ابتسم "فريد" ولم يرد، وواصل طريقه، ولكنه توقف مرة أخرى حين قال "دياب":

- "حمزة" كان عند "أبوالسعد" في داره.

التفت إليه "فريد"، وقد انعقد حاجباه في قلق، وهو يهتف:

- "حمزة" راح لعمي "أبو السعد"؟ ليه يا دياب؟
ولكن "دياب" تركه فجأة، دون أن يردَّ عليه، وجرى في اتجاه البحيرة التي
تموج ماؤها، وهو يهتف، وقد ظهر جزع غير مبرر على وجهه:
- حورية.. حورية..

تطلع إليه فريد في ضيق، وأخذ يسرع الخطى، والقلق يعصف به، وأعماقه
تشعل بتساؤلات كثيرة..

- يا ترى ليه يا "حمزة" زرت أبو السعد؟ ليه؟
ويا ترى الزيارة دي ليها علاقة بحزن "مختار" الي مرضيش يقول سببه؟
تساؤلات و تساؤلات كثيرة ظلت تعصف بكيانه في قوة، وفوجئ
بمختار أمامه جالسا على شاطئ البحيرة، ويده بعض الأحجار الصغيرة
يرميها في البحيرة حجرا بعد حجر و..
- "مختار".

التفت "مختار" إلى صديق عمره، وعلى وجهه كل حزن الدنيا، ولم يرد
عليه بل ألقى حجرا آخر في مياه البحيرة، صنع بعض الدوائر المتداخلة،
وضع فريد حقيقته أرضا، وجلس بجواره وسأله:

- اتكلم يا "مختار"، حمزة زاركم ليه؟
رفع "مختار" عينيه إليه، وقال بصوت يقطر ألما:
- اسمعني يا "فريد"، وافهم كلامي كويس.
- اتكلم يا "مختار"، فيه إيه؟

هتف "مختار" قائلاً في ألم، وعيناه مختنقتان بالدموع:

- أرجوك يا "فريد" .. ورحمة الحاج "محمود"، وحق الصداقة الي بينا عاوزك تسبب مديحة، خليها تكرهك، خليها متطيش تسمع اسمك ..

قاطعه "فريد" صارخا في جنون:

- إيه الي بتقوله دا يا "مختار"؟ عاوزني أسبب "مديحة"؟ إنت مش عارف مديحة بالنسبالي إيه، "مديحة" هى الهوا الي بتنفسه، الدم الي بيجري في شراييني ..

قاطعه "مختار" صارخا في ألم متزايد:

- عارف يا صحبي عارف، بس إحنا مش هنقدر نتحدى القدر.

ردّ عليه "فريد" قائلاً في ثورة:

- لا يا "مختار" .. دا مش القدر، القدر برئ م التهمة دي، عارف ليه يا مختار؛ لأن الحب قدر، الحب قدر يا "مختار".

لمع بريق الدموع في عيني "مختار"، وهو يقول:

- عندك حق يا "فريد"، هو مش القدر، دا الخوف، الخوف من "حمزة الرشيدى".

وصمت لحظة ثم تابع حديثه، وهو يقبض بكفيه على كتف "فريد" مستطردا:

- "فريد" أرجوك، افهمني كويس، "مديحة" أختي، وأنت صاحب عمري، وعشان صداقتنا تستمر لازم تسبب "مديحة".

- بس دا جنون يا "مختار"، جنون.

ألقى "مختار" حجرا آخر كان بيده في مياه البحيرة، وكأنه يفرغ فيه انفعالاته، وهو يئن قائلا:

- لا يا "فريد" .. مش جنون، دا عين العقل؛ لأن قلوبكم الطاهرة ملهاش مكان في العالم دا، إنت و"مديحة" عاملين زي زهرة جميلة بريئة وسط غابة مليانة حيوانات متوحشة.

- بس دا مش الحل يا "مختار"؟

لمعت عينا "مختار" ببريق غاضب، وهو يقول:

- عندك حل تاني؟!

- أيوه يا "مختار"، نسيب البلد.

- نسيب البلد؟!

- أيوه يا "مختار"، نسيب البلد، ناخد كل اللي بنحبهم ونسيبها، ناخد عمي أبو السعد ومديحة وأمي وأنا وإنت ونسيبها يا "مختار"، نسيبها.
- بس يا "فريد" ..

- مفيش بس يا صحبي، هو دا الحل، أنا هسافر بكره، لأ هسافر النهارده، وهدور على مكان يجمعنا كلنا مع كل اللي بنحبهم، ونبدأ حياتنا من جديد يا صحبي من غير ظلم ولا تهديد، إيه رأيك؟

ابتسم "مختار"، وفرد ذراعيه؛ ليحتضن صديقه، وهو يقول:

- موافق، موافق يا صحبي.

وظنَّ كل منهما أن المشكلة قد حُلَّت، وانتهى الأمر، ولكن تُرى .. ما الذي يخفيه القدر؟

(٣٠)

هتفت الأم في حزن وإعياء، وقالت لفريد، وهما داخل حجرتهما:

- هنسب البلد يا "فريد"؟!

- أيوه يا أمي نسيبها، وناخد معانا كل اللي بنحبهم، ونعيش في مكان ثاني كله حب وبس.

- بس يا ابني..

- "حمزة" مش هيسيننا في حالنا يا أمي، هو راح يهدد عمي "أبوالسعد" عشان يضغط علينا.

- سألته الأم في حسرة:

- وحقك يا ابني هتسييه؟!

ردّ عليها قائلاً، وفي عينيه إصرار وغضب رهيب:

- لا يا أمي.. البيت والسكن هو المكان اللي بنلاقي فيه راحتنا، بس الأرض والميراث دا حقي يا أمي، حقي اللي مش هتنازل عنه أبدا.
تنهدت الأم، وقالت في إشفاق:

- الي تشوفه يا حبيبي. ثم شردت بنظرها بعيدا، واستطردت قائلة:
- كثير كنتُ بتمنى بيني وبين نفسي إنك تكون زي "حمزة"، تاخذ قوته
وجبروته وجشعه؛ عشان الكل يعملك حساب، وتقدر تعيش في الدنيا
دي.

صرخ "فريد" قائلا في ألم:

- غلط يا أمي، الهدوء عمره ما كان ضعف، سامعة يا أمي، أنا مش
ضعيف.

- خلاص يا "فريد"، روح سافر ودورع السكن الجديد، بس عاوزاك
توعدي يا ابني، توعدي إنك عمرك ما هتسيب حقك.

نهض "فريد"، وطبع قبلة حانية على جبين أمه، وقال قبل أن يخرج، وفي
عينيه بريق غضب مخيف:

- أوعدك يا أمي، أوعدك.



(٣١)

انطلق فريد على الطريق الزراعي حيث قارب عم نوح، وراح يهتف بأعماقه في ثورة:

- أيوه يا "فريد" .. هو دا الحل السليم، في الأول تبعد بكل اللي بتحبهم عن إيد "حمزة"، وبعد كده ترجعله، وتاخذ حقك بالكامل.
- "فريد".

التفت لمصدر الصوت، وخفق قلبه في شدة..
إنها حبيبته.. "مديحة" ..

وقف فريد، وتلاقت عيناها
وكالعادة..

هتفت: هو دا الحل يا "فريد"؟

هتف: عاوز أطمع اللي بحبهم.

هتفت: مكنتش متوقعة إنك هتستسلم بالسهولة دي.

هتف: لا يا "مديحة"، أوعي تقولي زي أمي، أنا مش ضعيف ومهربتش،
أنا بس خايف ع اللي بحبهم.

- عينيّ مبحثش قادرة تشوف غير الضلّمة والسواد.

- "مديحة" .. إنت بتقطعي قلبي بالكلام دا، أرجوك بُصّي للمستقبل بتفاؤل، وأوعدي إنك مش هتندمي أبدا، سامعة يا مديحة، مش هتندمي أبدا..

تطلعت إليه "مديحة" طويلا هذه المرة، وكأنها تراه للمرة الأخيرة..

غاصت في عينيه..

طافت بكل أجزاء جسده..

لمست كفه وكأنها تودعه، وقالت بصوت مسموع:

- يا ريتني أقدر يا "فريد"، يا ريتني.

تمزق قلبه من أجلها، فقبض على كتفيها قائلا، وعيناه تطوفان بعينيهما:

- أرجوك يا "مديحة"، متحرمينش من ابتسامتك قبل ما أسافر.

حاولت "مديحة" أن تبسم ولكن - وعلى الرغم منها - خرجت الابتسامة شاحبة باهتة، ربّت "فريد" على كتفيها، وهو يقول:

- مش هتأخر عليكِ.

وتركها، في حين ظلت هي تتابعه بنظرها حتى اختفى، فأدارت ظهرها عائدة للبيت، وهى في طريق العودة، وعلى إحدى الأشجار على شاطئ البحيرة، رأت غرابا ينطق بصوته الكئيب، فازداد قلبها انقباضاً، وقبل أن تصل للبيت بقليل سمعت صوتاً يناديها.. صوت حمزة..

- كان يتطلع إليها من فوق جواده، وهو يهتف بها بصوتٍ خشن:
- وبعدين يا "مديحة"؟
- تطلعت إليه في توتر، وقد تضاعف قلقها آلاف المرات، وهي تردد:
- تقصد إيه يا "حمزة" بيه؟
- نزل من فوق جواده، ووقف بجوارها قائلاً:
- شكلك مش خائفة على أبوك أو أخوك؟
- تقصد إيه يا "حمزة" بيه؟
- اقترب من وجهها، قائلاً في قسوة:
- أنا أمرتُ أبوك إنك تبعدي عن "فريد".
- بس أنا و"فريد" ..
- قاطعها في غضب:
- شكلك لسه مش فاهمة.
- تطلعت إليه في صمت، ولم ترد فاستطرد قائلاً:
- لازم تعرفوا إن الكلمة اللي يقوها "حمزة الرشيدى" سيف على رقبة أي حد، والكل عليه السمع والطاعة.
- هتفت، وقلبها ينزف دما:
- بس أنا و"فريد" مش عاوزين منك حاجة.

(٣٢)

فوق فراشها..

داخل حجرتها البسيطة..

رمت جسدها في حالة أقرب للانهار..

ورمت كل جراحتها وآلامها..

وكذلك دموعها..

وظلّ الفراش يئن ويئن طوال الليل من نهر الدموع الذي انهار عليه..

أمام عينيها ما زالت تتراقص صور شتى..

صورة أبيها الذليل الذي ترك عمله..

صورة أخيها، وقد غطت الدماء صدره..

اعتدلت "مديحة" جالسة فوق فراشها، وقد انتفخت عيناها من كثرة

البكاء، وتهدل شعرها المبتل بدموعها فوق جبينها، ومن أعماق أعماقها

هتفت بصوت يقطر حزنا ويأسا:

- إذا كنت مش قادرة أبعد عنك يا "فريد"، ولا قادرة أشوف الذل في عين أبويا، ولا "مختار" وهو غرقان في دمه، يبقى الحل عندي، عندي أنا يا "فريد" !

وفي تلك اللحظة، تراقصت أمام عينيها صورة زجاجة المبيدات الملقاة في ركن الحجرة، وقد جحظت عيناها في جنون !



(٣٣)

كان يوما آخر من أيام الحزن التي مرّت علي أهل القرية في الأيام الأخيرة..
وأي يوم !!

لقد استيقظت القرية كلها على بكاء أبي السعد، وهو يصرخ باسم ابنته..
- "مديحة" .. وما من مجيب!

طبيب الوحدة يهز رأسه في أسف، وهو يقول:
- للأسف.. دي حالة انتحار.

وانقلبت القرية رأسا على عقب، وانحفر الحزن على وجوه الجميع،
وأخذوا يتساءلون في همس:
- ليه انتحرت "مديحة"؟

قليلون هم من كانوا يعرفون السبب، "أبوالسعد" الذي خرّ بجوار
الحائط لا ينطق، ودموعه تنهمر في غزارة، "مختار" الذي تحجّرت الدموع في
عينيه، وكأنها تأبى النزول، وقد راح يتابع الموقف في صمت، وكأنه تمثال قد
من الصخر، "حمزة الرشيدي" الذي يقف الآن وسط كبار القرية، وقد جاء
ليمشي في جنازة القتيل..

غمامة هائلة من الحزن كست وجوه كل أهالي القرية..
الرجال.. النساء.. الأطفال.. الشباب.. الشيوخ..
وكأن كل منهم قد فقد الابنة، والأخت، والصديقة..
من بين المزارع خرج صوت "دياب" مختلطا بدموعه الغزيرة:
- حورية حورية..
ثم فجأة يجري لشاطئ البحيرة، يبحلق في المياه التي تتموج أمامه، يرمى
بجسده على الشاطئ، وهو يردد وسط دموعه:
- حورية
حورية..
البنات الحلوة الجنية..
تنزل لها تطلع م المياه..
تطلع لها تنزل في المياه..
تبص عليها تقولشي حورية..
وهي حورية..
وفجأة هبّ دياب من مكانه، حين لمح "فريد" قادما من بعيد، وقد عاد
من السفر، أقبل عليه دياب، وهو يصرخ وسط دموعه:
- فريد.. حورية ماتت يا "فريد".
رَبَّتْ "فريد" على كتفه قائلا، وهو يتسم:
- تعالى يا "دياب" .. تعالى.

واصل "فريد" طريقه، وإذا بدياب يصرخ به:
- أيام الراحة خلاص ولّت يا "فريد".
توقف "فريد" مكانه يتطلع لدياب الذي بدا غريبا في هذا اليوم، وسأله:
- إيه اللي حصل يا "دياب"؟
ردد "دياب" من بين دموعه:
- حورية ماتت .
وكانت إحدى المرات القلائل التي يشعر فيها "فريد" تجاهه بالضيق والغضب، فتركه وواصل طريقه، وإذا بدياب يصرخ مرة أخرى قائلاً:
- الحورية دي بتاعتك يا "فريد".
توقف "فريد" هذه المرة، واستدار في بطاء، وهو يقول:
- إيه اللي بتقوله دا يا "دياب"؟!
صرخ "دياب" من بين دموعه:
- "مديحة" ماتت يا فريد.
تطلع إليه "فريد" في جنون، وقد جحظت عيناه، وراح يجذبه من ملابسه صارخا:
- بتقول إيه يا مجنون؟
- أيوه يا "فريد"، "مديحة" ماتت، والدكتور قال شربت سيم، وأهل البلد راحوا يدفنوها.
تطلع إليه "فريد" في جنون، غير مصدق ما سمعه..
أحسّ بأن قلبه توقف عن النبض..

ومرة واحدة استجمع كل قواه - وهو يجري في اتجاه طريق المقابر - في
صرخة واحدة ..

صرخة ترددت في كل أرجاء القرية ..

- لآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآ ..

راح يجري وهو يدعو الله أن يكون "دياب" كاذبا ولكن ..

ولكن كل شيء حوله يؤكد كلام "دياب" ..

الطيور قبعَت في أغصانها، ولم تغادرها ..

أوراق الشجر قد تساقطت، واصفرت، وذبلت ..

ثم .. ثم نظرات الهلع الذي يملأ العيون ..

الحزن يكسو الملامح ..

نعم .. نعم .. كل ما حوله يؤكد الحقيقة ..

لقد ماتت "مديحة" ..

ماتت الفتاة التي لم يخفق قلبه إلا لها ..

الفتاة التي لم ينبض قلبه إلا بحبها ..

ولكن .. لا يمكن أن تموت الزهرة الوحيدة في بستان حياته ..

لا يمكن أن يكون القدر قاسيا عليه لهذه الدرجة ..

لمح المقابر من بعيد ..

قابل بعض الأهالي عائدين وعيونهم منكسة بالأرض في حزن ..

صرخ بكل ما تبقى في جسده من طاقة ..

- مديحة .. مديحة .. مديحة .. مديحة .. مديحة ..

تطلع إليه أهل البلد..

أرادوا أن يواسوه..

ولكن كيف؟ وكل منهم في حاجة لمن يواسيه..

اخترق "فريد" جموعهم، وصرخته تدوى في أرجاء القرية، كل ما حوله

يردد صرخته..

الطيور.. الأشجار.. الهواء.. الأرض.. السماء..

- مديحة ..

قبع فريد بجوار المقبرة، وراح يتحسس جدرانها في جنون، وبجواره كان

"أبوالسعد" جالساً بعدما فشل أهل القرية في إقناعه بالعودة معهم، وهو

يردد اسم ابنته في وهن:

- مديحة.

صرخ "فريد":

- لأ يا عم "أبوالسعد"، مديحة ممتيش.. ممتيش..

هتف الحاج "عبد المحسن" عمدة القرية، وهو يربّت على كتفه في حنان أبوي:

- كفاية كده يا "فريد" يا ابني، وارحم نفسك، دا قدر ربنا ولازم نرضى بيه.

تطلع إليه "فريد" في صمت ولم يرد، وحين رفع عينيه لمح "حمزة" في

عباءته السوداء خلف الحاج "عبد المحسن"، والتقت عيناهما..

التقتا في نظرة طويلة.. نظرة تعني الكثير.

(٢٤)

نهار جديد أشرق على القرية، و"فريد" عند مقبرة "مديحة"، فمنذ أن ماتت وهو يقضي الليل بطوله بجوار مقبرتها، كان طوال الليل يناجيها ودموعه تنهمر من عينيه في غزارة، كان كثيرا ما يتخيل أن باب المقبرة سيفتح، وتخرج منه مديحة؛ ليحظى منها ولو بنظرة أخيرة، كلماتها في الرسالة التي تركتها قبل موتها عند شجرة الصفصاف - حيث اعتادا اللقاء - ما زالت تتردد في أذنه..
تدوى في أعماقه..

(حبيبي فريد..)

يا مَنْ لم أعرف معنى الحب إلا على يديك، يا مَنْ نبض قلبي بحبك عدد مرات شهيقك وزفيرك، عندما تفضّ غلاف رسالتي هذه، تكون روحي المعذبة قد غادرت هذا العالم بعدما يئست أن تظل بجوارك، نعم يا فريد.. لقد قررت أن أترك هذه الدنيا على أمل أن تلتقي روحانا في عالم آخر، عالم يخلو من الجشع والطمع، ولا يقف فيه الفقر عقبة بين المحبين.. حبيبتك إلى الأبد.. مديحة.)

ظلّ فريد يسترجع كلمات الرسالة مرات ومرات، وفي كل مرة كان يترك العنان لدموعه تنهمر كالشلال، وتتساقط فوق لحيته التي تركها منذ وفاة حبيبته و..

- بتعمل إيه هنا؟
صرخ "مختار" بهذا السؤال، وهو يقف خلف "فريد"، رفع إليه فريد عيناه الدامعة وهتف:
- إنتَ فين يا "مختار"؟
رد "مختار" في جمود:
- بتعمل إيه هنا؟
رد "فريد" من بين دموعه:
- "مديحة" ماتت يا مختار.
- وإنْتَ مالِك؟
- مالي إزاي؟ دا أنا "فريد" يا مختار !
اقترب منه "مختار"، وجلس فوق ركبتيه، ووضع كفيه على كتفيه، وقال بصوت يقطر مرارة، وحزناً:
- اسمع يا "فريد"، كفاية اللي حصلنا بسببك، وأنا مش عاوز أشوفك هنا تاني عند قبر "مديحة"، يمكن الناس تقدر تنسى.
- قال "مختار" ذلك ثم نهض وأعطى "فريد" ظهره، وهو يستطرد في غضب وقسوة:
- والأحسن إنني مشوفكش في البلد كلها.
- وغادر "مختار" المكان تاركاً "فريد" وراءه بعد أن ذبحه بكلماته، راح "فريد" يتابعه بإحدى عينيه، في حين كانت عينه الأخرى على قبر "مديحة"، وبداخل عقله يتردد سؤال في تلك اللحظة:
- هو ممكن يكون القدر قاسي عليه للدرجة دي؟!

(٣٥)

في الحجرة الداخلية الملحقة بمقهى "شفيق"، وقد تخطت عقارب الساعة الثالثة صباحاً، وحيث اعتاد "حمزة" ورفاقه كل ليلة أن يجتمعوا، كانت - كالعادة - تسبح فوقهم غمامة من الدخان الأزرق، وأمامهم "روايح" تهتز وتتمايل، وخارج الحجرة كان "شفيق" في انتظار ما سيأخذه من "حمزة" مقابل تلك السهرة، وفجأة.. ارتفع صوت "فريد"، وهو يطرق بكلتا يديه على باب المقهى صارخاً:

- افتح يا "شفيق" يا ملعون، افتح.

فتح "شفيق" الباب مذعوراً، ورأى أمامه "فريد" في حالة غريبة، وقد نمت لحيته، وطالت وتهذلت ملابسه، وزاغت نظراته حتى أصبح حاله يدعو للشفقة والرتاء.. هتف به "شفيق" في دعر:

- أيوه يا سي "فريد"؟

أزاحه "فريد" من أمامه، ودخل المقهى الذي كان خالياً - بعد أن غادره الجميع، ولم يتبقَ إلا "حمزة" ورفاقه بالحجرة الجانبية - ورمى جسده المنهك فوق أحد المقاعد، وهو يهتف بشفيق:

- عاوز أشرب م السم الي عندك يا ملعون.

هتف "شفيق" قائلاً في رعب:

- تحت أمرك يا سي "فريد" بس أنا عندي شاي و...

جاهد "فريد" ليحافظ علي جفنيه مفتوحين من كثرة الإجهاد وقلة النوم، وقال:

- لأ يا ملعون، أنا عاوز السم الي يبشر به حمزة وصحابه كل ليلة.

- بس يا سي..

صرخ "فريد" في وجهه قائلاً، وهو يقذفه بكوب أمامه على المائدة:

- بسرعة يا ملعون، وارحمني من وشك العكر.

- حاضر يا سي "فريد".. حاضر.

قال "شفيق" ذلك ثم تركه، ودخل إلى الحجرة الجانبية حيث حمزة ورفاقه الذين سمعوا كل شيء، وقبل أن يتكلم "حمزة" قالت "روايح":

- سيبي أتصرف يا سيد الرجالة.

قالت ذلك، ثم تناولت زجاجة وكأساً، وخرجت إلى "فريد"، وهي تعدل ثوبها لتبرز مفاتها أكثر وأكثر.. ثم هتفت حين رأت "فريد":

- أهلاً بزيئة الشباب.

تطلع إليها "فريد" بعينين ثقيلتين، قائلاً وهو يخطف منها الزجاجاة والكأس في لهفة:

- أنا مطلبتش من جوزك الملعون غير السِّم دا بس.

اقتربت منه، وأطلقت من بين شفتيها تنهيدة حارة لفحت وجه "فريد"، وكل أجزاء جسده، وقالت في همس:

- وزينة الشَّباب هيخل علىّ بلحظة أكون قريبة منه فيها؛ عشان أخفف عنه؟!

تطلع إليها بعينين خاويتين في لا مبالاة، وهو يجرع الكأس تلو الآخر، اقتربت منه أكثر بأنفاسها الحارة، وجسدها يتلوى أمامه كحبة رقطاء، وهي تهمس:

- انسى.. انسى يا نور عينا، عارفة إنك عاوز تنسى.

دفعها "فريد" فوقعت أرضاً، وهو يجرع آخر ما تبقى في الزجاجاة مرة واحدة، ثم تناول من جيبه ورقة مالية رماها في وجهها، قبل أن يغادر المكان، وهو يترنح.



(٣٦)

فجأة..

و ذات ليلة من اليا لي قضاها "فريد" هائماً على وجهه بين المزارع؛ ليكون بجوار مقبرة مديحة، هبّت رياحٌ قوية مع أمطار غزيرة، اضطرتة لقضاء ليلته مع "دياب" في عشته المصنوعة من الخوص، والتي يعيش فيها بين المزارع .. تطلع "فريد" إلى عشة "دياب" التي لم تكن تحوي شيئاً غير حصير وغطاء قديم عفا عليهما الزمن، أشعل "دياب" النار فبعثت الدفء في جسديهما، وبدأ في إعداد الشاي؛ ليرحب بفريد الذي يزوره لأول مرة في عشته، ظلّ "فريد" يتابعه، وهو يشعل النار، ويعد الشاي، ويتصرف كأى إنسانٍ سوى، ثم سأله:

- كنتَ بتحب حورية يا "دياب"؟

ناوله "دياب" كوب الشاي، وردّ عليه في بساطة أدهشته، وكأنه تخلّص فجأة من عبطه، وهو يقول:

- كانت عمري كله.

تناول "فريد" رشفة من كوب الشاي، وسأله:

- وهي كانت بتحبك؟

شرد دياب بعيداً كأنه يفكر في إجابة، ثم قال:

- كنت فقير .

- وليه وافقت ع الجواز؟

ابتسم "دياب" في حسرة، وقال:

- أبوها كان عاوز يسترها.

اشتدت سرعة الرياح في تلك اللحظة، وتطاير عليها بداخل العشة رزاز المطر، فاقرب " فريد" بجسده من حفرة النار ليحظى بمزيد من الدفء، وهو يسأل "دياب":

- وليه قتلتها؟

تطلع "دياب" إلى "فريد" في حزن، وصمت طويلاً هذه المرة حتى شعر فريد بأنه لن يرد عليه، وندم لأنه ألقى عليه هذا السؤال، وكاد يعتذر له لولا أن قال "دياب" فجأة:

- قتلتها عشان أنا راجل.

تضاعفت شدة الرياح أكثر وأكثر حتى كادت تقتلع العشة من مكانها، فتطلع "دياب" إلى الزرع من حوله، وهو ينحني بشدة بفعل قوة الرياح،

فنهض من مكانه، وراح يجرى وسط المزارع، واضعا طرف جلبابه بين أسنانه
كعادته، وهو يصرخ:

- حورية.. حورية..

تطلع إليه "فريد" في إشفاق، ثم هزّ رأسه في أسى، وقبل أن يغادر العشة
رمى بعضاً من الماء على ما تبقى من النار، وراح يواصل خطاه وسط المزارع
في طريقه إلى الفيلا..

وهناك، عند باب الفيلا، وجد أمه تنتظره وسط الرياح والمطر، وقد ظهر
عليها الإعياء الشديد، هتفت أمه في ألم:

- وبعدين يا "فريد"، كل يوم ع الحال دا؟

احتواها "فريد" بين ذراعيه، ودخل بها إلى الفيلا، وهو يقول:

- "مديحة" ماتت يا أمي.

ردت الأم في حسرة، وهى تقاوم ألما بصدرها:

- "فريد" يا حبيبي، دي حاجة بتاعت ربنا، ولازم تبص لمستقبلك.

صمتت الأم عن الكلام فجأة، ووضعت يدها على صدرها، وعلى وجهها

ألم شديد، فهتف "فريد" في جزع، والقلق ينهش ملامحه:

- مالك يا أمي؟

تماسكت الأم، وكتمت آلامها وقالت:

- مفيش يا ابني مفيش.

- إزاي مفيش وأنا شايفك قدامي بتتألّمي؟
- ألمي هو أنت يا "فريد"، سامع ألمي هو أنت.
تطلع إليها "فريد" في صمت، ولم يرد حتى لا يزيد آلامها فاستطردت
الأم، وقد بدا عليها التعب واضحا:
- اسمعني كويس يا حبيبي، أنا عاوزة أطمّن عليك قبل ما أموت، عاوزة
أشوفك قوي، والناس تعملك ألف حساب و..
قاطعها "فريد" في ألم وثورة:
- إنت عاوزاني زي "حمزة" يا أمي.. مش كده؟ أنا عمري ما هكون زي
"حمزة"، عارفة ليه؟ عشان "حمزة" قاتل يا أمي، أيوه "حمزة" هو اللي قتل
"مديحة"، سامعة هو اللي قتل "مديحة".
قال "فريد" ذلك، وترك أمه التي تضاعف ألمها آلاف المرات، واندفع إلى
حجرته ييشها جراحه وآلامه، ولم يدر بخلده للحظة أن "حمزة" كان يتصنّت
عليهما، وسمع كل شيء، وظل يشيع "فريد" بنظرات كلها حقد وكرهية..
كرهية بلا حدود.



(٣٧)

بالحجرة الجانبية الملحقة بالمقهى تجمع "حمزة" ورفيقاه ربيع والزناتي
يدخنون النارجيلة، وفي وسطهم كانت "روايح" ترقص وتتلوى بجسدها،
روايح تتوقف عن الرقص حين لاحظت شرود "حمزة"، وتلقي بجسدها
بجواره هاتفة:

- سيد الرجالة مشغول في إيه؟

تطلع إليها "حمزة" في صمت، وهو يدخن النارجيلة، وينفث دخانها في
قوة ولم يرد عليها، في حين كان "الزناتي" يتطلع إليه من وراء دخان النارجيلة
في مكر، وكأنه يعرف ما يشغل باله، وفيم يفكر، قامت "روايح" وجلست
على مسند مقعده، وأظهرت مفاتنها، وراحت كفها تعبت بشعر رأسه، وهي
تقول بأنوثه طاغية:

- بتفكر في إيه يا "حمزة"؟

ردّ "الزناقي" في خبث:

- يفكر في الضربة القاضية.

تطلع إليه ربيع و روايح في ذهول مما قاله، أما "حمزة" تطلع إليه في ضيق في حين هتف ربيع:

- الضربة القاضية ! تقصد إيه يا "زناقي"؟

تطلع الزناقي إلى "حمزة"، ولاحظ الضيق الذي ظهر عليه، فعرف أنه أصاب الهدف، فاستطرد وعلّ شفتيه ابتسامة خبيثة:

- "حمزة" يفكر في ضربة قاضية ينهي بها اللعبة للأبد و..

قاطعته "حمزة" قائلاً، وهو يصفق بيديه:

- مرة ثانية تكسب يا "زناقي".

وصمت لحظة ثم استطرد قائلاً:

- فعلاً "الزناقي" عنده حق، أنا بفكر في طريقة تخلصني م الصداع الي ملازمي على طول.

هتف "ربيع" قائلاً، وهويتناول النارجيلة، وينفث دخانها:

- "فريد" .. مش كده؟

ابتسم "الزناقي"، وقال:

- أيوه يا "ربيع"، حمزة يفكر في طريقه يتخلص بها من "فريد" نهائي.

توقف "الزناقي" عن الكلام حين قاطعته ضحكة رنانة انطلقت من شفتي "روايح"، وهى تقول:

- هو ذا اللي شاغل بالك يا سيد الرجالة؟ دي حاجة بسيطة، سيبها علىّ.

تطلع إليها قائلًا، وهو ينفث دخان النارجيلة في قوة:

- إزاي يا "روايح"؟

لفحت وجهه بأنفاسها الحارة، وقالت بأنوثة طاغية:

- دا شغلي أنا بقى يا سيد الرجالة، المهم مكافئتي هتكون إيه؟

لمع بريق عجيب في عين "حمزة"، وهو يقول:

- اللي إنتِ عاوزاه.

عبثت بأصابعها في شعر رأسه، واقتربت بأنفاسها من وجهه، وهمست:

- إنتِ يا "حمزة".

تطلع إليها "حمزة" و"ربيع" في ذهول، في حين ابتسم "الزناقي" في صمت،

وقال حمزة:

- أنا؟ !

تطلعت إلى عينيه مباشرة، وقالت:

- أيوه.. التمن هو إنتِ يا حمزة، تتجوزني.

هتفّ "ربيع"، وهو يكاد يجن:

- عاوزه تتجوزي "حمزة"؟!

في حين ردد "حمزة" في شرود:

- وشفيق؟!

نهضت من فوق مسند مقعده، وسارت أمامه في دلال، وأصابعها تتخلل شعرها الطويل، وقالت ضاحكة، وجسدها يتمايل أمامه في أنوثة طاغية:

- "شفيق" يبيع أي حاجة بالفلوس.. حتى أنا.

هتف "الزناقي" قائلاً، وقد اتسعت ابتسامته الماكرة:

- تقصدي إيه يا "روايح"؟

هتفت وهى تنظر لحمزة:

- أخلصك من فريد يا "حمزة"، وبعدها يطلقني "شفيق"، وتتجوزني

إنّ، ويكون ربيع والزناقي شهود ع الاتفاق دا، إيه رأيك يا سيد الرجال؟

نفث "حمزة" دخان النارجيلة، وتطلع إليها طويلاً هذه المرة، ثم قال وقد

لمع في عينيه بريق غامض ابتسم لمرآه "الزناقي":

- وأنا موافق.. موافق يا "روايح". وتضاعف بريق الغموض في عينيه.



(٣٨)

"فريد" وأمه يسيران على الطريق الزراعي، في طريقهما إلى مركب عم "نوح"، حيث محطة القطار، وعندما بلغا منطقة المقابر تسمّرت أقدام "فريد"، وراح يتطلع إليها، وعلى وجهه كل حزن الدنيا، فقالت له أمه في إشفاق:

- روح يا ابني، روح اقرا الفاتحة لأبوك و"مديحة".

تطلع إليها "فريد" للحظة، ثم تحرك في ببطء تجاه المقابر، ووقف أمام مقبرة أبيه وقرأ له الفاتحة، ثم توجه نحو مقبرة "مديحة"، ووقف أمامها في خشوع، وكأنه يتلو صلاته الأخيرة، ودموعه تسيل على خده في صمت، وفجأة..

برز "مختار" من بين المزارع، وراح يتطلع إلى "فريد" وهو يتألم بداخله للحال السيئ الذي وصل إليه صديق عمره، وأحسّ به "فريد" فالتفت إليه قائلاً:

- شوفت الي حصل يا "مختار"؟ أهل البلد حكموا علينا بالطرد من غير ما يحاولوا يعرفوا الحقيقة.

فتح "مختار" ذراعيه، وأخذ صديق عمره بين أحضانها، وراح يقول بألم:

- البلد خائفة تعرف الحقيقة يا صبحي.

- الي يهمني هو أنت يا "مختار".

رَبَّت "مختار" على ظهره، وقال:

- كل ظلم وله آخر يا صبحي.

قبض "فريد" على كتف صديقه، وقال وقد لمعت عيناه ببريق لم يعتد عليه
"مختار":

- عندك حق يا "مختار"، وبكره لازم هاييجي اليوم الي هناخذ فيه حق
الكل، حقي، وحق أبويا، وحق "مديحة".

رَبَّت "مختار" على كتفه، ولم يعلق بشيء، وسار معهما حتى مركب عم
نوح، راح "مختار" يتطلع إليهما بعد أن تحرّك بهما قارب عم نوح، وهزّ رأسه
في أسى، وهو يردد بينه وبين نفسه:

- مع السلامة يا صبحي.



(٣٩)

ما أن تأكد "حمزة" عن طريق عيونه من مغادرة "فريد" وأمه للقريّة، حتى وقف في بهو الفيلا يتطلع إلى كل شيء فيها، الأثاث، الجدران، التحف.. وفجأة صرخ في غضب حين وقعت عيناه على صورة لفريد، وهو فوق جواده:
- يا أم الخير.. يا عوض.

أقبلت المرأة العجوز، ومن خلفها كان يجري "عوض"، والدموع في عيونهما منذ أن ترك فريد وأمه الفيلا، وصرخ حمزة في وجهيهما:
- مش عاوز أي حاجة تفكرني بالملعون دا، اجمعوا كل حاجاته واحرقوها، سامعين احرقوها.

وظل يتابعهما وهما ينفذان ما أمرهما به، ثم اتجه إلى المقعد الكبير الذي كان مخصصا لوالده الحاج "محمود"، وألقى بجسده عليه، وقد وضع ذراعيه خلف رأسه، وقال بصوت مسموع:
- نجحت خطتك يا "حمزة"، تحقق كل ما أردته وصرت الآن تملك كل شيء ..و.

استيقظ من شروده على صوت ربيع والزناقي، وهما يدخلان الفيلا فقال
لهما، وهو ما زال في مكانه:
- تعالوا أنا هنا.

أقبل عليه الاثنان، وراحا يتطلعان للفيلا في حين هتف "الزناقي"، وعلى
شفتيه ابتسامة خبيثة:

- مبروك يا "حمزة"، من النهارده مفيش حاجة هتعكر مزاجك.
تطلع إليه "حمزة"، ثم قال في هزل لا يخلو من الجد:
- لأ.. لسه فيه يا "زناقي".

تطلع إليه "الزناقي" في تساؤل حقيقي، فاستطرد "حمزة" قائلاً، وهو يضحك:
- الي معكر مزاجي دلوقت هو أنت يا "زناقي" بكلامك ونظراتك السخيفة..
قاطعته "ربيع" ضاحكا، وهو يقول:

- الليلة دي لازم نحتفل يا "حمزة" وسهرتنا تكون صباحي عند شفيق وروايح.
ظهر الضيق على وجه "حمزة" حين جاء ذكر روايح، وقال:

- لا يا "ربيع" من الليلة دي هنقضي سهرتنا هنا، ومش هنروح تاني
للمكان المشبوه دا، ولا عند المرة الفاجرة الي اسمها "روايح".

هتف "الزناقي" ساخرا:

- دلوقت المكان بقى مشبوه، و"روايح" بقت فاجرة!

صرخ "حمزة" في غضب، وهو ينهض متجهاً نحو سلم الفيلا الداخلي:

- أنا عن نفسي مش هروح هناك تاني، اللي عاوز يروح يروح.

قاطعته "ربيع" قائلاً، وهو يضحك:

- وإنت اللي هترقصلنا يا "حمزة"؟!

وقبل أن ينفجر حمزة في وجهه، إذا بروايح تندفع إلى داخل الفيلا هاتفة:

- وهى السهرة تحلى من غيري يا سيد الرجالة؟!

تطلع إليها "حمزة" ذاهلاً، وهتف بها، وهو واقف على السلم:

- إنت؟ مين اللي سمح لك تيجي هنا؟

تطلعت إليه ذاهلة، وهى تقول:

- إيه اللي بتقوله دا يا "حمزة"؟ فريد خلاص مشي وإحنا اتفقنا على..

قاطعها "حمزة" ساخراً، وهو يتحسس بكفه الزخارف التي تزين سلم الفيلا:

- اتفقنا إني أتجوزك .. مش كده؟!

تطلعت إليه، وقد شحب وجهها حتي حاكى وجوه الموتى، ولم ترد في حين استطرد هو قائلاً:

- وهو إنت صدقت الكلام دا؟ واضح إنك متعرفيش "حمزة"، حمزة الرشيدي لا يمكن يتجوز واحدة باعت نفسها حتى ولو كان هو المشتري.

هتفت صارخة بصوت متحشرج، وجسدها يترنح:

- لآ يا "حمزة".. أنا عارفك م الأول، وعارفة إنك جشع وأنا ني وطماع،
وممكن تبيع أي مخلوق عشان مصلحتك حتى ولو كان أخوك.. فاكراً أخوك
يا سيد الرجالة؟!

أخذ ربيع والزناقي ينقلان بصريهما بينهما، في حين صمت حمزة تماماً، ولم
يعد باستطاعته أن يرد بعد أن عرّته "روايح" وفضحته، في حين استطردت
من بين دموعها:

- بس زي ما بيقولوا يا "حمزة"، الحب أعمى، وهو الي خلاقي زي ماكون
مش عارفك و..

قاطعها "حمزة" صارخا، وهو يهجم عليها، ويدفعها أمامه إلى الخارج:
- بره يا فاجرة.. بره.

شيّعه "روايح" من بين دموعها بنظرة كلها حقد وكرهية، ثم غادرت
الفيلا في سرعة إلى غير رجعة في نفس اللحظة التي كان يهتف فيها "الزناقي"
بداخله ساخرا:

- وبكده يكون اتخلص من "روايح"، يا ترى الدور على مين يا
"حمزة"؟!

في حين هتف "ربيع":

- إيه الي إنت عملته دا يا "حمزة"؟ كان لازم تسايرها لحد م الموضوع
يهدأ و..

تطلع إليه "حمزة" للحظة في صمت، ثم عاد لمقعده، وهو يتناول من جيبه علبة سيجار جديدة كان قد اشتراها للتو، وأخرج منها سيجارا أشعله، وراح ينفث دخانه في برود، وهتف قائلاً بسخرية، وهو يضع ساقاً على ساق:

- أساير مين يا ربيع "؟ ! إنت اتجننت ولا إيه؟" حمزة الرشيدى " م النهاردة معندوش وقت يضيعه مع "روايح" وأمثالها.

قاطعها "الزناى"، وهو يقول ساخراً:

- إيه يا "حمزة"؟ بتفكر ف العمودية؟

تغاضى "حمزة" عن اللهجة الساخرة التي نطق بها "الزناى" عبارته، وقال وهو ينفث دخان سيجاره في استمتاع:

- مش العمودية بس يا "زناى"، دي هتكون أول خطوة، وبعدين الانتخابات، ومجلس الشعب، والسلطة والنفوذ.

وبرقت عيناه في جنون، ودخان سيجاره ينطلق من فمه في شراهة، وهما يتطلعان إليه في ذهول.



(٤٠)

بأنفاس متلاحقة ودموع غزيرة انهمرت كالسيل وأغرقت وجهها، اندفعت "روايح" داخل المقهى الذي يملكه زوجها "شفيق"، لمحتة بداخل المقهى ورمقته بنظرة احتقار، ثم استدارت في طريقها إلى العشة الملحقة بالمقهى حيث تسكن، هرع نحوها "شفيق" وهو يحجل فوق الأرض بقدمه العاجزة، ورغم ذلك فقد وصل قبلها، وقطع عليها الطريق قائلاً، وهو يجذبها من ذراعها:

- حمزة دفعلك كام؟

تطلعت إليه "روايح" بنظرة ملؤها الحقد والكراهية..

لم تكره زوجها في حياتها كما كرهته في تلك اللحظة..

لقد رأته بعينيها - التي لم تخلُ بعد من أثر الدموع - شيطاناً ديوساً لا هم له إلا جمع المال مهما كان الثمن..

انتزعت ذراعها من يده في قرف، وهي تدفعه في قوة هاتفة:

- سييني يا ملعون.. سييني.

وقع "شفيق" أرضاً إثر دفعة رويح له، وقال في ذلٍ واضح:

- "حمزة" دفعلك كام يا "روايح"؟

رُمقته "روايح" بنظرة احتقار، ثم دخلت العشة ولم ترد عليه، فعاد أدراجه للمقهى مرة أخرى..

بالداخل راحت تتطلع إلى فراشها الذي بدا لها - في تلك اللحظة - حقيرا، على الرغم من أنه نفس الفراش الذي حملها كثيرا، وهى بين ذراعي "حمزة" تلحق في نهر الحب والخطيئة..

تذكرت كيف طردها "حمزة"، فانهمرت دموعها كالسيل على الفراش، الذي يكاد يصرخ كل جزء فيه بخطيئتها، كم تمتّ في تلك اللحظة أن تسيل دموعها وتسيل لعلها تمحو آثار عارها..

- "مفيش فايده.. مفيش فايده".

هكذا هتفت "روايح" في أعماقها، وهى تلقي بجسدها المنهك فوق الفراش، وقد راحت أنفاسها تتلاحق في سرعة، وأصابعها تتخلل شعرها الحريري الأسود وكأنها علي وشك الانهيار، ظلت تتقلب وتتقلب بجسدها فوق الفراش، ونفس الكلمة تتردد بداخلها:

- "مفيش فايده.. مفيش فايده".

وقعت بجسدها أرضا من فوق الفراش، عيناها الدامعتان تطوفان بأرجاء الحجرة المصنوعة من الخوص، وهى مستلقية على بطنها، توقفت عيناها على ذلك الصندوق الخشبي، الذي يقبع تحت السرير..

الصندوق الذي يحتفظ فيه زوجها شفيق بكل الأموال التي جمعها من جسدها..

صرخت قائلة، وهى تزحف على بطنها نحو الصندوق:

- هو داتن جسمي، جسمي الي اترمغ في أحضان الرجالة، حقي الي بياخده "شفيق" الملعون، بس.. بس ياخده إزاي؟! دا حقي أنا، معقول هو ياخذ الفلوس وأشيل أنا عاري؟

جحظت عيناها في جنون، ثم جذبت الصندوق المكتظ عن آخره بالمال، وأفرغت محتوياته داخل كيس إحدى الوسائد، وحملته، وقد اتخذت قرارها بالهروب..

وقبل أن تخرج فوجئت بالباب يُفتح، "وشفيق" يتطلع إليها وإلى الكيس الذي تحمله، وإلى الصندوق الفارغ الملقى في وسط الحجرة:

- "روايح" ! إنتِ عملتِ إيه؟!

قبضت بكلتا يديها على الكيس، وضمته إلى صدرها، وقالت صارخة:

- دي الفلوس الي جمعتها من جسمي يا ملعون، حقي.. حقي أنا لوحدي.

هجم عليها محاولا انتزاع الكيس منها، وهو يصرخ:

- بتقولي إيه يا مجنونة؟ دي فلوسي أنا.

استماتت يد "روايح" على كيس المال، وهى تصرخ في وجهه:

- لأ يا ملعون، مش هتاخذ منها حاجة، دي فلوسي كلها، الفلوس الي

جمعتها من جسمي.

تحامل "شفيق" على قدمه العاجزة، وهو يهجم عليها محاولا انتزاع الكيس،

وقال وقد ازداد جنونه:

- إنتِ مجنونة.. مجنونة.

دفعته "روايح" بكل قوتها مستغلة قدمه العاجزة، وهى تصرخ:

- سييني يا ملعون.. سييني.

وقع "شفيق" أرضاً، وحاول أن يتشبث بأي شيء، فاصطدمت يده باللمبة الجاز التي وقعت على الفراش الذي اشتعلت فيه النيران، وراح يتشبث بقدمها في جنون، وهو يهتف:

- على فين يا "روايح"؟ الفلوس الأول.

اشتدت حدة الصراع بينهما، هو يحاول أن يبقوها، وهى تحاول الفكاك بما تحمل، والنيران تزداد اشتعالاً بالحجرة وفجأة..

شبّت النيران في ملابس "شفيق" الذي صرخ في جنون، وقد تشبّث بقدمها ليمنعها من الخروج..

أحست بلهب النيران يلفح جسدها، فحاولت التخلص من يد "شفيق" القابضة باستماتة على قدمها، فأمسكت بالعمود الخشبي الذي يسند سقف الحجرة، فانهار السقف كله بما يحويه من أشجار جافة وأعواد القطن..

واشتعلت النيران في كل شيء، وأسرع أهل القرية، وحاولوا بشتى الطرق إخراج "شفيق" و "روايح" أحياء..

ولكن.. هيهات !!

لقد قال القدر كلمته.. "وما ربك بظلام للعبيد".



(٤١)

أقام "فريد" وأمه في شقة المعلم "رضوان" والد ممدوح والموجودة فوق المقهى بحي القلعة، وقد رحّب بهما الرجل كثيرا، وفي محاولة منه لمساعدة "فريد" وأمه، طلب منه أن يباشر له حسابات المقهى.. أيام طويلة مرّت على "فريد"، وهو يشعر بجرح كبير في أعماقه، ومما زاد من آلامه أن أمه كانت متعبة، وتتألم في صمت؛ حتى لا تزيد من متاعبه..

وفي المقهى كانت الابتسامة لا تعرف طريقا لوجهه، حيث كان يؤدي عمله في صمت دون أن يتحدث مع أحد إلا في حدود العمل فقط..

وفي ذلك المساء كان فريد في طريقه إلى الشقة بعد أن انتهى من عمله، وإذا به يسمع من خلفه صوت صديقه "ممدوح"، يقول:

- من القهوة للشقة يا قلب لا تحزن.

التفت إليه "فريد"، وقال بحزن:

- وعاوزني أعمل إيه يا صحبي؟

قبض "مدوح" على كتفيه، وقال:

- عاوزك تتخلص من أحزانك و..

قاطعته "فريد" قائلاً بألم:

- إزاي يا "مدوح"؟ إزاي بعد ما فقدتُ أبويا ومديحة حبيتي، وخرجنا أنا وأممي مطرودين م البلد، وأكثر الناس عداوة ليا هو أخويا، أخويا يا "مدوح".

تطلع إليه "مدوح" في ألم وقال، وهو يرت على كتفه:

- حقك عمره ما هيضيع يا صحي، وكل شيء وله آخر مهما طال.

وصمت قليلاً، ثم استطرد ضاحكاً:

- بص يا صحي، أنا عاوزك تاخد حمام، وتغير هدومك؛ عشان ورانا معاد مهم.

- معاد إيه يا صحي؟

- النهارده عيد ميلاد "وفاء".

- وفاء؟!؟

- أيوه.. وفاء عبد الحميد، إنت نسيته؟

- بس يا "مدوح"..

- مفيش بس يا "فريد"، "وفاء" أول ما عرفت إنك في القاهرة صممت إنك لازم تحضر.

هزّ "فريد" رأسه، وقال:

- حاضري يا صبحي.. حاضري.

تركه، واتخذ طريقه نحو شقته، يستبدل ملابسه، واشتعلت أعماقه بأفكار
عدة، كانت كلها عن وفاء، وعن لقاءه الأخير معها، وحزنها الشديد حين
علمت أنه مرتبط بأخرى، وتمنياتها له بالسعادة مع مَنْ اختارها قلبه، ولكن
الآن وبعد أن ماتت "مديحة"، هل ستفهم موقفه وتقدره؟ هل ستصدق أنه
صار أكثر تمسكا بها بعد موتها؟ وأن حبه لها لا يمكن أن يموت..
أبدا.



(٤٢)

داخل إحدى الشقق المطلة على نهر النيل في حي العجوزة، حيث تقطن "وفاء" وصل "فريد" بصحبة "ممدوح" إلى الشقة، التي اكتظت بالمدعوين، وكان أغلبهم من زملاء الدراسة، وعند باب الشقة أراد "فريد" أن يعود أدراجه، لولا أن جذبه "ممدوح" قائلاً:

- ادخل يا صحتي، ادخل وارمي نفسك في نهر الحياة، قبل ما يجرفك في طريقه.

وطأ "فريد" الشقة بقدمين متثاقلتين ..

- فريد !!

وقعت عينا "فريد" على "وفاء"، التي نادته باسمه، وهي في أبهى زيتها، والتقت عيناها..

هتفت "وفاء" في لوعة، وقد تناست كل من حولها:

- فريد ————— !

شعر "فريد" بأن اسمه لا يخرج من بين شفيتها فحسب بل من أعمق أعماقها، فهتف بصوت لا يخلو من الحزن، وهو يمد لها يده مهتئاً:

- كل سنة وأنتِ طيبة يا "وفاء".

وعندما التقت كفه بكفها، أحست أنها تذوب داخله، تغوص في بحر عيونه الحزينة، وانفطر قلبها للحزن المنحفر على وجهه، هتفت بأعماقها، وعيناها تجوبان ملامحه كملاح وجد بغيته بعد عناء طويل:

- يا ترى إيه سبب الحزن اللي في عينيك دا كله يا "فريد"؟

قطع حبل أفكارها صوت مجموعة من الزملاء، وقد أحاطوا بها يرحبون بفريد، تركته وفاء لهم، وغابت داخل الحمام لتفرغ دموعها داخله، وفوجئت بيد أمها الحنونة تربّت على كتفها في رفق قائلة:

- هو دا "فريد"؟

ردّت "وفاء" من بين دموعها:

- أيوه يا ماما بس شكله حزين أوي.

ربت الأم على كتف ابنتها الوحيدة في ألم، وقلبها ينفطر من أجلها، وهتفت في تماسك:

- امسكي نفسك شوية يا "وفاء"، وامسحي دموعكِ واخرجي لزمائلك، وربنا يعمل اللي فيه الخير.

وخرجت الأم، وبحثت بعينيهما عن "فريد"، فوجدته وسط زملاءه صامتا هادئا حزينا، في حين كان زملاؤه يلقون بالنكات ثم يضحون بالضحك عليها، اقتربت منه وقالت، وعلى شفيتها ابتسامة حنون:

- أهلا يا بشمهندس "فريد".. نوّرت الدنيا كلها، "وفاء" كلمتني عنك كثير.

صافحها "فريد"، وقال بصوته الهادئ الحزين:

- أهلا وسهلا بحضرتك.. كل سنة و"وفاء" طيبة.

وفجأة تعالت صيحات الأصدقاء مطالبين بفتح البوفيه فابتسمت الأم، وربت على كتف "فريد" قائلة:

- أهلا بيلك يا ابني.

تحركت الأم في نفس اللحظة، التي ظهرت فيها "وفاء"، وقد استعادت هدوءها، ورسمت على شفيتها ابتسامة هادئة، وهى تتطلع للأصدقاء الذين هجموا على البوفيه، و"ممدوح" يلكر "فريد" بكوعه قائلا:

- حاول تبسم ع الأقل يا صحبي.

وحاول "فريد" بالفعل أن يتسم، ولكن - وعلى الرغم منه - خرجت الابتسامة باهتة شاحبة، وهو يشارك الجميع إطفاء الشموع، ثم قدم هديته المتواضعة لوفاء قائلا:

- يا ريت تقبلي هديتي الصغيرة دي.

احتضنت "وفاء" هديته قائلة، وعيناها تغوصان في بحر عينيه الحزيتين:

- هديتي هي حضورك يا "فريد".

ومرة أخرى التقت عيناها، ومرة أخرى وجد عينيها تقول الكثير والكثير،
ومرة أخرى هرب من عينيها، وهو يقول لممدوح الذي ما زال يأكل:

- إحنا اتأخرنا يا "ممدوح".

هتفت "وفاء":

- معقول هتمشي من غير ما تسمع صوتي وأنا بغني؟!!

- إنت بتغني؟

- شوفت بقى.. الكل يعرف إلا أنت، والنهارده مستنية أعرف رأيك في صوتي.

قالت ذلك ثم طافت مرة أخرى بعينيها في ملامحه، علّها تعرف سبب حزنه، ثم ارتفع صوت الموسيقى، وراحت تشدو بإحدى روائع كوكب الشرق أم كلثوم "حيرت قلبي"

- (حيرت قلبي معاك.. وأنا بداري وأخبي، قلي أعمل إيه وياك.. ولا أعمل إيه ويا قلبي، بدي أشكيلك من نار حبي.. بدي أحكيلك علي في قلبي، وأقولك علي سهرني.. وأقولك علي بكاني، وأصوّر لك ضنا روعي.. وعزة نفسي منعاني)

اعترف "فريد" في قرارة نفسه، وهو يتسلل من بينهم، ويتجه للشرفة، أن "وفاء" تمتلك صوتا ملائكيا جميلا، وراح يتطلع لنهر النيل الذي بدا شامخا عظيما غامضا في هذه الليلة الرائعة و..

- واضح إن صوتي معجبكش؟

التفت إلى "وفاء" التي دخلت الشرفة وراءه، وابتسم في هدوء، وهو يقول:

- لا بالعكس يا "وفاء"، صوتك جميل جدا.

لم يجد ما يكمل به عبارته فصمت، تطلعت إليه تجوب بعينيها ملامحه مرة أخرى وهتفت:

- ليه يا "فريد"؟

- ليه إيه؟

- إنت عارف أنا أقصد إيه.

تطلع إليها للحظات ثم قال:

- أيوه عارف يا "وفاء"، بس قلبي مش بإيدي.

هتفت في ألم:

- مش بإيدك؟

- أيوه يا "وفاء".. عشان أنا دلوقت عايش من غير قلب، وقلبي دفته

هناك تحت التراب، في قبر "مديحة"

- قبر "مديحة"؟! !

- أيوه يا "وفاء"، عشان "مديحة" اللي محبتش غيرها، واللي قلبي متحركش

إلا ليها ماتت.. ماتت يا "وفاء"، وقلبي دفته هناك معاها في القبر بتاعها.

صمت "فريد" فجأة قبل أن يغلبه انفعاله، واستدار يتطلع لنهر النيل،

والغريب أن "وفاء" لم تغضب لحديثه..

لقد تأملت من أجله، وحزنت من أجلها، ثم هتفت قائلة، وهي تواجه
عينيه بعد أن تماكنت نفسها:

- ياااه.. إنتِ اتحملت كثير أوي يا "فريد"، أنا حاسة بيك، ومقدرة
اللي إنتِ فيه، ومش عارفة أقولك إيه، بس أنا هفكر بكلامنا قبل كده عن
الأمل، وإن الحياة من غير أمل يعني موت.

ثم تركته، قبل أن يغلبها انفعالها، في حين جذب هو ذراع "ممدوح"،
وغادرا المكان وسط دهشة الحضور!



(٤٣)

داخل القطار المتجه للبلدة كان "فريد" يجلس في مقعد منزوٍ، وراح يجاهد طويلا لإخفاء دموعه، وهو يستعيد حوارَه مع الطبيب الذي قام بالكشف على أمه بمستشفى القلعة:

- والدتك مصابة بورم خبيث، ولازم تعمل عملية فورا.

- عملية؟! وهتكلف كام؟

- تقريبا في حدود خمسين ألف جنيه.

- ولكن دا مبلغ كبير و..

- دي عملية دقيقة يا ابني و..

ظلت تلك الكلمات تتردد في ذهن "فريد"، وهو في داخل القطار الذي

بدا له بطيئا كسلحفاة تسير، وراح يردد في أعماقه بصوت يئن ألما:

- مش معقول أمي كمان تروح مني بعد أبويا ومديحة؟ مش معقول يكون

القدر قاسي عليا للدرجة دي؟

قبض على رأسه بكفيه خشية أن ينفجر، وراح يتذكر كيف خرج من
البلد مطرودا، والأهالي يحاصرونه بالنبايت والمشاعل بعد أن أوغر "حمزة"
صدورهم نحوه، وراح يتساءل بأعماقه:

- يا ترى أهل البلد هيستقبلوني إزاي؟ وموقف "حمزة" سيكون إيه؟

وممكن يديني تكاليف العملية بسهولة؟

بس أنا مكنش قدامي حل تاني؟ وفي نفس الوقت مكنش ينفع أوافق

المعلم "رضوان" وأستلف منه، وأنا "فريد" ابن الحاج محمود الرشيدى؟

ما أن وصل القطار إلى محطة البلدة، حتى نزل منه "فريد" وراح يتطلع

إلى القرية القابعة على الجانب الآخر من البحيرة، وأطلق من صدره تنهيدة

حارة، وهو يتجه نحو قارب عم "نوح" ويلقي جسده فيه، هتف به الرجل

فور رؤيته:

- لسه بدري يا ابني.

تطلع إليه "فريد" في ذهول، وقال:

- تقصد إيه يا عم "نوح"؟ !

كرر الرجل وكأنه لم يسمعه:

- لسه بدري يا ابني.

هزّ الرجل رأسه، وصمت فجأة كعادته، وراح يحرك مجذافيه في إيقاع

رتيب، وبين الحين والآخر تتحرك شفّته بعبارات مبهمة لا معني لها، وما

أن وطأت أقدام "فريد" أرض القرية حتى شاع خبر وصوله، وما أن وصل الخبر لحمزة حتى هتف في غضب:

- إيه اللي رجعه تاني؟

قال "ربيع"، وهو يتناول النارجيلة من الزناتي:

- متقلقش يا "حمزة"، الأهالي هيتصرفوا معاه.

هتف "الزناتي" ببروده المعروف:

- لاء.. الأول لازم نعرف هو جى ليه؟

هتف "حمزة":

- صح يا "زناتي" معاك حق.

في تلك اللحظة جاء أحد عيون "حمزة" يخبره باقتراب "فريد" من الفيلا، فخرج وسط رفيقيه ربيع والزناتي، وقابل "فريد" على باب الفيلا، وصرخ في وجهه:

- إيه اللي رجعت تاني؟

- عاوز خمسين ألف جنيه.

- نعم؟ ! خمسين ألف.

- أيوه يا "حمزة"، أمي في المستشفى ومحتاجة تعمل عملية خطيرة.

قاطع "حمزة" قائلاً:

- وأنا أجيب منين؟ زي ما أنت شايف العين بصيرة والإيد قصيرة..

قاطعته "فريد" صارخا:

- "حمزة" .. أنا مش بطلب صدقة ولا إحسان، دا جزء صغير من حقي.

- حقك؟ ! إنتَ تحمد ربنا إنكَ خرجت سليم م البلد، ودلوقت يا إما ترجع مكان ما جيت وإلا هسيب عليكَ أهل البلد.

وهنا وفي تلك اللحظة، بكى "فريد"، ولكنه بكاء بلا دموع، بكاء من دم، بكاء من عرف هدفه أخيراً.. وبصوت صارم يفوق الرعد قوة هتف "فريد"، وقد تقلّصت عضلات وجهه على نحو مخيف:

- كده خلصت يا "حمزة"، دا مش وقت الحساب، ومن حسن حظك إن كل لحظة بتعدي على حساب حياة أمي اللي راقدة ف المستشفى، أنا ماشي دلوقت، بس أنا راجع تاني، راجع يا "حمزة".

وتركهم "فريد"، وانطلق كالعاصفة على الطريق الزراعي، في حين كان حمزة يعدل عباءته في محاولة منه للتخلص من الرعب الذي سيطر عليه، وراح يصرخ وهو يدخل الفيلا:

- يا عوض.. يا حمار.. هات الشيشة.

أما "فريد" فقد أسرع الخطى على الطريق الزراعي ليلحق أمه..

كان في قمة الغضب والخوف والراحة..

الغضب لأنه تأكد كم كان حاملاً غافلاً حين ظنّ أن الدنيا وردة بيضاء..

الخوف من أن تصاب أمه بمكروه..

الراحة لأنه عرف أخيراً ما يجب عليه أن يفعله، لا بد أن يواجه "حمزة"،
نعم نعم لا بد.
وفجأة..

لمح عن بُعد آخر شخص يتوقع رؤيته الآن وهنا في القرية..
صديقه "ممدوح"..
وسقط قلب "فريد بين قدميه"، وهو يتطلع للحزن الذي يكسو ملامح

وجه "ممدوح"، وقرأ "فريد" في عيني "ممدوح" الدامعة ما لم يبح به لسانه..
لقد ماتت أمه.. ماتت..
لم يمهلهما القدر لترى ابنها، وقد عرف هدفه أخيراً..
لم يمهلهما لتراه على الصورة التي كانت تتمناها..
بحروف مرتجفة متعثرة هتف "ممدوح":
- كانت نفسها تشوفك بس..
قاطع "فريد" بصرخة قوية، وهو يندفع نحو الفيلا مرة أخرى..
صرخة تردد صداها في كل أرجاء القرية..
صرخة رددتها الطيور والأشجار والأرض والحقول..
- يا "حمزة"..
بأقدام مرتعشة اندفع "حمزة" نحو شرفة الفيلا، ومن خلفه كان ربيع
والزناتي، وراح الثلاثة يتطلعون إلى "فريد"، وهو يندفع نحو الفيلا،
وصرخاته تملأ أرجاء القرية، ومن حوله تجتمع بعض أتباع "حمزة"، وبعض

من أهل القرية، وأحاطوا به، والنبايت تتأرجح في أيديهم، وبجوار سور حديقة فيلا الرشيدى كان "دياب" يجلس أرضاً يبكي في حُرقة من أجل صاحبه..

ومن عيني "فريد" اللتين لم تذرفا دمعة واحدة انبعث بريق مخيف، وانطلق صوته قويا صارما كالرعد، وهو يتطلع حمزة ورفيقه بشرفة الفيلا:

- "حمزة" .. أمي ماتت يا "حمزة" .. ماتت، من النهارده عاوزك تتعلم الحساب كويس، وأوعى تغلط فيه، في الأول "مديحة" ودلوقت أمي، أمي ومديحة يا حمزة.

رَبَّتْ "ممدوح" على كتف "فريد"، وراح يجذبه من ذراعه قائلاً، والدموع في عينيه:

- كفاية يا "فريد"، كفاية أرجوك.

انتزع "فريد" ذراعه من يد "ممدوح"، وتطلع إلى الأهالي الذين يحاصرونه بالنبايت، ثم نظر لحمزة، وقد تضاعف بريق الغضب في عينيه مرات ومرات، ثم قال بصوت يفوق الرعد قوة:

- من اللحظة دي يا "حمزة" أنا هعيش عشان حاجة واحدة، حاجة واحدة بس، إنك تركع تحت رجلي، تركع وتطلب الرحمة، وخلي بالك كويس إن "فريد" اللي تعرفه مات، مات يا "حمزة"، ومن النهارده النهر الصغير هيبقى طوفان، أيوه.. طوفان هيدمر أي شيء يقف في طريقه.

قال "فريد" ذلك ثم شيع حمزة بنظرة غضب، ارتجف لها جسده، واندفع مع "ممدوح" في طريقهما على الطريق الزراعي، وعند منطقة المقابر، وقف

"فريد" وعيناه على مقبرة "مديحة"، تطلع إلى المقبرة في خشوع، وفي عينيه كل حزن وألم الدنيا، ثم واصل طريقه مع صديقه حيث قارب عم نوح..
وفي تلك اللحظة برز "مختار" من بين المقابر، وراح يتطلع لفريد، وقال في نفسه بحزن عميق:

- ربنا معاك يا صاحبي.

في نفس اللحظة التي كان فيها "فريد" يلقي بجسده في قارب عم نوح، وقد انهمرت دموعه التي حبسها طويلا، وهو يصرخ في وجه الرجل:

- الدم بقي مَيَّه يا عم نوح.

تطلع إليه الرجل بنظرات خاوية، وهو يدفع مجذافي القارب بذراعيه الضعيفتين هاتفا في وهن:

- لسه بدري يا ابني !

وصمت فجأة كعادته، في حين كانت أنفاس فريد تتلاحق في سرعة، وبدخله بركان..

بركان يوشك أن ينفجر !



(٤٤)

أسبوع بالتهام والكمال، و"فريد" داخل الشقة لم يغادرها بعد وفاة أمه، انقطع عن كل شيء، وترك عمله بالمقهى، أسبوع كامل عاش "فريد" خلاله حياة الموتى، لا يأكل إلا النذر اليسير، حالة من اليأس الرهيب سيطرت عليه، وقد فقد أعز الناس لديه، فقد الأب، والأم، والحبيبة، والصديق..

كان لا يدري لماذا جعله القدر هدفا لضرباته بكل تلك القسوة، لم يعد لديه أي أمل في الحياة، ولولا خوفه من الله لأنهى حياته بيده، و... فاق من شروده على طرقات الباب..

نهض بكل تناقل ليفتح الباب الذي وقف على عتبة صديقه "ممدوح"، وقد راح يتطلع إليه في إشفاق، ثم قال متصنعا المرح:

- جرى إيه يا عم "فريد"؟ إنت هتقضي عمرك كله هنا؟

ألقى "فريد" جسده على المقعد في إنهاك، وهو يقول:

- وهعمل إيه يا "ممدوح"؟

- ظبّط نفسك بسرعة؛ فيه زميلة بره عاوزه تزورك.

- زميلة؟!

- ضحك "ممدوح"، وقد اهتزّ جسده الضخم قائلاً:
- وفاء.. وفاء عبد الحميد.
- هتف "فريد" بذهول:
- وفاء؟! !
- أيوه واقفة بره، وعاوزه تزورك.
- فجأة صرخ "فريد" بصوت عال تعمّد أن يصل لوفاء:
- بس أنا مش عاوز أشوف حد، مش عاوز أشوف حد يا ممدوح.
- سمعت "وفاء" ذلك، فانطلقت عائدة تسبقها دموعها، وحين خرج ممدوح لم يجدها، فعاد لفريد يعاتبه قائلاً:
- معقول "فريد" الشاعر الرومانسي يتصرف بالأسلوب دا؟! !
- أعطى "فريد" ظهره لممدوح حتى لا يرى الدمعة التي خدعته، وسقطت على خده، وقال صارخاً:
- دا مش زمن الشعر والرومانسية يا "ممدوح"، مش زمن فريد الرشيدي، دا زمن حمزة الرشيدي وبس.
- قال ذلك ثم ألقى جسده فوق المقعد في حالة أشبه بالانهيار، فاقترب منه "ممدوح"، وقال في حزن:
- وبعدين يا صبحي؟
- كل اللي بحبهم ماتوا يا "ممدوح".
- بس إنتَ لسه عايش.
- وهى حياتي ليها لازمة من غيرهم؟

- اسمعني يا "فريد" أرجوك.. الحياة عمرها ما هتقف حتى لو فقدنا فيها كل اللي بنحبهم، أيوه يا صحبي الحياة مستمرة وإنّ لازم تجاربيها وتسايرها، وإلا خدتك في رجليها، وداست عليك.
- مبقتش فارقة يا صحبي، أنا كده كده نفسي أموت.
- مش كل اللي بتتمناه بيحصل.
- تقصد إيه؟
- يعني مفيش قدامك غير إنك تعيش زي الناس لغاية ما يبجي معاد موتك.
- وهى الناس بتعيش إزاي؟
- بيشغلوا ويكافحوا ويتعبوا؛ عشان يحققوا اللي هما عاوزينه.
- قاطعه "فريد" قائلاً بألم:
- "ممدوح" .. كل حاجة حواليا بتفكرني بكل اللي حصل.
- يبقى لازم تبعد يا صحبي، أيوه ابعد عن كل اللي يفكرك بالماضي حتى لو.. لو هتسيب البلد كلها.
- أسيب البلد؟ !
- أيوه يا صحبي، سيب البلد، إيه المشكلة؟ المهم إنك تعيش، وتفكر في مستقبلك، وتدوس ع الحياة قبل ما تطحنك وتدوس عليك.
- قال "ممدوح" ذلك، وترك فريد وراءه يتطلع إليه شاخصاً بعينه..
- والكلمة الأخيرة لممدوح ما زالت تتردد في أذنه، تدوي في أعماقه..
- كلمة الرحيل.

(٤٥)

لم يمر يومان على هذا الحديث، إلا وكان "فريد" قد اتخذ القرار، قرر أن يعمل بنصيحة صديقه "ممدوح"، ويتعد عن البلد التي ذاق فيها الأمرين، البلد التي فقد فيها كل من يحبهم، واستخرج جوازاً للسفر لألمانيا، بعدما رضخ لرغبة والد ممدوح، وأخذ منه مبلغاً على سبيل الدين، ويومها هتف "فريد" في نفسه:

- الدين اللي في رقبتي ليك إنت وأبوك بقي كبير أوي يا "ممدوح" !
- احتضنه الحاج "رضوان" مودعاً، وقال له في أبوة صادقة:
- دي بلدك يا "فريد" مهما كانت قاسية عليك، أوعى تنساها يا ابني.
- قبل "فريد" يده، وقال له والدموع في عينيه:
- متشكر يا حاج "رضوان"، متشكر أوي.
- ثم تركه، وانطلق هو و"ممدوح" في طريقهما للمطار، وفي صالة السفر راح "ممدوح" يتابعه، وهو ينهي إجراءات الدخول و..
- فريد ————— د.
- التفت "فريد" لمصدر الصوت.. كانت "وفاء" ..

كان العرق يكسو وجهها، وقد تطايرت خصلات شعرها الأسود على جبينها، وراحت تهتف لاهثة وهي تقترب منه، وكأنها تلفظ آخر أنفاسها:
- فريد.

تطلع إليها بعينين تفرقت فيهما الدموع، وقال بجمود:
- وفاء!

اقتربت منه، أخذت كفيه بين راحتيها، هتفت بصوت متهدج:
- هو ذا قرارك الأخير؟

هز رأسه في ألم دون أن يرد، تطلعت إليه طويلاً هذه المرة..
انفطر قلبها للحزن الرابض في عينيه..

وقرأ هو في عينها الكثير..

تضاعف عذابه مرات ومرات..

هتف بكل ألم الدنيا:

- أتمنى ليكي التوفيق في بلدك.

- المهم أوعى تنسى إنها بلدك إنتَ كمان.

في تلك اللحظة رددت المذيعة الداخلية اسمه للحاق بالطائرة التي على وشك الإقلاع، ففتح شفتيه لينطق بكلمة وداع، ولكن "وفاء" وضعت أناملها الرقيقة فوق شفتيه:

- أوعى تنطق كلمة الوداع يا "فريد"؛ عشان إنتَ راجع، أيوه هترجع يا "فريد"، هترجع عشانى، أقصد عشان بلدك.

قالت ذلك، ثم انطلقت مبتعدة تجر خلفها نهرا من الدموع، تابعتها "فريد" للحظة في ألم، ثم اتجه نحو الطائرة، وعبر بابها في سرعة، وكأن شياطين جهنم تطارده، ثم ألقى بجسده المنهك فوق مقعده، ومن نافذة الطائرة التي حلقت في الجو ألقى نظرة أخيرة على بلده مصر..

وأمام عينيه في تلك اللحظة تراقصت صور شتى لجميع الأحداث المؤلمة التي مرّت به، وتقلّصت عضلات وجهه في غضب شديد، حين وصل للحظة الأخيرة بينه وبين "حمزة" بعد وفاة أمه..

(من اللحظة دي يا حمزة أنا هعيش عشان حاجة واحدة، حاجة واحدة بس، إنك تركع تحت رجلي، تركع وتطلب الرحمة، وخلي بالك كويس إن فريد اللي تعرفه مات، مات يا حمزة، ومن النهارده النهر الصغير هيبقى طوفان، أيوه.. طوفان هيدمر أي شيء يقف في طريقه).

ظلت العبارة الأخيرة تتردد في ذهنه، وقد لمعت عيناه ببريق مخيف و..

- "عمل ولا نزهة"؟

استيقظ "فريد" من شروده على صوت رفيقه في المقعد المجاور له، وهو يلقي سؤاله السابق فردّ عليه في اقتضاب:

- بحث عن عمل.

- ليك قرايب في ألمانيا؟

- لأ.

- سافرت ألمانيا قبل كده؟

- لأ.

- معاك عقد عمل؟

- لا.

وفجأة انفجر جاره في الضحك - وكان تقريبا في مثل عمر فريد - وهو يتطلع لفريد مما جعل الأخير يسأله:

- بتضحك على إيه؟

شعر جاره بالخرج فردّ، قائلاً وهو يلوح بأصبعه:

- لا أبدا.. أصل ظروفك نفس ظروفى، أول مرة أسافر، وماليش قرابى هناك، ومش معايا عقد عمل.

حاول "فريد" أن يتسم مجاملة للشاب، ولكن على الرغم منه خرجت ابتسامته شاحبة باهتة، فازداد شعور الشاب بالخرج، وقال:

- آسف أوي.. واضح إني ضايقتك.

وضع "فريد" كفه فوق جبهته، وقال في إجهاد واضح:

- لا أبدا.. بس حاسس بصداع رهيب هيفرتك دماغى.

وفجأة.. أقدم الشاب على أغرب تصرف أدهش "فريد"، إذ نهض فجأة من مقعده، وراح يصرخ في المضيفة، ويتعجلها لتحضر أحد أقراص الصداع، ولم يهدأ حتى جاءت المضيفة بم أراد، فتناول منها القرص والماء على عجل، وناولهما لفريد قائلاً:

- اتفضل.

تناوله منه في دهشة لتصرفه، وقال:

- الموضوع مكش يستاهل اللى عملته دا كله.

ضحك الشاب، وقال:

- متستعجلش يا أخي، كمان شوية هتعيش في بلاد الأجانب اللي الابن فيها مبيسألش على أمه.

- مش للدرجة دي.

- وأكثر من كده يا أخي، صدقني مش كل اللي في الغرب جميل، يا ريت ناخذ علمهم، وياخدوا شهامتنا ورجولتنا ..

ارتفع في تلك اللحظة صوت المضيفة الداخلية، وهى تطلب من الركاب ربط الأحزمة استعدادا للهبوط، فاستجاب الاثنان لندائها، و"فريد" يتسم قائلًا، وقد شعر ببعض الألفة تجاه الشاب:

- دا موضوع شرحه يطول، ياريت الظروف تسمح ونتقابل.

رَبَّت الشاب على كتفه ببساطة، وهو يقول مبتسما:

- دا شيء يسعدني.

ومرة أخرى غرق الشاب في نوبة أخرى من الضحك، وهو يقول:

- تصدق إن إحنا لسه متعرفناش ببعض؟

- "فريد الرشيدى" .. بكالوريوس زراعة.

- "منير عبد العزيز" .. بكالوريوس تجارة.

وتصافح الاثنان، وهما يغادران المطار، وقد تواعدا على اللقاء مرة أخرى.



(٤٦)

قفزة هائلة حدثت في حياة "حمزة الرشيدى"، حيث حصل في البداية على العمودية بعد مقتل الحاج "عبد المحسن" عمدة القرية، وتقدم لانتخابات مجلس الشعب، وأصبح عضوا في البرلمان، بعد أن خدع أهل بلده الغلبة بالكلام الرنان المعسول حتى انتخبوه، ونجح واتسعت أملكه، وزادت أرصدته في البنوك، وهذا لأن "حمزة" كان من أنصار مبدأ (أنا ومن بعدي الطوفان)، وحين يصلون لتلك المناصب، وتصير لهم الكلمة العليا لا يفكرون إطلاقا في مصلحة الأهالي الذين ساعدوه في الوصول..

قليلون هم من كانوا يعرفون تلك النهاية من البداية وأولهم "مختار"..
"مختار أبو السعد" أخو "مديحة" وصديق "فريد"، وابن الرجل الذي ما زال ملازما للمقابر منذ وفاة ابنته "مديحة".. كان "مختار" يتطلع لرجال "حمزة" وقت الانتخابات، وهم يرددون التهافتات الرنانة، والوعود البراقة والأمانى الكاذبة، وهو يتسم في نفسه بسخرية، ولم يدل بصوته.

وكذلك "دياب" الأبله - كما يظنون - كان يجري بطريقته المضحكة،
وذيل جلبابه بين أسنانه في طرقات البلد حول رجال حمزة أيام الانتخابات،
وهو يردد:

- بكره العصفور يبغي نسر، والنعامه تبقى غول، والعسل يطلع مسموم،
وأهي لعبة كل يوم، وآه يا زمن.

والعجيب أن الأهالي، ورجال "حمزة" كانوا يسمعون كلامه، ويضحكون
دون أن يدركوا معناه..

وأيضا عم نوح.. ذلك الرجل الكبير الذي لا يدري أحد من أهل القرية
كم بلغ عمره الآن.. كل ما يعلمونه أنه عندما مات الحاج عبد الرشيد -
الرجل المعتق بالقرية - منذ عشر سنوات، قال قبل وفاته أنه أصغر من عم
نوح بخمسة عشر عاما!

المهم أنه لا يوجد بين أهل القرية من يعتبر نفسه من جيل عم نوح، أو
حتى من الجيل الذي يسبقه!

ويوم الانتخابات هتف عم "نوح" في نفسه، حين سمعهم يهتفون باسم
حمزة الرشيد:

- دوّار.. دوّار يا زمن.



(٤٧)

بعد أكثر من شهرين ونصف نجح "فريد" في العثور على عمل بسيط بأحد المطاعم الشهيرة في ألمانيا، كان عليه أن يقوم بجمع الأطباق الفارغة، ثم يقوم بتنظيفها من الداخل، وعلى الرغم من هذا العمل البسيط، الذي لم يتخيل يوما أن يزاوله إلا أنه كان سعيدا به؛ كان يريد أن ينسى أي شيء يذكره ببلده وما قاساه فيها من ويلات، حتى ولو كان الثمن هو أن يعمل مرمطونا في دولة أجنبية بلا قلب..

وذات مساء - وقبل أن تنتهي وريدته بدقائق - خرج يجمع الأطباق الفارغة، فوجد من ينادي عليه، ويشير له بأن يرفع الأطباق، تطلع "فريد" إلى الرجل - الذي كان قد تجاوز الستين بعامين أو ثلاثة، وقد رسم الشيب خطين علي جانبي رأسه، مما أعطي مظهره هيئة ووقارا - وتطلع إلي الأطباق التي لم يمسهما الرجل، ووقف في حيرة لا يدري كيف يتصرف، والرجل يخاطبه بالألمانية التي لا يعرف منها إلا القليل..

في تلك اللحظة وجد يد مدير المحل تربت على كتفه، وهو يخاطبه
بالإنجليزية قائلا:

- ارفع الأطباق يا "فريد".

- بس دا لسه..

قاطعته الرجل في هدوء، وهو يقول:

- هى دي عادة هر "براون"، دايا بيعي المحل، ويطلب الأكل، وميمدش
إيده فيه.

- وييدفع الحساب؟! !

ابتسم صاحب المحل قائلا، وهو يشير لهر "براون":

- هر "براون" من أغنى أغنياء ألمانيا.

هزّ "فريد" رأسه، وراح يتطلع مرة أخرى للرجل، الذي ما زال شاردا،
وفي عينيه تجمع حزن دفين، ثم رفع الأطباق، وارتدى ملابسه بعد أن انتهت
ورديته، واستلم منه زميله البلغاري، وغادر المحل ليبدأ الوردية الثانية..
وردية السير علي الأقدام..

نعم.. فقد اعتاد "فريد" يوميا أن يقطع المسافة بين المحل وبين الفندق
المتواضع الذي يقيم فيه سيرا علي الأقدام؛ توفيراً للنفقات من ناحية،
ولعدم وجود مواصلات عامة في ذلك الوقت المتأخر من الليل.. واصل
"فريد" طريقه، وراح يتطلع لواجهة المحال التجارية، وفوجئ أمامه على
الرصيف المقابل برجل المطعم المدعو هر "براون" يسير على قدميه، وقد رفع

ياقة الجاكت؛ ليتقي لسعة البرد في هذا الوقت المتأخر من الليل، والتي لا يتحملها رجل في مثل سنه، وكان الرجل يسير في خطوات بطيئة، وفي عينيه نفس النظرة الحزينة و فجأة..

ارتفع صرير عجلات إحدى العربات المسرعة، التي كانت تنطلق بسرعة جنونية على الطريق، ثم انحرفت فجأة فوق الرصيف الذي يسير عليه الرجل، وصدمته، وفرت هاربة، وقد خرّ الرجل غارقا في دمائه، تسمّر فريد مكانه لا يدري ماذا يفعل، وقد رأى بعض المارة يتطلعون للرجل الغارق في دمائه، ثم يواصلون طريقهم في لا مبالاة !!

وأخيرا حسم "فريد" أمره، وحمل الرجل في عربة أجرة إلى أقرب مستشفى.. وهناك في المستشفى، وحيث كان الرجل يتلقى علاجه وإسعافاته ذاق فريد الأمرين، ورأى الكثير من العذاب، وتم وضعه تحت الحراسه حتى يفيق الرجل، ويدلي بأقواله، ومما زاد الأمور تعقيدا هو عدم إجادته للغة الألمانية، وتمّ عمل عملية جراحية للرجل، واحتاج الرجل لدماء، وتبرّع له "فريد"، وقد تطابقت فصيلته مع الرجل، وكاد التعب والإجهاد يقضيان على "فريد"، وهو رهن الحراسة حتى يفيق الرجل، ويصبح قادرا علي الكلام.. وفاق الرجل، ودخل عليه "فريد" في صحبة ضابط الشرطة، ومعه اثنان من الحراس، وتطلع الرجل لفريد في دهشة، وأشار لهم بأنه ليس الفاعل، وظل للحظات يتطلع فيها لوجه "فريد"، ثم غاب عن الوعي مرة أخرى.



(٤٨)

ظلّ "فريد" وعلي مدار أسبوع كامل، وهو مواظب على زيارة السيد "براون" كل يوم، قبل أن يذهب لعمله، كان يدخل على الرجل حجرتة، وكان ما زال فاقدا للوعي، ولا يفيق إلا للحظات قصار يتطلع فيها لوجه فريد، ثم يغيب عن وعيه مرة أخرى، دون أن يتفوه معه بحرف...

حتى كان ذلك اليوم الذي ذهب فيه "فريد" لزيارته، فأصابه الهلع والفرع حين وجد فراشه خاليا، وانطلق بسرعة يسأل إحدى الممرضات بالإنجليزية، فلم تفهم منه شيئا إلا حينما أشار لحجرة الرجل فابتسمت، وتناولت خطابا من جيبها وناولته إياه، تطلع فريد للخطاب، ونظر للعنوان المدوّن عليه فخمّن أنه للسيد "براون"، غادر المستشفى في سرعة، وهو ينظر لساعته وكان ما زال لديه وقت قبل استلام العمل، فقرر أن يذهب ليطمئن على الرجل، ناول الخطاب لسائق أول سيارة أجرة قابلته، ثم ألقي بجسده بجوار السائق الذي أخذ يتطلع للعنوان ثم ابتسم، وأعاد له الخطاب، وانطلق بالسيارة في هدوء..

ولم تمر سبع دقائق حتى وجد السيارة تقف أمام فيلا ضخمة، عند ضواحي المدينة، تحيط بها حديقة كبيرة... نزل فريد من السيارة الأجرة، وراح يتطلع للفيلا الضخمة، واقترب من حارس الفيلا، وطلب منه بالإنجليزية مقابلة السيد "براون"، فلم يفهم منه الحارس شيئا، فناوله الخطاب الذي معه، فابتسم الرجل وغاب لحظات، وعاد ومن وراءه كان السيد "براون" يرتدي بنظالا قصيرا، وكابا يغطي به رأسه، وفي يده مقصا كبيرا مما يستخدم في تقليم أشجار الحديقة.. علّت وجه الرجل ابتسامة واسعة حنون، وهو يتطلع لفريد، وصافحه قائلا له بالإنجليزية:

- أهلا يا ولدي.. أنا كنت مستنيك.

تبعه "فريد"، وهو يتطلع للحديقة الكبيرة، التي تحيط بالفيلا، ودخل إلى بهو الفيلا الذي كانت كل قطعة أثاث فيه تنطق بالذوق الراقي والأصالة.. جلس "فريد" حيث أشار له الرجل، وسأله:

- صحة حضرتك عاملة إيه دلوقت؟

ابتسم الرجل ابتسامته الواسعة الحنون، وعيناه ما زالت تتفرس في ملامح "فريد"، وقال:

- صحتي بخير.. متشكر أوي يا ابني.

في تلك اللحظة أقبل الخادم بالشراب الساخن الذي تناوله منه "فريد"، وهو يسأل نفسه عن سر تلك النظرات المتفحصة من السيد "براون" له، الذي هتف به قائلا:

- عرفتُ إنك مصري.

- أيوه .. أنا مصري.
- ضحك الرجل، وقال بعربية مكسرة:
- عظيمة يا مصر.
- تطلع إليه "فريد" في دھول، فضحك الرجل بهدوء، وقال:
- متستغريش يا ابني؛ أنا عشت في مصر خمس سنين من أكثر من عشرين سنة.
- وصمت قليلا، ثم استطرد قائلا:
- بس أنا لسه متعرفتش عليك.
- فريد محمود الرشيدى، بكالوريوس زراعة، مصري وشغال في المطعم اللي حضرتك بتروحه.
- كان "فريد" يتحدث، والرجل يتطلع لملاحه بطريقة جعلت القلق والتوتر، يسكنان قلبه، فقال للرجل محاولا الفرار من نظراته:
- وحضرتك كنت في مصر سياحة ولا..
- لا يا ابني، أنا كنت متجوز من مصرية، كانت بتحضر الدكتوراه هنا في ألمانيا، وسافرت معاها، واتجوزنا بعد ما أعلنت إسلامي، وقضيت في إسكندرية أجمل أربع سنين ونص في عمري، وبعدين مرايت ماتت بمرض خطير، ورجعت ألمانيا تاني.
- بدا التأثر على وجه الرجل وصوته، حين تذكر زوجته، فقال "فريد" معتذرا:
- آسف لو قلبت المواجه على حضرتك.

هزّ الرجل رأسه قائلاً، وهو ما زال يتفرس ملامح "فريد":

- لا يا ابني أبداً، أنا سعيد جداً إنني شوفتك.

نهض "فريد"، وقال:

- اسمح لي حضرتك أمشي دلوقت؛ عشان معاد شغلي.

ردد الرجل قائلاً بذهول:

- في المطعم؟!

- أيوه.

رَبَّت الرجل على كتف "فريد"، وعلى شفّتيه نفس الابتسامة الحانية، واتجه
لحجرة مكتبه قائلاً:

- تعالى ورايا يا "فريد".

تبعه "فريد" في دُحول إلى مكتبه، الذي تفوق في أثاثه وديكوره على الأفلام
الأمريكية، وراح يردد دون وعي:

- مكتب حضرتك جميل جداً.

ابتسم الرجل في هدوء، وهو يلقي بجسده خلف مكتبه الفخم، ويتناول
ورقة من درج مكتبه، راح يتطلع إليها، ثم دوّن عليها شيئاً بقلمه، وناولها
لفريد، وهو يقول له:

- اتفضل يا ابني اقعد، واقرا الورقة دي.

تطلع "فريد" إلى الورقة في دُحول، ولم يفهم منها شيئاً سوى اسمه فقط،
فابتسم الرجل وقال:

- دا عقد عمل ليك في شركاتي، إنت من النهارده مدير عام لكل شركاتي.

ردد "فريد" قائلاً بذهول:

- بتقول إيه حضرتك؟ أنا مدير.. دا مش ممكن، مش ممكن.

رد السيد "براون"، قائلاً وهو يتفرس في ملامحه:

- وليه مش ممكن يا ابني؟

- إزاي حضرتك تثق فيا وبالسرعة دي؟!

رَبَّت الرجل على كتفه قائلاً، وقد لمع بريق الدموع في عينيه:

- عاوز تعرف ليه يا "فريد"؟

بسبب دمك اللي بييجري في عروقي دلوقت، ولولاك كان زماي مرمى ع الأرض محدش بيسأل فيا.

- بس دا حلم.. حلم وأنا مش مصدق، وكمان أنا خريج زراعة، ومش هفهم في..

قاطعته الرجل مبتسماً، وهو يقول:

- تصدقني لو قلتلك إن صاحب الامبراطورية دي كلها خريج فنون جميلة.

ثم نهض من خلف مكتبه، وناول "فريد" قلماً، وقال بنفس الابتسامة الأبوية:

- إمضي العقد يا ابني، ومتقلقش كل حاجة بتيجي بالممارسة.

تطلع إليه "فريد" في ذهول، وهو يتناول القلم، ويشعر وكأنه في حلم.



(٤٩)

استيقظ عم "نوح" من نومه على سطح قاربه، وقد أمهله القدر لحظات أخرى، يقضيها بين الأحياء، أزاح الرجل الغطاء، وألقاه في ركن المركب، وهو يردد بينه وبين نفسه العبارة، التي لا تفارق شفثيه أبدا:

- دوار يا زمن !!

ثم نهض الرجل، وتوضأ من مياه البحيرة، وصلّى الفجر في خشوع، وبعدها تناول قطعتين من الخشب كانتا في جانب القارب، ووضعهما فوق الموقد، وأشعل فيهما النار، ثم مدّ يده في كيس من الخيش كان معلقاً على مسمار في جانب قاربه، وتناول منه بعض كسرات من الخبز التي ما زالت تحمل رائحة الجبن القديم، وبأصابع مرتعشة راح يأكل كسرة الخبز بيده اليمنى، ويده اليسرى تحتها تمنع الفتات الذي يتساقط منه.. وما أن انتهى الرجل من طعامه - إن سمينا هذا طعاما - حتى قبض بأصابعه المرتعشة على كوب الشاي الأسود، وراح يرتشفه في ببطء، وهو يهيمهم بينه وبين نفسه

بكلمات مبهمه، غير واضحة المعالم، وراح يراقب الليل، وهو يجمع آخر
خيوط ظلامه؛ استعدادا للرحيل كي ينفلج نور الفجر، ويعم الكون بنوره..
فجأة سمع من خلفه صوتاً يفيض شوقاً ولهفة:

- السلام عليكم يا عم "نوح".

التفت عم "نوح" لمصدر الصوت، فلم تسعفه عيناه أن يرى شيئاً محدداً
سوى ظل يتحرك باتجاه القارب، ثم خطا بقدميه داخل القارب، وجلس
قبالة عم نوح صارت ملامحه واضحة له..

كان رجلاً على مشارف الخمسينات، أنيقاً، ذا ملامح وسيمة، يضع فوق
عينيه منظاراً طبياً منحه هيبه ووقاراً..

هتف الرجل ضاحكاً في هدوء، وهو يتطلع إلى عم نوح:

- إنت مش عارفني يا عم نوح؟ أنا "عز الدين الرشدي" اللي سافر بره
من خمسة وعشرين سنة، أخو الحاج "محمود".

تطلع إليه عم "نوح"، وقد علا الحزن وجهه، وراح يهمهم بعبارات غير
مفهومة، لم يتبينها الدكتور "عز الدين"، فابتسم، وهو يقول له:

- إنت سامعني يا عم "نوح"؟ أنا الدكتور "عز الدين الرشدي".

خُيِّل للدكتور "عز الدين" أن نظرة الألم قد تضاعفت في عيني الرجل،
الذي فَرَد مجدافيه، وراح يحرك القارب في اتجاه البلدة، وراح يردد عباراته

المبهمة، ثم التفت إليه فجأة، وراح يدقق النظر في ملامحه، وكأنه لم يره إلا الآن، وهتف به قائلاً:

- لسه بدري يا ابني.

ردد الدكتور "عز الدين" قائلاً في دهشة:

- تقصد إيه يا عم "نوح"؟

ولكن عم "نوح" صمت كعادته، ولم يتفوه بحرف، فتطلع إليه الدكتور عز الدين في ذهول، وعينه معلقتان بالقرية التي تقترب منه رويدا رويدا، فخلع منظاره، وراح ينظفه بمنديله، وأعماقه تتساءل في دهشة:

- يا ترى عم "نوح" يقصد إيه؟ !



(٥٠)

تغيرت حياة "فريد" تماما، واستطاع أن يفهم كل شيء في عمله الجديد في وقت قصير، فكان حقا جديرا بهذا المنصب مما جعل السيد "براون" يكاد يكون معتمدا عليه اعتمادا كليا، وكثيرا ما اقترح عليه أن يقيم معه في فيلته، ولكن فريد رفض في أدب شديد، وفضل أن يقيم بمفرده في شقة صغيرة بضاحية من ضواحي برلين، ولكنها كانت في نفس الوقت على مقربة من فيلا السيد "براون" ..

هكذا كان "فريد"، وهكذا عرفه السيد "براون"، الذي أحبه كثيرا، واحترم فيه عزة نفسه، وكبريائه وتفانيه في العمل ..

و ذات يوم كان "فريد" في مكتب السيد "براون" يتناقشان في بعض الأمور، وإذا بالباب يُفتح فجأة بدون سابق إنذار، ويندفع داخل المكتب شاب يناهز "فريد" في العمر تقريبا...

لاحظ "فريد" الشحوب الذي اعترى وجه السيد "براون" فور رؤيته لهذا الشاب، واشتبك الاثنان في شجارٍ طويل، لم يفهم منه "فريد" أية كلمة،

ولكنه كان واثقاً أن الشاب يرفض شيئاً فعله السيد "براون"، والأخير يصّر على موقفه بشدة، وانتهى الشجار بأن اندفع الشاب مغادراً الحجرة كالعاصفة، وقد هدد السيد "براون"، والعجيب أن السيد "براون" كان يسمع تهديده، ولم يحرك ساكناً.. ظل السيد "براون" يتطلع للباب في صمتٍ حزين، ثم ألقى جسده على مقعده في توتر، وهو يشعل سيجاره، وينفث دخانه في حزن وضيق، تطلع إليه "فريد" في إشفاق، وقال:

- مين الشاب دا يا سيد "براون"؟ وليه متصلتش بالشرطة؟

تطلع إليه الرجل، وقد تضاعف الحزن والألم في عينيه مرات ومرات، وراح يفك رباط عنقه، وهو ينفث دخان سيجاره في قوة، ولم يرد.

فهتف "فريد":

- آسف يا سيد "براون" لو سألت على حاجة متخصصينش، بس بجد كنت عاوز أطمئن عليك.

تطلع إليه السيد "براون" طويلاً هذه المرة، ثم هتف بصوت يقطر أسى ومرارة:

- "فريد".. دلوقت جه الوقت الي لازم تعرف فيه كل حاجة، وأنا هحكيلك يا ابني.

ومرة أخرى صمت الرجل، وراح ينفث دخان سيجاره في عصبية، ثم قال:

- تعرف إن الشاب اللي اتهمج عليا دلوقت، وكان بيهددني، هو نفسه اللي حاول يقتلني بعربيته قبل ما تنقذني إنت.

كادت عينا "فريد" تقفزان من محجريهما، وهو يسمع ما يقوله الرجل، ولم يصدق ما سمعته أذناه، ووجد نفسه يرفع سماعه الهاتف، وهو يردد:
- معقول وساكِت، لازم نببلغ الشرطة دلوقت.
أخذ منه الرجلُ سماعه الهاتف، ووضعها مكانها، وهو يقول في مرارة مضاعفة:

- لا يا "فريد" مش هنبلغ الشرطة.

- سيد "براون" .. إنت بتقول إيه؟! كده الموضوع مبقاش تهديد بس، دا وصل للقتل ولازم ..

قاطعهُ الرجل قائلاً بصوت حمل كل حزن ومرارة الدنيا:

- الشاب دا يبقى ابني يا "فريد" .. ابني !

وهوى جسد "فريد" فوق مقعده، وقد فَعَرَ فاه في ذهول !!



(٥١)

ما أن وضع الدكتور "عز الدين" قدميه على الطريق الزراعي، وعلى الرغم من أن الوقت لم يتعدَّ السادسة صباحاً بعد، إلا أن خبر وصول رجل غريب إلى القرية انتشر، وسرى كسريان النار في الهشيم.. وطوال طريقه، والناس يحدقون به، ولم يتذكره أحد..

ظلَّ الرجل يتطلع للقرية، ومبانيها ومزارعها التي طغت عليها المباني، وراح يهتف في أعماقه:

- خمسة وعشرين سنة غربت يا "عز الدين"، اتغيرت فيهم البلد كثير، ومات أخوك الحاج "محمود"، ولولا جواب "فريد" مكتتش عرفت حاجة.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً، حين وقعت عيناه من بعيد على فيلا الرشيدي:

- ياااااه.. الفيلا زي ما هيا، بلونها الابيض اللي يميزها عن كل المباني اللي حوالها.

- " مين حضرتك "

فاق الدكتور "عز الدين" من شروده على صوت "عوض"، فسأله وهو يتفرّس في ملامحه:

- إنت اللي مين؟

- أنا "عوض" ..

وقبل أن يكمل عبارته، ظهرت "أم الخير" من وراءه، وظلت تحدّق في الدكتور "عز الدين" غير مصدقة، ثم ضربت بيدها على صدرها - كعادة أهل الريف - قائلة:

- ياااه.. الدكتور "عز" .. معقول !!

عانقته المرأة العجوز، وقبلته قائلة، والدموع في عينيها:

- معقول يا دكتور.. خمسة وعشرين سنة !

- عاملة إيه يا "أم الخير"؟

- الحمد لله يا دكتور، نحمده على كل حال.

ثم هتفت بـ "عوض" قائلة:

- خُذ يا "عوض" الشنطة م الدكتور "عز الدين"، دا أخو الحاج "محمود".

- تطلع الدكتور إلى الفيلا، واتجه إليها بتلقائية، وهو يقول:
- والله وحشتيني يا "أم الخير"؟.. أخبارك وأخبار حمزة وفريد وأمه و..
- وقبل أن يعبر بوابة الفيلا بقدميه، هتفت المرأة العجوز، والدموع في عينيها:
- بلاش الفيلا يا دكتور، هنروح على شقتك القديمة.
- تسمرت أقدامه، وهو يردد ذاهلا:
- شقتي القديمة!! والفيلا يا "أم الخير"؟!
- وضعت المرأة عينيها بالأرض، وهى تقول:
- الأول تستريح في شقتك، وبعدين أحكيلك كل حاجة يا دكتور. ثم هتفت بـ "عوض"، قائلة في مرارة:
- خذ شنطة الدكتور ع الشقة القديمة يا "عوض".
- أخذ الدكتور "عز الدين" يتطلع إليها، ثم يتطلع إلى الفيلا، وقد ماتت الفرحة في قلبه، وهو يستدير بجسده ليتبع "عوض" و"أم الخير" في اتجاه شقته القديمة، وفي أعماقه يتردد سؤال:
- يا ترى إيه اللي حصل فيكي يا بلد؟!



(٥٢)

في ذلك الكازينو الشهير جلس السيد "براون" وبصحبته "فريد"، وضع أمامهما النادل كوين من العصير المثلج، تناول منه الرجل رشفة، ثم قال لفريد:

- في بداية حياتي بعد ما تخرجت م الجامعة اتجوزت فتاة إنجليزية، كانت من أسرة غنية، بتحبني ووقفت جنبي، وساعدتني لحد ما اشتريت مصنع صغير، وربنا رزقنا بطفل جميل الي هو "بيتر"، والمصنع الصغير عمل شركة كبيرة ليها اسم رنان في ألمانيا، بس الفرحة مكملتش، وحصلت كارثة قلبت حياتي، "بيتر" كان عنده ست سنين، وركب عربية أمه الي كانت بتعلمه السواقه، وداس عليها بالعربية، وهو بيتعلم، وماتت على إيد ابنها، هنا القانون اعتبره خطأ غير مقصود عشان سنه، وأنا كمان حاولت أنسى الحادثة، وعشت عشان شغلي وابني الوحيد، والشركة بقت شركات، وحققت نجاح كبير جوا ألمانيا وبره، وحاولت أعمل من "بيتر" راجل أعمال ناجح، بس للأسف مكنش له هم غير السهر والعريضة و الإدمان... أيوه يا "فريد"،

ابني مدمن، وحاولت أعالجه كثير بس مفيش فايده، كان يهرب م المصححة، ويعتدي ع الأطباء، في الفترة دي قابلت الفتاة المصرية الي حكيتلك عنها، واتجوزتها، وساعتها جاني "بيتر"، ووعدني أنه هيستقيم ويبطل إدمان، وفعلا بدأ يحضر في الشركة بانتظام، ويتابع الشغل، واتغير حاله، وقررت أسافر مصر، وأسببه يدير الشركات، ولما رجعت لقيت شركاتي مهددة بالإفلاس، و"بيتر" بقى أسوأ م الأول، ورجع تاني للسهر والإدمان، فطردته، وتعبت كثير لحد ما وقفت الشركات على رجلها مرة تانيه، وبعدين جاني "بيتر" عاوز فلوس، ولما رفضت حاول يسرقني، وهددته إني هتبرع بكل أموالي للجمعيات الخيرية، فحاول يقتلني بالعريية زي ما أنت شوفت.

صمت السيد "براون" لحظات، حاول فيها جاهداً أن يمنع دمعة ترقرت في عينيه، ولكنه فشل فسالت على خده، وهو يكمل في مرارة:

- إِنْتَ عارف ليه يا "فريد" أنا مبلغتش الشرطة عن "بيتر" لحد دلوقت؟ مش عشان هو ابني وأنا خايف عليه والكلام دا لأ، الي منعني أبلغ عنه هو خوفي على اسمي وسمعة شركاتي.

ردد "فريد" بذهول:

- اسمك وسمعة شركاتك بس؟ !

شَبَّكُ السيد "براون" أصابع كفيه، وأسند عليها ذقنه، وقال بلا تردد:

- متستغريش يا "فريد"؛ لما الحب بيموت كل شيء بيهون.

تطلع إليه "فريد" طويلا في شروء، وعبارة الرجل تتردد في ذهنه، وتدوي في أعماقه:

"لما الحب ييموت كل شيء ييهون".

وهنا.. وفي تلك اللحظة، غاص "فريد" بفكره، في مكان غير المكان، وزمان غير الزمان.. في قريته..

وشريط الأحداث يمر أمام عينيه، موت والده، انتحار مديحة، مقاطعة مختار، موت أمه، طرده من البلد..

وفي تلك اللحظة.. ودون أن يدري، وجد نفسه يهتف بصوت عالٍ يقطر ألما ومرارة:

- عندك حق يا سيد "براون".. لما الحب ييموت كل شيء ييهون.
وانطلقت من حلقه تنهيدة حارة.



(٥٣)

سحابة هائلة من الحزن سيطرت على الدكتور "عز الدين الرشيدي"، حين علم من أم الخير بكل ما حدث في القرية، كان يتوقع حدوث أي شيء في القرية إلا تفكك أسرة الحاج "محمود"، بل والأدهى أن يتحول "حمزة" إلى ذئب بشري يمتص دماء أقرب الناس إليه، أخذ يتسائل في أعماقه، وهو يسير بين المزارع في عباءته البيضاء:

- معقول يكون اللي بسمعه عن "حمزة" دا صحيح؟ حمزة اللي شلته على كتفي وهو صغير، وكنت بعامله زي ما يكون أخويا الصغير! معقول يكون وصل للوحشية دي؟ بس "فريد" أكيد غلطان، مكش لازم يهرب ويسيب حقه، أيوه كان لازم يواجه حمزة، ويوقفه عند حده ..

- أكيد الدكتور "عز الدين"؟ أنا سمعت من "فريد" عن حضرتك كثير. التفت الدكتور "عز الدين" لمصدر الصوت، والذي لم يكن سوى "مختار" وحاول الدكتور أن يتذكر ملامحه، ولما عجز سأل:

- أيوه يا ابني أنا الدكتور "عز الدين"، بس إنت مين؟

- أنا "مختار أبو السعد" صاحب "فريد" يا دكتور.

تطلع إليه الدكتور، وقال في سعادة:

- ابن عم "أبو السعد"؟!

- أيوه يا دكتور.. ابن أبو "السعد الجنائني".

أخذه الدكتور بين أحضانه، وقال في سعادة حقيقية:

- أهلا يا "مختار" أهلا يا ابني.. أخبار أبوك إيه؟

امتألت عينا "مختار" حزنا، وهو يقول:

- أنا الحمد لله التخرجت مع "فريد" من كلية الزراعة، واستلمت وظيفتي

بالقاهرة.

وصمت قليلا، ثم استطرد في مرارة:

- وبالنسبة لأبويا فحضرتك هتشوف بنفسك.

وسارا جنبا إلى جنب حتى وصلا للمقابر، وتطلع الدكتور عز الدين إلى

جسد "أبو السعد" - أو بقاياها - القابعة بجوار مقبرة "مديحة" بلا حراك، وكأنه فقد الحياة..

نعم... لقد شاخ "أبو السعد"، وكَبُرَ، ونَحُلَ جسمه، وتداخلت عظامه في

بعضها، وقد ترك لحيته، وشعره بشكل يدعو للرناء، وعلى لسانه كانت هناك

كلمة واحدة تتردد، ولا يمل من تكرارها، اسم ابنته "مديحة".

هتف "مختار" بكل ألم الدنيا:

- شوفت أبويا يا دكتور؟ هو دا حاله اللي بتسأل عليه؟

هتف الدكتور "عز الدين" بعينين ذاهلتين، وبصوت متحشرج:
- إيه اللي بيحصل ف البلد يا "مختار"؟ ومين "مديحة" اللي أبوك بيردد اسمها؟

ألقى "مختار" نظرة أخيرة على جسد أبيه، ثم أخذ الدكتور من ذراعه، وسار معه وسط المزارع، وحكى له كل شيء، هتف الدكتور بذهول، وعيناه تكاد تقفزان من محجريهما:

- معقول "حمزة" يعمل كل دا؟ معقول يكون السبب في موت أبوه وانتحار "مديحة" وطرده "فريد" وموت أمه ! لا.. لا مش ممكن.
ابتسم "مختار" في مرارة، وقال:

- للأسف هي دي الحقيقة يا دكتور.
أحسّ الدكتور "عز الدين" بكم الحزن والمرارة اللذين يفوحان من صوت "مختار"، فقبض على كتفيه، وقال صارخا:
- بس دي لا يمكن تكون النهاية يا "مختار"، لازم "حمزة" يرجع لعقله، لازم.

ولمع في عينيه بريقُ الغضب.



(٥٤)

داخل مكتبه الرئيسي الذي يدير منه مجموعة الشركات كان "فريد" يراجع بعض الأوراق وفجأة..

وجد الباب يُفتح، ويندفع منه "بيتر" كالعاصفة ينظر إلى فريد، قائلاً في غطرسة:

- إنتَ "فريد" ؟ !

ردّ "فريد" بهدوء قائلاً بألمانية سليمة وقد أصبح يجيدها، وهو يقف خلف مكتبه:

- أيووه يا سيد "بيتر" .. أنا فريد.

ألقي الشاب جسده على أريكة مواجهة للمكتب في استهتار، ووضع ساقاً على ساق، وأشعل سيجاره نفثه في وقاحة تجاه "فريد"، وهو يقول بغطرسة:

- عاوز مفتاح الخزنة.

رد "فريد" قائلاً بهدوء:

- مفتاح الخزنة مع السيد "براون".

هتف "بيتر" بعصبية:

- الوالد مش موجود، وأنا محتاج فلوس دلوقت.

مدّ "فريد" يده داخل جيبه، وأخرج حافظة نقوده الخاصة، وهو يقول:

- عاوز كام يا سيد "بيتر"؟

صرخ الشاب في وجهه، قائلاً بغضب:

- هتعمل إيه يا حيوان؟ إنت مش عارف أنا مين؟ !

وضع "فريد" حافظة نقوده في جيبه، وجلس خلف مكتبه في هدوء، ثم قال:

- لا.. عارف يا سيد "بيتر"، عارف إنك ابن صاحب الشركة، بس مقدرش

أديك المفتاح؛ لأنه أمانة، والي أقدر عليه إني أديك الي إنت عاوزه من مالي الخاص.

قاطعه الشاب صارخا، وهو يرفع يده؛ ليهوي بها علي وجه "فريد" قائلاً:

- إزاي تجربو يا..

قبض "فريد" على يده بقوة، قبل أن تهوي على وجهه، وتلاقت نظراتهما في

تحدٍ واضح، وحاول بيتر مرارا أن يخلص يده من قبضة "فريد"، ولكنه فشل

في نفس اللحظة التي دخل فيها السيد "براون" صارخا في وجه ابنه:

- بيتر !

تطلع الشاب لوالده في نفس اللحظة التي أفلت فيها "فريد" يده..

وألقي على "فريد" وأبيه نظرة ساخطة، ثم انطلق يغادر المكان كما دخل..

كالعاصفة !



(٥٥)

- "مش عاوزك تغضب من بيتري يا فريد".

نطق السيد "براون" بتلك العبارة، وهما يجلسان معا في ذلك الكازينو الهادئ في تلك الضاحية من ضواحي برلين.. ابتسم "فريد"، وهو يشعل سيجاره، وينفث دخانه في هدوء قائلاً:

- لأ يا سيد "براون".. أنا مش ممكن أغضب من "بيتري"، كفاية إنه ابن حضرتك، وبعدين أنا عارف إنه شاب متهور ومندفع، ومحتاج اللي ينصحه مش يزعل منه.

تطلع إليه الرجل طويلاً، ثم قال:

- كان نفسي يكون لي ابن زيّك يا "فريد".

تراجع فريد بظهره للخلف، وقال في تأثر:

- إنتَ بالفعل أبويا يا سيد "براون"؛ اللي عملته معايا ميعملوش غير أب مع ابنه.

في تلك اللحظة جاء النادل، ووضع أمام "فريد" قهوته، في حين وضع كوب العصير أمام السيد "براون"، ثم استدار عائداً، وإذا بفريد يهتف به:

- لحظة لو سمحت.

استدار إليه النادل، وقال في أدب جم:

- تحت أمرك يا أفندم.

تفرّس "فريد" في ملامحه، ثم ابتسم هاتفا بالعربية:

- منير؟

- تعرفني حضرتك؟ !

هتف "فريد" قائلاً في حسم، وقد زال ترددده:

- منير عبد العزيز.

هتف "منير" غير مصدق:

- فريد الرشيدى.

نهض "فريد"، وتعانق مع "منير" في شوقٍ، وهو يقول:

- وأخيراً اتقابلنا مرة ثانية، اقعد يا "منير" اتفضل.

- بس دا مكان عمل يا "فريد" ومقدرش ..

جذبه "فريد" من ذراعاه، وأجلسه هاتفاً، وهو يضحك:

- متخافش يا "منير"، إنت متعرفش أنا إيه دلوقت.

ضحك "منير"، وهو ينظر للسيجار الفخم بين شفتيه، وملابسه الفاخرة وقال:

- لأ واضح جدا.

ابتسم "فريد" في هدوء، وقال، وهو يشير للسيد "براون":

- السيد "براون" صاحب الشركات الي أنا بديرها.

صافحه "منير" قائلا:

- تشرفنا كثيرا يا أفندم.

اتسعت ابتسامة "فريد"، وهو يقول للسيد براون:

- منير عبد العزيز.. شاب مصري، قابلته في الطائرة، وكان هيعمل فيها

انقلاب لما عرف إني مصدع ومحتاج مسكن.

ابتسم السيد "براون"، وقال لمنير بلغته العربية المكسرة:

- أهلا يا "منير". ثم التف لفريد، وقال له:

- عاوزك تشوف لمنير وظيفة مناسبة في الشركة و..

وقبل أن يكمل الرجل كلامه نهض منير من مقعده، وهو يردد:

- أنا مش عارف إزاي أشكر حضرتك يا أفندم.

وخلع رباط العنق الخاص بالمحل، وأطاح به بعيدا و.. غرق الثلاثة في

الضحك.



(٥٦)

حين عاد "فريد" إلى شقته فوجئ بخطاب أسفل الباب، وارتجفت
مفاصله حين وقعت عيناه على طابع البريد الذي يحمله الخطاب؛ فقد كان
من مصر..

وتذكر في تلك اللحظة أنه أرسل عنوانه لصديقه "ممدوح"، مع المبلغ
الذي اقترضه من والده قبل سفره عقب تعرفه علي السيد "براون"، فراح
يفتح الخطاب في سعادة، وهو يهتف بأعماقه:

- والله فيك الخير يا "ممدوح" ..

ولكن مع أول حرف التقطته عيناه عرف أن ممدوح ليس الراسل، لقد
كانت "وفاء" ..

انطلقت من حلقة تنهيدة حارة، وشرع في قراءة الخطاب:

(فريد... لقد أخذت عنوانك من ممدوح؛ كنتُ أود الاطمئنان عليك،
أنا لا أعلم ماذا حدث لك بمصر، ولكنني علي يقين أن ما حدث أمر خطير،
نعم أمر خطير لم تتحمله مشاعرك الرقيقة المزهفة، ولكنني أقولها لك ثانية،

إنها بلادنا مهما قست علينا، ومهما عانينا فيها، وكن على يقين أن بلدك في انتظارك دوما... وفيها أيضا من سيظل بانتظارك إلى الأبد. (وفاء).

ألقى "فريد" الخطاب بعيدا، وقد تقلصت عضلات وجهه، وراحت أنفاسه تتلاحق في سرعة، وألقى بجسده فوق أول مقعد في إجهاد واضح، وراح يفك رباط عنقه، وهو يردد:

- ليه يا "وفاء" .. ليه؟!

لقد أعادت إليه الماضي بكل جراحه وآلامه و.. بكل قسوة.



(٥٧)

عاصفة من الضجيج والضوضاء صاحبت وصول موكب "حمزة الرشيدى" إلى القرية بعد غياب ثلاثة أيام كاملة، كان "حمزة" يجلس في المقعد الخلفى لسيارة سوداء فاخرة، وقد اضطر جمع إلى الوراء وبين شفثيه سىجار فاخر، وفي الأمام كانت توجد سيارة حراسة وفي الخلف سيارة مثلها، كان الأهالى بالقرية قد تعودوا على مثل هذا الموكب الحافل منذ أصبح "حمزة" عضواً فى مجلس الشعب..

ذلك الموكب الشبيه بموكب الوزراء.. فى تلك اللحظة كان الدكتور "عز الدين" يسأل "مختار"، غير مصدق ما تراه عيناه:

- إنت متأكد يا "مختار" إن اللى قاعد فى الكرسي اللى ورا، وبيشرب السىجار هو "حمزة"؟

ابتسم مختار فى مرارة، وقال:

- أيوه يا دكتور.. هو "حمزة"، حمزة بك الرشيدى عضو مجلس الشعب.

وفى ذات اللحظة كان عم "نوح" يهتف عبارته الشهيرة:

- دوار يا زمن.

أما "دياب" فكان يجري بطريقته المعروفة، وجلبابه بين أسنانه، وهو يردد
أمام الموكب:

- العصفور بقي نسر، والنعامه بقت غول، والعسل طلع مسموم، وأهي
لعبة كل يوم وآه.. يا بلد !!!

ثارت عاصفة من الغبار أمام فيلا الرشيدي، حين توقف موكب "حمزة"،
وقد أسرع السائق يفتح له الباب الخلفي، فترجل عن سيارته، وهو يلوك
سيجاره بين شفتيه، وراح يتطلع للقرية وأهلها في تكبر وخيلاء، وكأنه
يراهم للمرة الأولى، وهو يشق طريقه نحو مدخل الفيلا..

في نفس اللحظة كان مختار يتطلع للدكتور "عز الدين" الذي يتابع موكب
حمزة في ذهول، ثم سأله:

- حضرتك رجعت ليه يا دكتور؟

عدل الدكتور "عز الدين" نظارته، وقال ذاهلا:

- بتقول إيه يا "مختار"؟!

- بقولك ليه رجعت يا دكتور؟

- دي بلدي يا "مختار".. بلدي.

- بلدي.. أهلي.. وطني.. مش دا اللي عاوز تقوله؟

- أيوه يا "مختار"، هو دا بالظبط.

ارتفعت ضحكات "مختار" فجأة حتى كاد يقع أرضاً، وهو يردد بسخرية
لاذعة، مقلدا صوت الدكتور عز الدين:

- أيوه يا "مختار"، هو دا بالظبط.

خلع الدكتور نظارته، وقال في عصبية:

- إنت بتسخر مني يا "مختار"؟! !

ترقرقت الدموع بعيني "مختار"، وراح يردد في ألم:

- آسف يا دكتور.. مش قصدي، بس واضح إنه رغم علمك وشهادتك
إنك مش شايف الدنيا صح، وفاكرها وردة بيضا، ولسه فيها مكان للقيم
والمبادئ..

وصمت "مختار" فجأة، وأدار ظهره للدكتور "عز الدين"؛ حتى لا يرى
دمعته التي هزمت، وسالت على خده فمسحها بسرعة، وهو يلتقط فرعا جافا
من الشجر راح يحطمه في عنف مستطردا:

- لا يا دكتور.. لازم تخلع النظارة اللي على عينيك، وتبص للدنيا كويس،
وساعتها مش هتشوف غير الغدر، والجحود، والأنانية، والنكران..

قاطعته الدكتور "عز الدين" في ألم، وهو يردد، وقد وقعت عباته أرضاً:
- كفاية يا "مختار".. كفاية أرجوك، أنا عارف إن الي إنت شوفته مش
شوية، بس دا مش معناه إننا نستسلم بالشكل دا، الشر مش ممكن يتنصر يا
"مختار"، سامع؟

قال الدكتور "عز الدين" ذلك، وراح يلتقط عباءته من الأرض، وهو يغادر المكان في سرعة، وكأن شياطين جهنم تطارده.. في حين كان "مختار" يتابعه بعينيه الدامعتين، وهتف بأعماقه بكل ألم الدنيا صارخا:

- ياريتك ما رجعت يا دكتور .. ياريتك ما رجعت .

وَحَيَّلَ إِلَيْهِ بِأَنَّ الْقَرْيَةَ كُلَّهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا، وَمَنْ فِيهَا، مِنْ بَشَرٍ، وَأَشْجَارٍ، وَطُيُورٍ تَرْدُدُ صَرْخَتَهُ..

صرخة طائر ذبيح !!



حزن عميق انحفّر على ملامح "فريد"، وهو يقود سيارته إلى مقر الشركة في ذلك الصباح بسبب الحالة الصحية للسيد "براون" التي تدهورت خلال الشهر الأخير، وطوال ذلك الشهر و"فريد" لم يذق طعما للنوم، كان يذهب صباحا للشركة ليطمئن على سير العمل، ثم يذهب للمستشفى، ويبقى مع السيد "براون" حتى ينام.. كان بداخله خوف مبهم من أن يفقد السيد "براون" ..

لقد أحب ذلك الرجل ..

وهو تعود أن يفقد كل من يحب ..

لقد فقد والده وأمه ومحبوبته وصديقه؛ لأنه كان يحبهم ..

واليوم يخشى أن يفقد السيد "براون" هو الآخر ..

وما أن دخل مقر الشركة، حتى فوجئ بمنير يقول له:

- المستشفى اتصلت حالا، والسيد "براون" عاوز يشوفك ضروري.

لم يدر "فريد" كيف وصل للمستشفى بهذه السرعة، والهلع يسيطر عليه ..

ولكن الاطمئنان عاد لقلبه حين وقعت عيناه على الرجل الذي كان جالساً فوق فراشه، وقد تحسّنت صحته بعض الشيء، فتنفس الصعداء، وهو يردد:
- الحمد لله.

تطلع إليه السيد "براون" طويلاً، وفي عينيه شبح ابتسامة صافية، ثم قال له:
- آسف يا "فريد" .. مكنش قصدي أزعجك بالشكل دا.
اقترب منه "فريد"، وأخذ كفيه بين راحتيه، وقال في حنان:
- ولا يهملك، المهم إنك بخير.

في تلك اللحظة انتابت الرجل نوبة من السعال المفاجئ، قال بعدها:
- لا يا "فريد" .. أنا حاسس إن دي النهاية خلاص.
هتف "فريد" بتأثر شديد، وهو يضغط برفق على كفي الرجل المستكينه بين راحتيه:

- أرجوك يا سيد "براون"، متقولش الكلام دا، إنت هتخف صدقني.
سحب الرجل كفيه برفق، وقال:
- الأعمار بيد الله يا ولدي

ثم مدّ الرجل يده تحت وسادته، وتناول منها ورقة، ناوها لفريد قائلاً:
- خد يا "فريد" إمضي الورقة دي.

قرأ "فريد" الورقة، وارتفع حاجباه في دهشة، وهو يصرخ بذهول:
- إيه دا يا سيد "براون"؟! كل أملاكك باسمي أنا؟ ليه؟

- عشان لقيت عندك الي ملقتوش عند ابني.

- بس دا مش معناه إن حد تاني ياخذ حقه.

اعتدل الرجل في فراشه، وقال بآلم:

- اسمعني كويس يا "فريد".. أنا فكرتُ كثير قبل ما آخذ القرار دا، وقارنت بينك وبين ابني، وكانت المقارنة كلها في صالحك، معاك هت حافظ ع الشركات، واسمها هيكبر.

وصمت الرجل طويلا هذه المرة، ثم استطرد قائلا:

- وكمان فيه حاجة تانية، أنا حسيت معاك شعور عمري ما حسيته مع ابني، شعور الأبوة يا "فريد"، أيوه.. أنا حاسس إنك ابني يا "فريد".

ترقرقت الدموع في عيني "فريد"، وهو يصرخ بصوت مكتوم:

- أيوه يا سيد "براون"، بس دا مش معناه إنك تكتبلي أملاكك، وابنك عايش على وش الدنيا.

توجع السيد "براون"، وهتف في ألم:

- صدقني يا "فريد" أنا بكده بحمي أموال م الضياع على موائد القمار وبنات الليل.

نهض "فريد" فجأة قائلا، والدموع في عينيه:

- أنا آسف يا سيد "براون".. سامحني مش هقدر أنفذ طلبك؛ عشان مفيش دين على وجه الأرض يمنع ابنك من حقه في الميراث.

وتركه "فريد" مغادراً حجرته و.. بلا عودة.

(٥٩)

طرقا قووة على باب شقة الدكتور "عز الدين"، وهو بداخل شرفته
يتطلع لظلام الليل الذي لفّ القرية في وحشة، فنهض سريعا ليرى من يطرق
الباب بتلك الطريقة، وكانت المفاجأة..

كان "حمزة" .. وقد استند بذراعيه على الباب، مرتديا بذلته الكاملة،
وعليها عباءته السوداء، وفي فمه كان السيجار يتلوك كعادته، لم يصدق
الدكتور "عز الدين" أن الواقف أمامه هو "حمزة"، وعلي الرغم من كل ما
سمعه عن "حمزة" إلا أنه فَرَدَ ذراعيه؛ لتطويقه بين أحضانها، وكأنه نسي أو
تناسى كل ما قيل عنه، وهو يهتف في ترحيب:

- حمزة!.. ابن أخويا يا أهلا.

تطلع "حمزة" لذراعيه المفرودين بلا مبالاة، وهو يدخل الشقة، ويجلس
على الأريكة قائلا في وقاحة، وقد وضع ساقا فوق ساق:

- إنت رجعت ليه يا دكتور؟

بكل ألم الدنيا أعاد الدكتور ذراعيه بجواره، وفي عينيه تكونت نظرة ألم هائلة، وهو يتطلع لملامح "حمزة" .. لقد تأكد الآن من كل ما رآه، وما سمعه، نعم.. نعم الآن لا مجال للشك، صرخ بأعماقه في حزن:

- هو ذا اللي قتل أبوه ومديحة والي اتسبب في طرد فريد وموت أمه.
في نفس اللحظة التي كان "حمزة" يهتف فيها قائلاً، وهو ينفث دخان سيجاره في وقاحة:

- قولي يا دكتور.. إنت رجعت ليه؟
جلس الدكتور "عز الدين" على الأريكة المقابلة، وعدل نظارته، وقال ساخراً:

- دكتور! زي ما يكون مفيش صلة رحم بينا، ولا إني عمك أخو أبوك؟!
لوح "حمزة" بسيجاره، وقال ببرود:
- سيبك م الكلام دا يا دكتور، وخليك عملي شوية، وقولي.. ليه رجعت؟
- زي ما أنت عاوز يا "حمزة" بيه، أنا رجعت عشان بلدي وأهلي و..
حقني.

ومع الكلمة الأخيرة انتفض جسد "حمزة"، وقال صارخاً:
- حقت؟ ! حق إيه دا؟
- حقني في ميراث جدك الحاج "عبد العليم الرشيد"، حقني في الأرض
و الفيلا و..

عدل "حمزة" عباءته فوق كتفه، وهو يقول في تهكم:

- اسمع يا دكتور.. أنا هقولك كلمة واحدة اختصارا للوقت، ارجع يا دكتور، ارجع مكان ما جيت؛ عشان ملكش عندي حقوق.

ثم مَدَّ يده داخل جيبه، ولَوَّح بورقة في وجهه، وهو يستطرد:

- عارف ليه يا دكتور ملكش حق؟ عشان الورقة دي.

وما أن وقعت عينا الدكتور "عز الدين" على المکتوب بالورقة، حتى كاد قلبه يتوقف عن النبض، وشحب وجهه حتى حاكي وجوه الموتى..

رنت ضحكات "حمزة" الساخرة في جَنَابَات الشقة، ومزقت سكون الليل، وهو يقول:

- فاكِر الورقة دي يا دكتور؟ دا تنازل منك، وبخط إيدك عن حقك لأخوك "محمود الرشيدى" مقابل مصاريف تعليمك اللي هو قام بيها.

وفَعَرَ الدكتور "عز الدين" فاه، وهو ينظر لحمزة ذاهلا، وقد راح يغوص بذاكرته لمكان غير المكان، وزمان غير الزمان، إلى أكثر من ثلاثة عقود مضت..

إلى تلك اللحظة التي دخل فيها على أخيه الحاج "محمود"، وناولته تلك الورقة..

نفس الورقة التي بيد "حمزة" الآن.. يومها تطلع إليه الحاج "محمود" ذاهلا، وقال:

- إيه دا يا "عز"؟

- دا تنازل مني ليك يا "محمود" عن حقّي في الميراث؛ عشان مصاريف تعليمي بره هتتكلف كثير.

- إنت اتجننت يا "عز"؟ أنا أخوك الكبير ومسئول عنك، وأوعى أسمعك بتقول الكلام دا تاني.

قال الحاج "محمود" ذلك، وأعطاه ظهره في غضب..

تطلع الشاب "عز الدين" لأخيه الحاج "محمود"، والدموع في عينيه، ثم وضع الورقة على سطح المكتب لعله يغير رأيه، وتركه خارجا..

والذي لا يعلمه الدكتور "عز" أن الله قد شاء ألا يرى الحاج "محمود" الورقة، وخرج هو الآخر..

ولكن باب الغرفة يفتح مرة أخرى، ويدخل صبي صغير لم يتعدّ بعد عامه التاسع، ويأخذ الورقة، لقد كان "حمزة"!

"حمزة" الذي سمع كل ما دار بينهما، وهو يتلصص عليهما من خلف الباب..

فاق الدكتور "عز الدين" من شروده على صوت "حمزة"، وهو يقول ملوحا بالورقة في وجهه:

- اتكلم يا دكتور.. خطك دا ولا لأ؟

عدل الدكتور "عز" نظارته، وقال في عصبية:

- أيوه خطّي، بس أنا بعت لأبوك كل المبالغ الي صرفها عليا، بعد ما رفض موضوع التنازل، وكمان بعتلي زعلان مني إني عملت كده، وقلّي إنه

هيحط الفلوس الي بعتهاله باسمي في البنك، وكمآن حقي في الميراث زي ما هو، دا كلام أبوك يا "حمزة".

قاطعه "حمزة" قائلاً بسخرية، وهو يصفق بيديه:

- حدوتة جميلة يا دكتور، دا أنا قرّبت أصدقها.

هَبّ الدكتور "عز الدين" صارخاً بذهول:

- إنت قليل الأدب يا "حمزة"، ومحتاج الي ..

غضب رهيب وبريق جنوني عجيب أطلّ من عيني "حمزة"...

غضب جمّد الدماء في عروق الدكتور "عز الدين"، وجعل حلقه يبتلع

باقي كلماته مع صوت عميق كفحيح الأفعى انطلق من بين شفثيه قائلاً، وأصابعه تقبض على ملابس الدكتور:

- ارجع يا دكتور، ارجع مطرح ما جيت وإلا..

ولم يكمل "حمزة" عبارته، بل دفع الدكتور "عز الدين"، ورماه في قسوة

على الأرض، وانطلق مغادراً المكان!

في حين كان الدكتور "عز الدين" يتابعه بعينين ذاهلتين، غير مصدق

اللحظات التي عاشها منذ قليل..

نعم.. فما حدث كان من الصعب عليه أن يتخيله قط.. حتى في أبشع

الكوابيس!



(٦٠)

منذ اللقاء السابق بين فريد والسيد براون في حجرة المستشفى، ولا أحد يعلم مكان "فريد"، وانقطع عن كل مكان يعرفه السيد "براون"، ترك عمله بالشركة، وترك شقيقته، حتى سيارته تركها أمام المستشفى، وعلي الرغم من الحالة الصحية للسيد "براون" والتي ساءت كثيرا، إلا أنه أصر علي أن يشارك "منير" في البحث عنه، وعن طريق اتصالاته تمكّن من معرفة مكانه في أحد المطاعم الصغيرة بإحدى ضواحي برلين، وكاد قلب الرجل يتوقف عن النبض، وهو يتطلع لفريد بملابسه المتسخة الذي كان يقوم بتنظيف الأطباق، وبصوت ضعيف هتف الرجل، وكأنه يجاهد ليخرج صوته:

- فريد !!

التفت "فريد" بذهول إلي السيد "براون" هاتفا:

- سيد براون؟ ! إيه اللي ..

قاطعہ الرجل فی ألم:

- متقولش حاجة یا "فريد"، وغیر هدومك بسرعة.

التقط "فريد" طبقا آخر، وشرع فی تنظيفه، وهو يقول:

- أغیر هدومي إزاي؟ لسه شغلي..

- شغلك؟! شغل إيه دا؟

لمع فی عيني "فريد" بريق الدموع، وهو يقول:

- شغلي الي بحبه، وبحس فيه إني إنسان یا سيد "براون".

- وشغلك معايا مکتتش حاسس فيه إنك إنسان؟!!

- أيوه یا سيدي.. لما تجبرني على..

قاطعہ الرجل قائلًا بكل ألم الدنيا، وهو يخرج من جيبه إحدي الجرائد

الألمانية، ويناولها لفريد:

- شوف الخبر دا یا "فريد".

تطلع "فريد" للجريدة، وتراجع كالمصعوق، وهو يردد:

- مش ممکن! هو دا..

جاهد الرجل لتخرج الكلمات من بين شفتيه، وقال بصعوبة مقاطعا:

- أيوه یا "فريد"، دا بيتر ابني، مات فی حادثة من يومين، وهو راجع

مخمور.

تطلع إليه "فريد" في ألم، وقال:

- سيد "براون" .. أنا مش عارف أقولك إيه؟

- متقولش حاجة يا "فريد" .. بس غير هدومك بسرعة.

هزّ "فريد" رأسه قائلاً:

- تحت أمرك يا سيد "براون".

ولم يعد هناك ما يقال !



(٦١)

وصل "مختار" إلى قريته بعد الغروب، وقد عاد من عمله بالقاهرة، لم يتخذ طريقه للمنزل بل سلك طريق المقابر، حيث يوجد والده "أبو السعد" الذي ما زال قابلاً بجوار قبر ابنته مديحة منذ وفاتها، جاهد "مختار" نفسه ليخفي دموعه التي ترقرت في عينيه، وهو يتطلع لجسد والده المسجى بجوار المقبرة، والناظر إليه يخيّل له أنه فارق الحياة، لولا ذلك الصوت الواهن الذي يخرج من بين شفثيه على فترات، وهو يردد اسم ابنته:

- مديحة.. مديحة..

جلس "مختار" أرضاً بجوار جسد والده، وراح يفك اللفة التي معه قائلاً، وهو يربت على كتف والده:

- عامل إيه يا عم "أبو السعد"، بص شوف أنا جبتلك إيه؟ دي البسبوسة اللي بتحبها، أصل أنا النهارده قبضت أول مرتب.

تطلع إليه الرجل في ضعف، وقد لاحت على شفثيه ابتسامة، سرعان ما تلاشت، وأخذ يردد مرة أخرى:

- مديحة...

لم يستطع "مختار" أن يجبس دموعه أكثر من ذلك، فسالت على خده، وهو يلف اللفة مرة أخرى، وينهض واقفا ليعود من حيث أتى.. وفي طريق عودته لمح "دياب" جالسا على شاطئ البحيرة يتطلع لمياهها بنظرات بلا معني، وهو يلقي فيها بحجر إثر حجر، جلس "مختار" بجواره، وأعطاه لفة البسبوسة ليأكل مع والده، ثم ربّت على كتفه وتركه ومضى.. وبعد خطوات فوجئ بالحاج "دسوقي" يجري، ومعه بعض أهالي القرية على الطريق الزراعي، فانطلق يجري خلفه، وهو يهتف به:

- إيه اللي حصل يا عم الحاج؟

ردّ عليه الرجل بأنفاس لاهثة، وهو يتجه صوب فيلا حمزة:

- الدكتور "عز الدين" كان قاعد معاناع القهوة في أمان الله، بيحكي عن "حمزة"، واللي عمله معاه، ومرة واحدة لقيناه بيصرخ، وقام يجري ناحية الفيلا.

في تلك اللحظة كان الدكتور "عز الدين" يصرخ في جنون أمام الفيلا:

- اخرج يا "حمزة".. اخرج وريني نفسك.

في تلك اللحظة خرج "حمزة"، وهو في أبهى زينته بين رجاله، والسيجار يتراقص بين شفتيه، وقال في برود، في نفس اللحظة التي وصل فيها مختار والحاج دسوقي وبعض من أهل القرية، وأحاطوا بالدكتور "عز الدين":

- أيوه يا دكتور، عاوز إيه؟ اتفضل.

هجم عليه الدكتور فجأة، وجذبه من ملابسه في قوة، وهو يصرخ في وجهه:
- عاوز أشوفك وأمليّ عينيا منك يا "حمزة"، عاوز اتأكد إنك ابن محمود
الرشيدي.

أشار "حمزة" لرجاله بألا يقتربوا منه، وراح يخلص نفسه في هدوء،
والدكتور يصرخ في هستيريا:

- مش ممكن تكون ابن محمود الرشيدي، إنت حيوان يا "حمزة"، حيوان..
قاطعه "حمزة" في برود قائلاً، وهو يعدل عباءته:

- الله يسامحك يا دكتور.. إنت عمي برضه، وفي مقام أبويا الحاج محمود
الرشيدي و..

قاطعه الدكتور صارخا، وهو يخلص ذراعه من يد "مختار" الذي يحاول
إبعاده:

- لأ يا "حمزة" لأ، الحاج "محمود" برئ منك ليوم الدين، عارف ليه يا
"حمزة"؟ عشان الملاك عمره ما يخلف شيطان، سامع يا "حمزة"؟ الملاك عمره
ما يخلف شيطان..

هجم "مختار" والحاج "دسوقي" وبعض من أهالي القرية على الدكتور "عز
الدين"، الذي راحت صرخاته تتردد في أرجاء القرية، وحملوه بعيدا عن
"حمزة" الذي اشتعلت أعماقه في تلك اللحظة ببريق.. بريق جنوني عجيب!



(٦٢)

داخل حجرة النوم في شقة الدكتور "عز الدين" هتف الطبيب قائلاً، وهو يغادر الحجرة:

- انهيار عصبي حاد.. ومحتاج للراحة التامة.

هتف الشيخ "عبد الراضي" خطيب المسجد قائلاً، وهو يمرر أصابعه فوق مسبحته:

- "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".

في حين هزّ الحاج "دسوقي" رأسه في ألم، وهو يردد:

- مكنش المفروض يروح لحمزة.

فردّ عليه الحاج "عبد الوهاب":

- وكنت عاوزه يتنازل عن حقه يا "دسوقي"؟!

فقال له "متولي" في غيظ:

- ويعني هو خد حقه لما راح؟!

- أيوه صحيح، بس دا مش معناه إنه يسكت ويسيب حقه، كلنا عارفين
"حمزة" والأعيه.

رفع الشيخ "عبد الراضي" مسبحته، وقال:

- "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله
يغفر الذنوب جميعا".

ردّ الحاج "دسوقي":

- الله يفتح عليك يا مولانا.. أنا كل الي أقصده يا حاج "عبد الوهاب"
إن الدكتور كان المفروض يتصرف بحكمة أحسن من كده.

هتفَ "مختار" الذي ظل متابعا الحوار منذ البداية، في صمت:

- الدكتور عاش حياته كلها بالخارج، حياة هادية ومكانة علمية ومركز
محترم، ولما حب يرجع بلده لقي ابن الأخ بياكل حق عمه، عشان كده كانت
الصدمة جامدة عليه، وحصل الي حصل.

قاطعه الحاج "دسوقي" في حيرة:

- والحل يا "مختار"؟ ! الحل.

تطلع "مختار" إلى عيونهم جميعا وصمت قليلا، ثم قال:

- الحل إن إحنا كلنا نقنع الدكتور "عز الدين" بشيء واحد.

وصمت قليلا، ثم استطرد قائلا في حسم:

- إنه يرجع تاني مطرح ما كان.

(٦٣)

فجأة.. وجد "فريد" نفسه في صحراء قاحلة واسعة موحشة، وعلى مقربة منه والده الحاج "محمود" وأمه وحبيبته "مديحة"، كانت ملامحهم يكسوها حزن عميق دفين، ثم فجأة يظهر مسخ شيطاني له ملامح "حمزة"، وهو يضحك في جنون والشرر يتطاير من عينيه، وفي يده حبل متين خشن .. يقترب "حمزة" في برود من والده الحاج "محمود"، وضحكاته تتردد في جنبات المكان، في حين كانت أصابعه تعمل في مهارة، وتعد أنشودة الحبل على شكل حلقة تتسع لرأس إنسان..

"حمزة" يضع الحبل حول عنق والده، الذي يترك رأسه لولده في استسلام، وهو ينظر إليه في ألم وحزن عميقين.. يصرخ "فريد" بصرخة قوية لم تتعد حلقة، وهو يشعر بثقل رهيب في قدميه اللتين لا تطاوعانه في الحركة..

ضحكات "حمزة" تتصاعد في جنون، وهو يجذب أنشودة الحبل..
يتهاوى جسد الأب، وقد فارقت الروح..

ويتكرر نفس المشهد مع أمه ومع "مديحة" ..

الألم والحزن ..

الضحكات المجنونة ..

الصرخات الصامتة ..

والأقدام العاجزة ..

الأجساد تتهاوى ..

عينا "حمزة" تلمعان ببريق مخيف، وهو يتجه ببطء نحو "فريد"، والجبل
الخشن المتين يتراقص بين يديه ..

البريق الجنوني يتصاعد في عينيه، وهو يلف الجبل حول عنق "فريد"،
وبلا أدنى تردد يجذب الأنشودة وفجأة ..

يستيقظ "فريد" من نومه، وجسده يتصبب عرقا، وراحت أصابعه
تتخلل شعره الأسود في توتر وإرهاق شديدين .. يتناول سيجارا، ويشعله
في عصبية، وفجأة ينتفض جسده مع رنين هاتفه المبالغ الذي انطلق في تلك
اللحظة، تطلع لساعة الحائط في قلق، كانت تعدت الرابعة صباحا بقليل،
بكل التوتر الذي تشتعل به أعماقه رفع سماعة هاتفه، أناه عبر الهاتف صوت
الخادم العجوز للسيد "براون" وهو يقول في حزن:

- السيد "براون" عاوز يشوفك حالا يا سيد "فريد" .

لم يدرك "فريد" كيف وصل لفيلا السيد "براون"، كل ما يتذكره أنه رمى سماعة الهاتف أرضاً، وألقى بجسده داخل سيارته بملابس النوم، واقتحم حجرة الرجل، وهو يهتف قائلاً:

- سيد "براون" إيه اللي حصل؟!

التقط الرجل أنفاسه بصعوبة، وقال بضغف شديد، وعلي شفثيه شبح ابتسامة خفيفة:

- كنتُ عارف إنك مش هتتأخر.

التقط "فريد" كفي الرجل بين راحتيه، وضغط عليهما في حنان قائلاً:

- أرجوك متتعيش نفسك، الأول نتصل بالطبيب وبعدين..

قاطعته الرجل في هدوء، بدا غريباً في تلك اللحظة قائلاً:

- مفيش فائدة يا "فريد" أنا عارف، هي دي النهاية خلاص.

ضغط "فريد" على كفي الرجل بحنان أكثر، وقد راحت دموعه تسيل على خديه، وهو يتخيل بعين الخيال "حمزة" واقفا خلف السيد "براون"، ويده الحبل المعقود، وأصابه تستعد لجذب الأنشطة، وصرخ "فريد" في ألم:

- لا يا سيد "براون"، أرجوك متقولش الكلام دا.

طافت عينا الرجل بملامح "فريد"، وقد اتسعت ابتسامته الشاحبة، وقال

في وهن:

- أنا دلوقت هموت وأنا سعيد يا "فريد"، عارف ليه؟ عشان خلاص بقى

عندي الابن اللي بتمناه، أيوه يا "فريد" إنت ابني، ابني اللي مخلفتوش و..

قاطعہ "فريد" هامسا من بين دموعه:

- الأول نتصل بالطبيب..

قاطعہ الرجل بصعوبة، وكأنه ينتزع الحروف من بين براثن الموت:

- متقولش سيد "براون" دي، عاوز أسمعها منك قبل ما أموت، قولي

يا بابا.

لم يستطع "فريد" التحكم في دموعه، فانهمرت كالسيل علي خديه، وهو

يقبل كفي الرجل، ويهتف:

- إنتَ بالفعل بابا.. بابا يا سيد "براون"..

تطلع إليه الرجل، وقد غمرت السعادة وجهه، وارتسمت علي ملامحه

الشاحبة ابتسامة صافية لم تعرفها ملامحه في الأشهر الأخيرة، وفجأة تحجرت

تلك الابتسامة علي شفتي الرجل، وقد لفظ آخر أنفاسه..

وصرخ "فريد" في لوعة:

- بابا.. بابا.. وما من مجيب!



(٦٤)

توقفت أمام مقهى القرية عربية أجرة، نزلت منها فتاة لم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها، ويدها حقيبة سفر كبيرة، أخذت العيون تتطلع إليها في تساؤل، فاقتربت من الحاج "عبد الوهاب"، وسألته:

- من فضلك يا حاج .. فين مبني الجمعية الزراعية؟

ترك الحاج "دسوقي" النارجيلة جانبا، وتبرع هو بالرد ذاهلا:

- ليه يا بنتي؟

- أنا "وفاء عبد الحميد" .. الموظفة الجديدة بالجمعية الزراعية.

قبل أن يواصل الحاج "دسوقي" أسئلته الذاهلة، هتف الحاج "عبد الوهاب" قائلا في مودة:

- أهلا بيكي يا بنتي.

ثم نادى على صبي المقهى، وطلب منه أن يحمل الحقيبة، ويذهب معها حتى مبني الجمعية، شكرته "وفاء"، ومضت مع الصبي في حين كان الحاج "دسوقي" يضرب كفا بكف، وهو يقول:

- والله دي علامة من علامات الساعة .. موظفة في بلدنا !

وافقه الحاج "متولي" قائلاً:

- بنات آخر زمن !

وفجأة برز "دياب" من بين المزارع، وكأنَّ الأرض قد انشقت عنه، وهو يقول:

- الموظفة الجديدة حلوة أوي يا حاج "عبد الوهاب".

ضجَّ الجميع بالضحك، في حين ربت الحاج "دسوقي" على كتف "دياب"، وقال ضاحكاً:

- هي أجمل ولا حورية يا "دياب" ؟ !

فجأة تجهمت ملامح "دياب"، وظهر عليها الحزن، وهو يتطلع للأشجار الرابضة على شاطئ البحيرة، ثم وضع ذيل جلبابه بين أسنانه، وانطلق جارياً، وهو يردد:

- حورية.... حورية. ومن خلفه كانت ضحكات أهل القرية تشيعه.



(٦٥)

"بتقول إيه يا "مختار"؟!"

نطق الدكتور "عز الدين" بعبارته، وهو يسير بجوار "مختار" بين مزارع القرية، فردّ عليه "مختار" قائلاً في ألم:

- بقولك ارجع يا دكتور، ارجع وسافر تاني للمكان اللي عارفين قيمتك فيه و..

قاطعته الدكتور "عز الدين" في ذهول قائلاً:

- عاوزني أسافر، وأسيب أهلي وبلدي؟!

تناول "مختار" فرعاً جافاً حطمه في قوة، وهو يقول:

- بلدك مش هتشوف فيها غير الذل.

- ليه اليأس دا كله يا "مختار"؟!

- اسمعني كويس يا دكتور أرجوك، أنا بحبك وبقدرك، عشان كده

بقولك ارجع، وعشان كمان أعصابك مش هتستحمل اللي هيحصل هنا، ارجع وعيش بعيد عن "حمزة" واللي زيه.

- غلط يا "مختار" .. غلط يا ابني؛ الهروب عمره ما هيكون حل، والشر لازم نواجهه.

رد "مختار" بصوت مشبع بالألم والحسرة:

- ها تواجهه تاني يا دكتور بعد اللي حصل؟

عدل الدكتور عز الدين عباءته، وقال في هدوء، وهو يجلس على جذع شجرة ضخمة:

- لأ يا "مختار" .. اللي حصل عند الفيلا دا مكنش مواجهه، دا تصرف غبي بسبب الصدمة ليس إلا، ومش هيتكرر تاني.

- وإزاي هتواجهه يا دكتور؟

- بالقانون.

- القانون هو "حمزة الرشيدى".

- لأ يا "مختار" .. عشان تعرف تحارب عدوك لازم تنزع الخوف من جواك.

ردّ "مختار" في حيرة:

- عندك حق يا دكتور، بس إزاي، والقانون عاوز أدلة؟

ابتسم الدكتور "عز الدين" قائلاً، وهو يُرَبّت على كتفه:

- إمبراح وأنا بقلب في أوراقى القديمة، لقيت جواب بخط الحاج
"محمود" بيقول فيه إن ميراثى زى ما هو، وإن الفلوس اللى بعتها له حطها
باسمى فى البنك.

لمعت عينا "مختار"، وقال فى أمل:

- وطبعاً هيتم مطابقة الجواب اللى معاك بخط الحاج "محمود"، وتقدر
تثبت حقك فى الميراث.

اتسعت ابتسامة الدكتور "عز الدين"، وقال:

- بالظبط يا "مختار".. وبكده نكون أول حد يقف لحمزة الرشيدى،
وياخد حقه منه.

وارتفعت ضحكته أكثر وأكثر وهما يواصلان طريقتهما، وشاركه "مختار"
ضحكاته، ولكن - على الرغم منه - جاءت ضحكاته.. شاحبة!



(٦٦)

دخل "فريد" حجرة مكتبه، وقد استيقظ لتوه من النوم، على نفس الكابوس البشع الذي يطارده باستمرار..

ألقى بجسده على مقعد المكتب الضخم في إجهاد، تناول سيجارا أشعله في توتر، وراح يتساءل بأعماقه عن سر ذلك الكابوس، والغريب أن الكابوس لم يعد يقتصر على أبيه، وأمه، ومديحة فقط كما تعود في السنوات الأخيرة.. بل انضم إليهم السيد "براون" الذي مات منذ شهرٍ، وترك له كل شيء، بشرط أن يتبرع شهريا بجزء من أرباحه للجمعيات الخيرية المنتشرة بجميع أرجاء العالم..

انطلقت من حلقة تنهيدة حارة، وبكل التوتر الجاثم على أنفاسه، فتح أحد أدراج مكتبه، وتناول ملفاً قديماً، ظل للحظات يتطلع إليه في صمت وشروء، ومن بين الملف القديم تناول ثلاث صور فوتوغرافية..

صور أبيه وأمه و.. مديحة..

تطلع للصور الثلاث طويلاً هذه المرة، وفي عينيه تحجرت دمعة، وقد أبت
النزول، تناول سماعة هاتفه، وقال عبرها، وعيناه على الصور الثلاث:
- أهلاً يا "منير"، مش هنزل النهارده، عاوزك تعدي عليا بعد الشغل.
وحين وضع "فريد" السماعة كانت دمعته قد استسلمت تماماً وتراجعت
بعد أن عجزت عن عبور مقلتيه، في حين شرد بنظره بعيداً، وفي ذهنه كان
يتخذ القرار، قرار إعادة فتح الملفات.. الملفات القديمة!



(٦٧)

ألقى الليل بوشاحه الأسود على صفحة الكون، ولم يترك سوى بعض
النجوم الصغيرة، التي تفرقت في السماء في تلك الليلة من ليالي الشتاء.. في
تلك اللحظة هبت رياح خفيفة، أخذت تداعب الأشجار في حين تقوقع "أبو
السعد" على نفسه داخل جلبابه، ولا يزال قابعا بجوار مقبرة مديحة، وقد
غارت عيناه إلي الداخل، وكأن دموعها قد نضبت، وشفته ما زال يرددان في
وهن نفس الحروف الخمسة:

- مديحة..

اقترب منه "دياب" في تلك اللحظة، وفي يده صُرة الطعام التي أعطاها له
"مختار"، فردّ "دياب" الصُرة أمام أبي السعد، وهو يجلس بجواره، قائلا في
طيبة وحنان بالغين:

- عامل إيه يا عم "أبو السعد"، أنا جيت الأكل وقلت لازم آكل معاك؛
عشان إنت حبيبي.

تطلع إليه الرجل في صمت، ثم تحسس جدار المقبرة ولم يرد، مدّ
"دياب" يده، وأخرج الطعام، وراح يناوله لأبي السعد قائلاً:

- كُل يا عم "أبو السعد" .. كُل، دا أنا حبيبك "دياب".

وصمت "دياب" للحظات، راح يتطلع فيها للظلام من حوله، ثم استطرد
قائلاً:

- عارف يا عم "أبو السعد"، أنا وإنّ زي بعض، ملناش متوى غير
الأرض، والشجر، والخلا، والديابة.

تطلع "أبو السعد" للطعام في ألم، وراح يردد بوهن:

- مديحة ..

اشتدت الرياح في تلك اللحظة، وكادت تعصف بضرة الطعام لولا أن
قبض عليها "دياب" بكلتا يديه، وهو ينهض قائلاً:

- تعال معا يا عم "أبو السعد" .. تعال ندّارى في الخُصّ عندي .

تمتم الرجل بضعف شديد، وكأنه مشرف على الموت:

- مديحة ..

مدّ "دياب" يده، وجذب الرجل في رفق، فنهض "أبو السعد" متكئاً على
ذراعه، ودخلا معاً الخُصّ؛ هرباً من الرياح التي تعصف بالمزارع في عنف،
فَرَدَ دياب الضرة مرة أخرى، وربّت على كتف الرجل قائلاً:

- كُلْ يا عم "أبو السعد" .. كُلْ دا إِنْتَ نَوَّرتَ الخُصَّ بتاعي، تعرف يا عم
أبو السعد، إِنْتَ أول واحد يُخْش الخُصَّ بتاعي بعد "فريد"؛ أصله وحشني
أوي، وأنا بحبه زيَّك كده.

لاحت على شفتي الرجل ابتسامة شاحبة، وهو يمد يده ويشارك
"دياب" الطعام..
وفي خارج الخُصَّ .. كانت هناك عينان..
عينان تملؤهما دموع الألم والحسرة..
كانت عيناه .. عينا "مختار" !



(٦٨)

كان لقاءً حاراً في ذلك الكازينو المطل على النيل بين الدكتور "عز الدين" والدكتور "نصر حماد" أستاذ القانون الجنائي بجامعة القاهرة والمحام المشهور.. ضحك الدكتور "نصر حماد" بجسده الممتلئ، وقال مرتبطاً على كتف صديقه:

- أخيراً اتقابلنا بعد العمر دا كله يا "عز الدين" !
تراجع الدكتور "عز الدين" بظهره للوراء، وقال مبتسماً:
- والله دايمًا متابع أخبارك يا "نصر"، والحقيقة أنا عاوزك في موضوع مهم دلوقت.

هتف الدكتور "نصر حماد" في دهشة:
- خير يا "عز"؟
ظهرت مسحة من الحزن على وجه الدكتور "عز الدين"، وراح يقول في أسى قال:
- هحكيلك كل حاجة يا "نصر".

وخلال دقائق روى الدكتور "عز الدين" كل شيء للدكتور "نصر"،
بعدها تناول الأخير الخطاب قائلاً بثقة:

- كويس أوي إنك لقيت الجواب ده يا "عز"، وعن طريقه هنتبث أمرين:
الأول هو حقك في الميراث، والثاني قيام "حمزة" بالتزوير في محركات رسمية،
واستيلائه علي رصيدك بالبنك.

هتف الدكتور "عز الدين" في قلق:

- بس المشكلة إن "حمزة" عنده حصانة ..

ضحك الدكتور "نصر حماد"، فاهتز جسده الضخم، وهو يقول:

- متقلقش يا دكتور، الموضوع بسيط، وبعدين صاحبك دلوقت أكبر
محام في مصر ولما يدخل أي محكمة بيزلزلها.
ونفض الصديقان، وعلى مقربة منهما، على مائدة مجاورة، كانت توجد
أذنان كبيرتان، أذنان قد سمعتا كل شيء !



(٦٩)

بدأت "وفاء" يومها الأول في العمل، بأن استيقظت مبكراً في الاستراحة المخصصة لها بجوار الجمعية، ودخلت مكتبها قبل الموعد بربع الساعة، كان مكتبها يتصدر واجهة القاعة، وعلى الجانبين يوجد مكتبان آخران للموظفين اللذين ترأسهما في العمل، الأستاذ لمعي والأستاذ مرتضي..

تطلعت إلى ساعتها التي قاربت الثامنة صباحاً، وتناولت دفترها كبيراً لتلقي نظرة على أصحاب الحيازات في القرية و..

- "صباح الخير".

رفعت "وفاء" عينيها لصاحب الصوت، كان الأستاذ "مرتضي" شاب يناهز "وفاء" في العمر، لا يخلو من وسامة معقولة، فوق عينيه توجد نظارة طبية، تطلعت إليه "وفاء" وإلى خجله الشديد، وهو يجلس خلف مكتبه حتى كاد يقع أرضاً، فقالت في بساطة:

- صباح الخير يا أستاذ "مرتضي"، ومفیش داعي لكل الخجل دا، ولازم تتعود وجودي هنا، وبعدين إنتِ اتأخرت خمس دقائق.

ردد في ذهول، وهو يعدل نظارته:

- خمس دقائق؟!

هتفت بصوت لا يخلو من صرامة:

- أيوه خمس دقائق، والساعة الآن ثمانية وربع، وكده يبقى الأستاذ "لمعي" مش جي النهارده.

ابتسم في خجل، وهو يتطلع إليها بنظرة خاطفة، وقال:

- الأستاذ "لمعي" مبيحضرش قبل الساعة عشرة.

- إيه؟!

- مش عارف، أنا مقولتش حاجة.

قال ذلك، ثم غاص في الدفتر الذي أمامه، فهزّت "وفاء" رأسها في عجب، وراحت تطالع الأسماء بالدفتر الذي أمامها، ثم توقفت عند ذلك الاسم..

"فريد محمود الرشيدى" ..

الرجل الذي اهتزت له أوتار قلبها..

الرجل الذي أقسمت أن تحبس نفسها في محراب حبه إلى الأبد، حتى ولو كان غارقاً في حب أخرى، هي في عداد الأموات الآن ..

الرجل الذي تركت بسببه المدينة؛ لتهرب من إلحاح أمها المستمر علي زواجها..

الرجل الذي هربت بسببه للعمل في قرية نائية كهذه تجهلها معظم
الخراط..

ولكن.. يالتصاريف القدر!

لقد هربت منه إليه!

إلى قريته..

إلى منبت أجداده وجذوره..

وانبعث الأمل بداخلها من جديد.



(٧٠)

قبيـل منتصـف اللـيل بـرـع السـاعـة، وـصـل الدـكـتـور "عـز الدـين" إـلى القـريـة، وراح يـبـحـث بعـيـنـه عـن عـم "نـوح" فـلم يـجـده، فـهـتـف فـي نـفـسـه:

- كان لازم تكون عارف يا "عز الدين"، إن واحد في سن عم "نوح" مش ممكن يسهر للوقت المتأخر دا ..

قاطعه فجأة صوت عم "نوح"، وكأنه نبت من العدم، وهو يقول:

- مين هناك؟

ألقى الدكتور "عز الدين" بنفسه في القارب، وقال:

- أنا يا عم نوح.. أنا "عز الدين الرشيدى".

قبض الرجل بذراعيه الواهنتين على مجدافى القارب، وهزّ رأسه في أسى، وهو يقول:

- لسه بدري يا ابني.

- تقصد إيه يا عم "نوح"؟

لم يرد الرجل، ولم يندهش الدكتور "عز الدين" ..

نزل من قارب عم "نوح" وسلك طريقه على شاطئ البحيرة، ومرّ على منطقة المقابر، وسمع صوت "دياب" وهو يتكلم بجوار أبي السعد، وعن بعد لمح "مختار" واقفا خلف نافذة حجرته - وقد انعكس عليه ضوء القمر - وعينه على المقابر حيث يقبع والده مع "دياب" ..

فهتف في أعماقه بألم:

- والله يا مختار لو عرف أبو السعد العذاب الي إنت فيه لرجع داره، وطمن قلبك عليه.

بأقدام منهكة خطأ الدكتور "عز الدين" بقدميه لشقته، فوجد كل شيء مرتباً ونظيفاً، فهتف في نفسه:

- ربنا يباركلك يا "أم الخير"، الواحد مش عارف من غيرك كان هيعمل إيه.

واتجه لحجرته، وهو يشعر بإرهاق لا مثيل له، وراح يفك رباط عنقه، وهو يخلع الجاكت وفتح باب حجرته وفجأة ..

وقع بصره على فراشه، وكاد قلبه يتوقف عن النبض، وهو يتطلع لشعلب أسود مخنوق ولسانه يتدلى خارج فمه في منظر بشع مخيف ..

ارتد للخلف في رعب، وحاول أن يصرخ فعجز وكأن لسانه التصق بسقف حلقه، ولكنه أخيراً استجمع قواه في صرخة قوية تردد صداها في

أرجاء القرية، ومزّقت سكون الليل، وهو يرمي الجاكت أرضاً، ويجري خارج شقته، وصرخاته تتوالي:

- يا مختار، يا دسوقي، يا أهل البلد، الحقوني..

وفي لحظات تحوّل ليل القرية إلى نهار، وقد تراقصت المشاعلُ في أيدي الأهالي الذين استيقظوا فزعين، وقد خرجوا بلباس نومهم إثر صرخات الدكتور "عز الدين"، وحين التفوا حوله أراد أن يخبرهم بما حدث، فعجز مرة أخرى، فأشار لهم بأصابع مرتجفة نحو الشقة فاندفعوا إليها، وبعد لحظات خرجوا، والدهشة تكسو ملامحهم؛ فلم يجدوا بها ما يثير الفزع.. فوجئ الدكتور "عز الدين" بنظراتهم التي تحرقه من الغيظ، فشقّ طريقه بينهم إلى حجرة النوم..

وتجمّد هو الآخر في مكانه؛ حيث كان الفراش خاليا ومرتباً ونظيفاً كما هو..

صرخ الدكتور "عز الدين" في وجوه الأهالي، وهو يكاد يُجن:

- لا مش ممكن، كان فيه تعلب أسود مخنوق ع السرير، ومطلع لسانه، وكان منظره بشع و..

توقف عن كلامه، وهو يرى الأهالي ينصرفون في غضب، وهم يتطلعون إلى ملابسه المتهدلة، والإرهاق الواضح عليه، ثم هزوا رءوسهم في أسى قبل أن يغادرونه، وهم يشيعونه بنظرات الغيظ والغضب، تابع الدكتور صرخاته:

- إنتوا رايحين فين؟ لا أنا مش مجنون، مش مجنون.

رَبَّتْ "مختار" علي كتفه، قائلاً في إشفاق:

- كفاية يا دكتور، كفاية إنَّ محتاج ترتاح.

صرخ الدكتور في وجهه:

- لا يا "مختار" .. صدقني أنا شوفت ال..

جذبه "مختار" من يده في رفق إلى الداخل، وهو يقول:

- أنا مصدقك يا دكتور، بس إنَّ محتاج ترتاح دلوقت.

استجاب له الدكتور "عز الدين"، ومضى نحو فراشه، وألقى بجسده عليه، في حين ناوله مختار إحدى الحبوب المهدئة، ووضع عليه الغطاء ثم اتجه خارجاً وأغلق عليه الباب..

وفي صالة الشقة وقف "مختار"، يتطلع للقمر الذي بدا من النافذة شاحباً، وهتف في نفسه بألم:

- يا ريتك تسمع كلامي وترجع يا دكتور!

ثم خرج بعد أن أغلق الباب خلفه جيداً، وراح يتطلع إلى الحشائش المحيطة بالشقة التي انحنت بفعل شيء ثقيل تم جذبه عليها، فهزَّ رأسه في أسى، ومضى في طريقه!

وهنا.. وفي تلك اللحظة برزت عينا "دياب" وسط الظلام الذي يلف المكان في وحشة، قبل أن يبتسم في بلاهة، ثم يجري وسط المزارع، ليبتلعه الظلام!

(٧١)

ارتفعت ضحكات "حمزة" في وحشية، وهو يجلس في بهو الفيلا في ذلك الوقت المتأخر من الليل بصحبة العمدة "ربيع" ومعهم "رشوان" شيخ الغفر و"جميل" مدير أعماله.. راح "حمزة" ينفث دخان النارجيلة في استمتاع، وهو يقول:

- يعني دلوقت كل الأهالي فاكرينه مجنون؟!

ردّ "رشوان" شيخ الغفر ضاحكا، وهو يضع حجرا آخر على النارجيلة:

- والله يا "حمزة" بيه كان نفسي تشوف شكله لما رجع الشقة، ومعاها الناس وملقاش حاجة.

قال العمدة "ربيع" ضاحكا:

- ولا شكله وهو عمال يصرّخ في الناس ويقول أنا مش مجنون، أنا مش مجنون.

استرخى "حمزة" في مقعده، وأخذ نفساً عميقاً من الدخان، وراح يحك ذقنه، وقد شردَ بعينه نحو المجهول ثم قال:

- كده كل شيء تمام، فاضل حاجة واحدة تحصل وبعدين نضرب ضربتنا.

وصمت قليلاً، ثم استطرد قائلاً لمدير أعماله:

- "جميل".

- تحت أمرك "حمزة" بيه.

- عاوز الجواب اللي مع المحامي.

وبرقت عيناه في جنون، وهو يستطرد قائلاً:

- عاوزه بأي تمن!

وتضاعف بريق الشر في عينيه.



(٧٢)

تناول العمدة "ربيع" تلغرافا من شيخ الغفر، كان قد استلمه توأً من بوسطجى القرية، وراح يفُضُّه في ذهول.. فقد كانت هذه أول مرة يصله تلغرافا، وحين فتحه تضاعف ذهوله مرات ومرات، ليس من أجل الكلمتين اللتين يحتويهما التلغراف.. "انتظروني قريبا"، وإنما بسبب اسم الراسل..

"أسعد إسماعيل السنوسي" .. هتف العمدة في نفسه، قائلاً بذهول:

- معقول.. أسعد إسماعيل السنوسي !! بعد كل السنين دي؟!

وكان خبرا عجيبا لكل أهل البلدة الذين لا يعرفون عنه شيئا، منذ أن اختفى من القرية، وعمره خمس سنوات، وحزن عليه أبوه "إسماعيل السنوسي" حزنا شديدا، وبحث عنه بكل الطرق حتى أبواب الأولياء الصالحين ومن يفتحون المندل طرقها كلها بلا فائدة، حتى اعتصره الحزن فمات منذ عامين.

أما "حمزة" الذي هتف قائلاً في جنون، وهو يحملق في ربيع العمدة:

- إنت اتجننت يا "ربيع"؟!

- لا يا "حمزة" بيه.. والتلغراف أهو.

خطف "حمزة" التلغراف، وقرأه مرات ومرات، ثم هتف في نفسه:
- هو إيه اللي بيحصل في البلد؟ في الأول "عز الدين"، ودلوقت ابن السنوسي.

وصمت قليلا، ثم تطلع للعمدة مستطردا:
- طبعا يا عمدة إنت عارف إن "إسماعيل السنوسي" باع ليا أرضه قبل ما يموت؟

هتف "ربيع"، قائلا في ذهول:
- بس دا محصلش يا "حمزة" بيه !
تابع "حمزة" بلهجة ذات معنى:
- جرى إيه يا عمدة ما تركز شوية، "إسماعيل" باع ليا أرضه، وإنت شاهدع العقد، مش كده ولا إيه يا عمدة؟
- أيوه.. أيوه يا "حمزة" بيه.
تطلع إليه "حمزة" بنظرة ظافرة وأشعل سيجاره، وراح يتطلع للدخان في شروده، وهو يهتف في أعماقه:
- يا ترى إيه اللي فكرك بالبلد بعد كل السنين دي يا ابن السنوسي؟



(٧٣)

رفعت "وفاء" عينيها عن الدفتر الذي أمامها، وقالت للأستاذ "مرتضى"
الذي كان يجلس خلف مكتبه، ويختلس النظرات إليها كل لحظة وأخرى، في
خجل:

- واضح يا أستاذ "مرتضى" إن عيلة الرشيدي أكبر عيلة تملك أرض ف
البلد.

تطلع إليها "مرتضى" - غير مصدق أنها أخيرا تحدثه في أمر يكاد يكون
بعيدا عن العمل - وغاص في عينيها بوله وعشقٍ، وهو يعدل نظارته، مما
جعلها تهتف به في حدة:

- أستاذ "مرتضى" !

أصابه ارتباك شديد، وقال بتلعثم:

- أيوه يا آنسة "وفاء" .. عيلة الرشيدي أكبر عيلة ف البلد.

تطلعت مرة أخرى للدفتر، وقالت بلهجة حاولت أن تجعلها عادية:

- بس فيه حاجة غريبة يا أستاذ "مرتضى"، البيانات بتقول إن الورثة لعبد
العليم الرشيدي بعد وفاة "محمود الرشيدي" هم عز الدين وحمزة وفريد
الرشيدي، بس قدامي هنا الحيازة كلها باسم "حمزة الرشيدي" لوحده.

تناول "مرتضى" منديلا، ومسح به عرقا وهميا، واعتدل في مقعده، وراح
يقصُّ عليها كل شيء يعرفه عن عائلة الرشيدي، وبكت في أعماقها بدموع
من دم، وهتفت بصوت لم يتعدَّ أسوار شفتيها:

- إنْتَ اتعذبت كتير أوي يا "فريد" !

وفي تلك اللحظة عادت "وفاء" بذاكرتها للوراء، إلى تلك اللحظة التي
كانت تودع فيها فريد بالمطار، وتذكرت كم الحزن الذي كان ي موج بعينه
و..

- "صباح الخير"

فاقت من شرودها على صوت الأستاذ "لمعي" الذي وصل لتوه، وراح
يرمي جسده خلف مكتبه في ضيق، تطلعت إليه وفاء قائلة، وقد استعادت
صرامتها:

- الساعة دلوقتي عشرة ونص يا أستاذ "لمعي".

ردَّ عليها قائلا في ضجر:

- والله يا آنسة "وفاء" أنا...

قاطعته قائلة بصرامة:

- خلي بالك أنا حذرتك قبل كده، ودا الإنذار الأخير.
فتح "لمعي" دفتره، وأعماقه تموج بالغضب والسخط، في حين تناست
"وفاء" أمره تماما..

وغاصت بفكرها وخيالها مع الرجل..
الرجل الذي لم ولن تحب سواه.. مع "فريد".



(٧٤)

في مقهى القرية هتف الحاج "دسوقي"، وهو يضرب كفاً بكف:

- ومين كان يصدق الي حصل ليلة امبارح للدكتور "عز الدين" ؟ !

رد "متولي" قائلاً، وهو يتناول كوباً من الشاي:

- والله أنا لولا شوفت بعنيا مكتتش صدقت أبداً.

رد الشيخ "عبد الرازي"، وهو يقلب مسبحة بين أصابعه:

- سبحانه الذي يغير ولا يتغير.

هزّ الحاج "عبد الوهاب" رأسه، وقال في أسى:

- والله لو حصل حاجة للدكتور "عز الدين"، ربنا ما هيسامحنأ أبداً.

ردّ "متولي" في دهشة:

- ربنا مش هيسامحنأ، ليه يا حاج "عبد الوهاب" ؟ !

- تضاعفت نبرة الأسى في صوت الحاج "عبد الوهاب"، وهو يقول:
- عشان الساكت عن الحق شيطان أخرس يا "متولي"، وإحنا كلنا عارفين
 "حمزة" والأعيه و..
- قاطعته صوت "مختار"، وهو مقبل عليهما، ويده صرة الطعام قائلاً:
- عندك حق يا عم الحاج "عبد الوهاب"، كلنا عارفين حمزة بس..
 وصمت قليلاً، وشرد بنظره نحو المجهول، ثم استطرد قائلاً:
- بس كل شيء وله أوان .
 رد الحاج "دسوقي":
- بس إحنا قلقانين ع الدكتور "عز الدين".
 ألقى "مختار" بجسده فوق أحد الكراسي، وهو يقول:
- الدكتور "عز الدين" بخير.
 ردّ "متولي" في ذهول:
- والي حصل إمبارح دا كان إيه؟!
 ابتسم "مختار" في مرارة، وقال:
- كل اللي قاله الدكتور إمبارح حصل.
 - يعني الدكتور شاف إمبارح على سريريه تعلب أسود مخنوق؟!
 ردّ "مختار" قائلاً بلا تردد:
- أيوه.

وبعد كلمته هذه بلحظات، وجد "مختار" نفسه يجلس وحيداً بين الكراسي، وقد انفصّ عنه الجميع، وكأنه مجنون أو معتوه، فتنهد في ألم، وهو يغادر المقهى، ويسلك طريقه وسط المزارع حتى قابل "دياب"، فأعطاه صُرة الطعام التي أخذها منه، وانطلق جارياً في طريقه للمقابر حيث يوجد "أبو السعد".. أما "مختار" ظل يتابعه ببصره حتى اختفى، وفي أعماقه كانت تتردد نفس الكلمة التي قالها منذ قليل:

- كل شيء بأوان. وبرقت عيناه في غضب!



(٧٥)

داخل حجرة مكتبه، كان "حمزة" مسترخيا على مقعده العريض وقت الظهيرة، والدخان ينطلق من سيجاره في كثافة صانعاً أمام عينيه الشاردتين بعض الدوائر المتداخلة التي سرعان ما تزول، وتشكل مرة أخرى مع كل نفس جديد ..

- "صاحب الكارت دا عاوز يقابلك يا حمزة بيه".

فاق "حمزة" من شروده، علي صوت "جميل" مدير أعماله، فتناول منه الكارت، وتطلع إليه في دهشة، ثم قال:

- مين "رشدي صالح" دا؟! أنا معرفش حد بالاسم دا.

- هو مستني حضرتك في بهو الفيلا.

تطلع إليه "حمزة" قليلا في نظرات غير ذات معنى، ثم تركه وانطلق نحو البهو، ووقعت عيناه على ذلك الرجل الأنيق صاحب الجسد النحيل، وأقسم بينه وبين نفسه أنه لم يره من قبل، استقبله الرجل ناهضا، وعلى شفثيه ابتسامة دبلوماسية، ومدّ يده مصافحا، وهو يقول:

- "رشدي صالح" .. مدير أعمال أسعد بيه السنوسي.

فغرّ "حمزة" فاه قائلا، وقد نسى يد الرجل الممدودة له:

- أسعد بيه السنوسي؟ !

هتف الرجل، وهو يلوح بيده أمام حمزة قائلا:

- حمزة بيه !

أحسّ "حمزة" بالخرج، فصافحه قائلا:

- أهلا أهلا.. اتفضل.

جلس الرجل وقد وضع ساقا على ساق في ثقة، وهو يقول:

- في الحقيقة "أسعد" بيه رجع مصر بعد غربة طويلة ..

قاطعه "حمزة" قائلا:

- معلّش هو أنت تقصد "أسعد إسماعيل السنوسي"؟ !

اتسعت ابتسامة الرجل، وقال:

- أيوه يا "حمزة" بيه، ولما رجع بيفكر يخدم بلده بمشروعاته، بس هو

عاوز يتأكد من حضرتك هل البلد مؤهلة للمشروعات الكبيرة ولا لأ؟

ردّ "حمزة" في سرعة، وهو يقول:

- طبعا البلد مستعدة لأي مشاريع.

أشعل الرجل سيجارا فاخرا، نفث دخانه في هدوء، وهو يقول:

- عشان كده هو بعطني ليك يا "حمزة" بيه؛ لمكانتك ومركزك في البلد.

تطلع إليه "حمزة"، وقال في نفسه ساخرًا:
 - وأنا اللي كنت فاكر إنه راجع عشان أرض أبوه؟!
 فاق من شروده على صوت الرجل، وهو يقول:
 - حمزة بيه.. روجت فين؟
 ابتسم "حمزة"، وقال:
 - لا أبدا، بلّغ "أسعد" بيه إن البلد كلها في انتظاره .
 نهض الرجل، قائلًا بنفس الأسلوب الهادئ:
 - وهو دا اللي كان متوقعه منك "أسعد" بيه عشان كده بعطني
 لسعادتك.
 قال الرجل ذلك، ثم صافحه، وانصرف تجاه سيارته الفارهة، وانطلق بها
 وسط نظرات الجميع الذاهلة!



(٧٦)

جلس الدكتور "عز الدين" في شرفة شقته المطلة على المزارع يتأمل الليل الذي بدأ يهبط على القرية، وأعماقه تموج بانفعالات شتّى، وراح يردد في نفسه بألم:

- إيه اللي حصل يا "عز الدين"؟ هو أنت كنت غلطان لما فكرت ترجع بلدك؟

صرخ عقله الواعي في حدة:

- وعملت إيه لما رجعت لأهلك؟ وبعدين هم فين أهلك دول؟ فين الحاج "محمود" وفين "فريد" وأهل البلد الطيبين؟

رد عقله الباطن في ألم:

- وهو كان المفروض إني أعيش عمري كله غريب في بلاد الأجانب، بعيد عن أهلي ووطني؟

ارتفع صراخ عقله الواعي أكثر وأكثر:

- إنْتَ نَسيت كنت عايش هناك إزاي؟ كنت ملك متوج، مكانة علمية واحترام وملايين رموها تحت رجلك عشان تفضل هناك.

قاطع عقله الواعي بألم متزايد:

- كل دا عشان مصلحتهم.. أيوه عشان كانوا محتاجين ليا ولعلمي..

- ولما رجعت لقيت حد محتاجلك، لقيت حد عاوزك؟ أهل البلد اتهموك بالجنون، وأكثر واحد عدو ليك هو ابن أخوك "حمزة الرشيدى"!

صراع رهيب دار بين عقله الواعي والباطن جعل رأسه يدور، فضغط بكفيه على جانبي رأسه في ألم، وهتف بصوت يقطر ألماً وحرناً:

- من الواضح فعلاً إنك غلط لما رجعت يا "عز الدين"، والغلطة دي لازم تتصلح فوراً.

وعندما رفع الدكتور "عز الدين" عينيه على المزارع هذه المرة كان يملؤها كل الحزن و..

كل الأسى!!



(٧٧)

أخذ "مختار" يجري على الطريق الزراعي، وعلى وجهه كل علامات الحزن والأسى والغضب، وبيده جريدة يومية صدرت صباح اليوم، كان في طريقه إلى شقة الدكتور "عز الدين" الذي كان في تلك اللحظة يُعد حقائبه للسفر، وعلى شفتيه ابتسامة مريرة، وهو يتذكر كيف كان يلوم "فريد"؛ لأنه ترك البلد، وهرب.. فقال بصوت مسموع:

- كان عندك حق يا "فريد" لما سييت البلد!

فجأة تأتي طرقات قوية على باب الشقة، مع صوت "مختار"، وهو يصرخ:

- يا دكتور عز الدين، افتح يا دكتور..

فتح له الدكتور بسرعة، وهو يهتف به في مرارة لا توصف:

- كويس إنك جيت يا "مختار"، تعالى عشان تشوفني وأنا بهرب، أنا خلاص اقتنعت بكلامك و..

قاطعته "مختار" قائلاً، وهو يتطلع لحقائب السفر في دهنول:

- يعني إيه يا دكتور؟

عدل الدكتور نظارته، وقال بصوت يقطر ألماً وحرناً:

- أنا خلاص يا "مختار" قررتُ أسافر تاني.

ترقرقت الدموع في عيني "مختار"، وقال وهو يلوح بالجريدة في وجه الدكتور:

- للأسف يا دكتور، خلاص.. فات وقت السفر.

- تقصد إيه يا "مختار"؟!

فَرَدَ "مختار" الجريدة أمام عينيه، وقال:

- بص وشوف الخبر دا، وأنتَ هتعرف يا دكتور.

وما أن وقعت عينا الدكتور على الخبر الرئيسي بالجريدة، حتى وقع منها را علي مقعده، وهو يهتف بعينين جاحظتين، ووجه شاحب كالموتى:

- مش ممكن.. مش ممكن!

فقد كان الخبر الرئيسي بالجريدة هو:

(مقتل الدكتور نصر حماد.. وزوجته المصابة تؤكد أن السبب خطاب

مجهول)

ربع ساعة كاملة مضت، والدكتور "عز الدين" في مكانه بمقعده، لا يحرك ساكناً، والجريدة في يده، يتطلع للخبر دون أن يتفوه بحرف، وكأنه تمثال قد من الصخر..

كان الدليل الوحيد الذي يؤكد أنه ما زال على قيد الحياة هو الدموع..
الدموع التي كانت تنهمر من عينيه في صمت، وتغرق وجهه وملابسه،
وكأنها تطهره من كل ما كان يؤمن به من حب وخير وجمال وفجأة..
تقلّصت ملامح الدكتور "عز الدين"، وقد جفّت دموعه، وكأنها انتهت
من مهمتها، أخذت عيناه تطوفان في أرجاء الشقة حتى توقفت عند مكتبه
القديم، بكل الغضب الذي تننّ به جوارحه اتجه بخطوات جامدة وعينين
جاحظتين، وفتح درج مكتبه، وتناول منه سلاحه القديم..
وتطلع إليه "مختار" في ذهول، وهاله ما رأى..
لأول مرة يرى ذلك البريق في عيني الدكتور "عز الدين"..
بريق الشر!



(٧٨)

وسط المزارع كان الدكتور "عز الدين" يجري، وييده سلاحه في طريقه إلى حمزة..

كانت عيون أهل القرية تتابعه في ذهول، وقد تهدلت ملابسه، وسقطت خصلات شعره الأبيض فوق جبينه، وتلاحقت أنفاسه، وهو يصرخ بصوت غاضب تردد صده في أرجاء القرية، ملوحا بسلاحه أمام العيون التي تلاحقه:

- "حمزة" لازم يدفع التمن، لازم يتعدم بدل المرة ألف، أيوه يتعدم عشان الحاج "محمود"، و"مديحة"، و"فريد" وأمه، و"أبوالسعد"، والدكتور "نصر" وزوجته، لازم يتعدم.. لازم.
وهناك..

عند فيلا "حمزة"، كان بانتظاره ثلاثة رجال أقوياء أشداء في ملابسهم البيضاء، وبين أيديهم قميص أبيض، ومن خلفهم رجال الشرطة، وما أن ظهر الدكتور "عز الدين" حتى تقدم نحوه الرجال الثلاثة في حذر، وبأيديهم القميص الأبيض يريدون تطويقه..

الدكتور "عز الدين" يتراجع للخلف، وهو يتطلع لحمزة الذي ينظر إليه بين رجاله من شرفة الطابق الثاني والسيجار بين شفتيه.. صرخات الدكتور تتردد في أصداء القرية:

- إنتوا عاوزين مني إيه؟ أنا مش مجنون، أنا الدكتور "عز الدين" يا مجانين.

اقترب الرجال منه أكثر وأكثر، ورجال الشرطة يحاصرونه في حذر..

الدكتور "عز الدين" يصرخ في هلع، ملوحاً بمسدسه في وجوههم:

- أوعوا حد يقرب مني، أنا عاوز "حمزة" بس.

الرجال يقتربون منه أكثر وأكثر.. يصرخ في جنون، وهو يفتح نيران

مسدسه بلا وعي:

- قتللكم أوعى حد يقرب..

سقط أحد الرجال الثلاثة مضرجاً في دمائه، وقد أصابت كتفه إحدى

الرصاصات، فيبتعدون عنه في ذعر، فينطلق وسط المزارع، ورصاصاته

تنطلق في كل مكان..

يصرخ فيه ضابط الشرطة قائلاً:

- مكانك يا دكتور "عز"، مكانك وارمي السلاح، مش هتعرف تهرب.

الدكتور يصرخ في جنون، ورصاصته الطائشة في كل مكان:

- عاوزين مني إيه؟ إنتوا المفروض تيجوا لحمزة مش ليا أنا ! "حمزة"

لازم يدفع تمن كل اللي عمله.

الأهالي يتخبطون في بعضهم؛ خوفا من رصاصة طائشة، و"مختار" يهتف
بالدكتور "عز الدين"، من بين دموعه التي تنهمر في غزارة:

- كفاية يا دكتور، كفاية أرجوك، هو دا اللي "حمزة" عاوز يوصله، وفي
الآخر هتروح مكان من اتنين، يا السجن، يا مستشفى المجانين، أرجوك
اسمع كلامي؛ دا أنا "مختار" حبيبك، فاكّر كلامك يا دكتور عن الخير اللي
لازم يتتصر؟ عندك حق، الخير هيتتصر و..

قاطعته ضحكات هسترية انطلقت من بين شفّتي الدكتور في جنون، وهو
يصرخ في ألم:

- هاهاها.. خير، عدل، حب، جمال!

إنّ بتضحك عليا ولا على نفسك يا "مختار"؟ الحق والعدل والخير
والجمال دي كلها شعارات..

أيوه شعارات كل إنسان عاجز، الحق اجري يا "مختار" ودور على سلاح
خُذ بيه حقك وحق "مديحة"، وأبوك، وصاحبك.
وفجأة..

وجد الدكتور "عز الدين" نفسه محاصرا برجال الشرطة، فتطلع إليهم في
قهر، وقد خارت قواه، وانهار جسده أرضا، وسقط سلاحه تحت أقدامهم،
وبعينين مشوشتين يغلفهما ضباب الانهيار لمح القميص الأبيض يهجم عليه
في وحشية!

وهنا.. وفي تلك اللحظة، مرت سحابة سوداء غلّفت سماء القرية، وكأنها
قد حكمت عليها بأن تحيا في ظلام أبدي!

(٧٩)

أهالي القرية يتجمعون على الطريق الزراعي، ورءوسهم منكسة بالأرض
وعيونهم ممتلئة بالدموع..

رجال المستشفى أحاطوا بالدكتور "عز الدين"، وقد تمكنوا منه تماماً،
ومن خلفهم رجال الشرطة..

الدكتور "عز الدين" بينهم لا يقوى علي السير، وقدماه يتجرجران على
الأرض، وكأنه مقبل على حبل المشنقة لتنفيذ حكم الإعدام فيه..

الطيور هاجرت أغصانها، وتجمعت في السماء فوق الطريق الزراعي في
موكب جنائزي..

الأزهار ذبلت، وانحنت فوق جذوعها في حياء..

السحابة السوداء انتشرت وانتشرت، حتى غلّفت كل سماء القرية، وكأنها
تعلن عصر الحداد الأبدي..

صرخاته المقهورة تتردد في كل جنبات القرية:

- أنا الدكتور "عز الدين الرشيدى" ..

أنا اللي درّست بجامعة كاليفورنيا وأكسفورد..
أنا اللي قلتُ لكل ملايين أمريكا لأ، بلدي محتاجة علمي.
وبضحكات هيسترية راح يواصل صرخاته، وهو يردد، وقدماه
يتجرجران علي الأرض:
- بلدي.. بلدي..

يصل الموكب في تلك اللحظة إلى عربة المستشفى، ليدفعه الرجالان
داخلها، وتمضي مواصلة طريقها بصعوبة بين أهالي القرية في حراسة عربة
الشرطة، وقد استسلم لهما الدكتور "عز الدين" تماما، ومن خلف نظارته
الطبية، راح يتطلع إلى القرية بنظرات مجعدة خاوية، وكأنه يلقي عليها الوداع
الآخر!



(٨٠)

على مقعده الهزاز داخل مكتبه، قبض "حمزة" على سماعة الهاتف، وقال
عبرها ودخان سيجاره ينطلق من فمه في غزارة:

- متشكر جدا سعادة الباشا، متتصورش المتاعب الي كان عاملها الراجل
دا في البلد، طبعاً سعادتك، الأمانة هتوصل في معادها.

وضع "حمزة" السماعة، وانطلقت من فمه دفعة أخرى من الدخان، وهو
يقول مبتسماً في ظفر:

- مع السلامة يا دكتور.

وتطلع إلى الحديقة من نافذة حجرته في شروء للحظات، ثم هتف بجميل
الذي كان يقف خارج حجرة مكتبه، فهرع إليه قائلاً:

- تحت أمرك "حمزة" بيه.

نفث دخان سيجارة، وقال:

- إيه أخبار "أسعد السنوسي"؟
- هيوصل بكره يا "حمزة" بيه.
- خليّ الخدم يجهزوله الجناح الشرقي.
- تحت أمر سعادتك "حمزة" بيه .
- خرج "جميل" لتنفيذ الأمر، في حين أخذ حمزة نفسا آخر من سيجاره نفثه في تلذذ، وهو يردد في أعماقه:
- يا ترى.. معاك ملايين قد إيه يا "أسعد"؟ وبرقت عيناه في جشع!



(٨١)

رجع "مختار" إلى منزله بعد رحيل الدكتور "عز الدين" في عربة المستشفى، وهو في حالة يرثي لها.. كانت كلمات الدكتور ما زالت تتردد في أذنه، تدوي في أعماقه..

- (هاهاها.. خير، عدل، حب، جمال! إنْتَ بتضحك عليا ولا على نفسك يا مختار؟

الحق والعدل والخير والجمال دي كلها شعارات، أيوه شعارات كل إنسان عاجز، الحق اجري يا مختار ودوّر على سلاح خُذ بيه حقك وحق مديحة وأبوك وصاحبك)

ترقرقت الدموع في عيني "مختار"، وهو يستعيد كلمات الدكتور "عز الدين"، ثم تطلع إلى صورة أخته التي تزين مدخل المنزل، وهتف في أعماقه التي تغلي كالبركان الثائر:

- ومين قال إني نسيت يا دكتور؟ ! وهو أنا ممكن أنسى؟ بس لسه وقت الحساب مجاش؛ أبويا لسه محتاج اللي يرعاه، ويخلي باله منه، حتى لو كان عايش في المقابر.

وانفلتت من عينيه دمعة ساخنة، وهو يمسك بكفيه الإطار الذي يضم صورة أخته "مديحة"، وقال:

- بس يكون في علمك يا دكتور، لما يجي وقت الحساب، وأتخلص من القيود اللي حواليا، هكون أنا صاحب الكلمة الأخيرة.
وبرقت عيناه في جنون !



(٨٢)

عجيبة تلك أحوال القرية !

بالأمس القريب ودعت الدكتور "عز الدين الرشيدي" لمستشفى الأمراض العقلية، واليوم تستقبل زائرا جديدا بكل الفرح والسرور..
إنه "أسعد السنوسي" الذي وفد إلى القرية، في موكب ضخم يفوق موكب "حمزة الرشيدي" نفسه..

في دوار العمدة كان اللقاء حيث تجمع كبار البلدة، وعلى رأسهم "حمزة" والعمدة ..

أمام دوار العمدة تجمع الأهالي يحدقون في سيارة "أسعد السنوسي" الضخمة التي تكاد تغلق الطريق، وفي أعماقهم جميعا يتردد سؤال واحد:

- معقولة ! هو ذا ابن إسماعيل السنوسي ؟ !

ولم يكن الحال بداخل الدوار يختلف عن خارجه ..

الجميع يحملقون في "أسعد السنوسي"، وملابسه الفاخرة، والسيجار الذي قلما يغادر شفتيه، ولم يتركهم أسعد لحيرتهم طويلا، وأخبرهم أنه بعد اختطافه من القرية على يد عصابة ممن تقوم بخطف الأطفال، باعوه لثري

عربي لا ينجب، تبناه وسافر به للكويت، وعاش معه حتى مات، وترك له كل شيء، ومنذ أشهر قليلة، وقعت مذكرات الرجل الذي تبناه في يده، ومنها عرف كل شيء، فقرر العودة لأهله وبلده .

وصمت "أسعد" للحظات، راح يتابع أثر كلماته على الحضور من خلف دخان سيجاره، ثم استطرد قائلاً في تأثر:

- ومش قادر أقولكم قد إيه كانت الصدمة كبيرة عليا، لما عرفت إن أبويا مات من سنتين، ومقدرتش أدفنه بإيدي.

نهض "حمزة" في تلك اللحظة، فاتحا ذراعيه في لهجة مسرحية:

- متقولش الكلام دا يا "أسعد" بيه، من النهارده البلد كلها أهلك.

ورد الحاج "عبد الوهاب"، قائلاً في تأثر:

- أيوه يا ابني، كلنا أهلك.

وحول مائدة الغداء في دوار العمدة راحوا يستمعون لأسعد، وهو يتحدث عن المشاريع المتعددة التي ينوي إقامتها بالبلد، والجميع يتطلعون إليه في سعادة وانبهار، وبعدها هتف "حمزة":

- من النهارده إنت ضيفي يا "أسعد" بيه.

تطلع إليه "أسعد" من خلف دخان سيجاره، وقال:

- متشكر "حمزة" بيه؛ فيه حجز باسمي في الشيراتون .

- وهو دا كلام يا راجل تبقى فيلا "حمزة الرشيدى" موجودة، وتقعدي فندق برضه؟ والله الكلام دا مينفعش أبدا.

(٨٣)

"مختار" يجلس وحيداً على شاطئ البحيرة قبيل الغروب، يلقي بين لحظة وأخرى حجراً في مياه البحيرة، يفرغ فيه انفعالاته، فيصنع بعض الدوائر المتداخلة، وما تكاد تنتهي حتى يلقي بحجرٍ آخر..

- "فريد فين يا مختار؟"

التفت "مختار" لصاحب الصوت، والذي لم يكن سوى "دياب"، ولم يرد..

استطرد "دياب" قائلاً، وهو يتطلع للدوائر المتداخلة التي صنعها الحجر الذي ألقاه "مختار"، وكأنه يبحث عن شيء ما داخل البحيرة:

- أصل "فريد" وحشني أوي يا "مختار" !

مرة أخرى تطلع إليه "مختار"، ولم يرد، وراح يهتف بأعماقه في ألم:

- يا ترى إنْتَ فين دلوقت يا "فريد"؟ عايش ولا ميت؟ كويس ولا

لا؟ سنين كتيره عدت، وأنا معرفش حاجة عنك، صحيح أنا اللي قتلتك

امشي وسيب البلد، بس صدقني كان غصب عني، أختي الوحيدة ماتت بسببك، وأنا كثير حذرتك، واترجيتك تبعد عنها.. يا ريتك سمعت كلامي يا صحبي!

- "فريد فين يا مختار؟"

فاق "مختار" من شروده على صوت "دياب" مرة أخرى، فنهض من مكانه، وألقى بحجرٍ ضخّم في مياه البحيرة، فتناثرت مياهها عليه وعلى "دياب"، قبل أن يتركه، وينطلق على الطريق الزراعي دون أن يرد عليه.. دياب يتطلع لمياه البحيرة، وهو يصرخ كمعتوه عاودته النوبة:

- حورية.. حورية..

ابتسم "مختار" بآلم حين سمعه، وواصل سيره، وبين كل لحظة وأخرى يجذب فرعا جافا متدلّيا من أحد الأشجار، ويطوّح به في عنف، وحين وصلت قدماه قريبا من المبنى الملحق بالجمعية الزراعية، التقطت أذناه صوتا رقيقا يغني بصوت خافت في هدوء الليل الذي بدأ يرخي سدوله على صفحة الكون، كان الصوت الرقيق ينبعث من نافذة الاستراحة الملحقة بالجمعية الزراعية، تسمّرت أصابع مختار على أحد الفروع الجافة حين تسلل ذلك الصوت الملائكي إلى أذنيه، كانت الأغنية تتحدث عن الحبيب الذي سافر منذ زمن، والمحبة التي تحترق شوقا لعودته، اقترب مختار قليلا، وكم كانت المفاجأة حين وقعت عيناه عليها.. "وفاء"!

- توقفت "وفاء" عن الغناء - حين رآته -، وقالت في هدوء
- أهلا يا "مختار".. أنا كنت عارفة إن دي بلدك، بس مكنتش عارفة أوصلك إزاي.
- وأنا سمعت كثير عن الموظفة الجديدة، وعمري ما تخيلت تكوني أنتِ يا "وفاء" !
- وإنّ شغال فين يا "مختار"؟
- في القاهرة.
- مش إنتَ كنتِ أولي بالتعيين في بلدكم؟
- نصيب يا "وفاء".. وبعدين الموظف الي انتِ اتعينتِ مكانه مات بعد ما أنا استلمت شغلي في القاهرة.
- صمتت "وفاء" قليلا، ثم قالت بلهفة لم تنجح في إخفائها:
- فيه أخبار عن "فريد"؟
- تطلع إلي عينيها الحائرتين من لوعة الفراق، وقال في ألم:
- معرفش حاجة.
- بس إنتوا أصحاب !
- قاطعها قائلا في ألم متزايد، وهو يئن:
- قولتلك معرفش، معرفش.

وتركها، ومضى، وكل جوارحه تنن في ألم، وبعد خطوات جاءه صوتها،
يسأله:

- لو عاوزه أشوفك أوصلك إزاي؟

التفت إليها قائلاً:

- اسألي "دياب".

ثم واصل طريقه بخطوات واسعة لمنزله، وكأنه تذكر فجأة أمر انسيه..
دفع باب المنزل، ووقف لحظات يتطلع لصورة أخته "مديحة"، ثم توقفت
عيناه على باب صغير يقود لحجرة جانبيه، اتجه في خطوات واسعة للباب
الصغير ودفعه، وفي عينيه بريق من الغضب يتضاعف، اتجه لصورة ضخمة
تكاد تحتل الحائط المقابل بأكمله، راحت عيناه تنفرس كل جزء في ملامح
ذلك الوجه الذي يحتل الصورة التي رسمها من قبل، كان وجه "حمزة
الرشيدي"..
اقترب "مختار" من الصورة في ببطء، وجحظت عيناه في جنون، وهو
يهتف:

- لحد إمتة هتفضل إنت الكسبان؟

لحد إمتة هتفضل الدليل على إن الدنيا دي فيها حاجة غلط، وإنها اتخلقت
لناس آه وناس لأ؟

لحد إيمته هتفضل الناس تايهه في دوامتك، ومش عارفة الصبح م الغلط؟

لحد إيمته؟ لحد إيمته؟

تلاحقت أنفاس "مختار" في سرعة، وبريق الغضب في عينيه الجاحظتين
تضاعف مرات ومرات، وهو يهجم علي الصورة، وتنهال عليها صفعاته،
وقد تصبَّب عرقٌ غزيرٌ على وجهه، تقع الصورة أرضاً، يتطلع إليها مختار
في جزع، وكنفسية معقدة تهوى الانتقام، وتخشى أن يصاب عدوها بأي
مكروهٍ قبل أن يكون على أتم الاستعداد للانتقام منه، انحنى ورفع الصورة
من الأرض، ووضعها مكانها مرة أخرى على الحامل الضخم، وراحت يده
تمسح عليها بمنتهى الحنان كأم تنزع شوكة علقته بثياب ولدها !



(٨٤)

هتف "أسعد السنوسي" قائلاً، وهو يجلس مع "حمزة" حول مائدة الإفطار في الفيلا:

- أنا بصراحة مش عارف أشكرك إزاي يا "حمزة" بيه على كرمك الشديد.

تراجع "حمزة" بظهره إلى الوراء، وقال:

- متقولش الكلام دا يا أسعد بيه؛ دا أنت ابن الغالي.

اشعل "أسعد" سيجاره، ونفث دخانه في هدوء، ثم قال:

- في الحقيقة يا "حمزة" بيه.. أنا رغم الملايين اللي عندي مش حاسس بالسعادة، وعاوز أعمل أي حاجة لبلدي وأهلي اللي بحبهم؛ عشان كده أنا نويت أخلي البلد بتاعتنا دي بلد نموذجية، فيها كل المشروعات العملاقة.

ابتسم "حمزة" في سعادة، وقال:

- دا أحسن قرار يا "أسعد" بيه والبلد كلها تحت أمرك.

تراجع "أسعد" بظهره للخلف قليلا، وشرد بنظره نحو المجهول، وهتف قائلا:

- طبعاً كله بفضل مساعدتك يا "حمزة" بيه، وإن شاء الله هتكون بينا مصالح كثير بس..

- بس إيه يا "أسعد" بيه؟

- أنا عاوز الأرض.

- تقصد أرض والدك الحاج إسماعيل - الله يرحمه - الأرض موجودة، وفي أمان أنا بس كنت برعاها لحد ما ترجع و..

قاطعته "أسعد" قائلا، وهو يضحك:

- لا يا "حمزة" بيه.. أنا عارف إن أرض والدي في إيد أمينة، بس أنا أقصد إني عاوز أشترى أكبر مساحة من أرض البلد، وهدفع كل اللي يطلبوه.

تطلع إليه "حمزة" بنظرة متسائلة، فاستطرد "أسعد" قائلا، وعلى شفثيه ابتسامة مدروسة:

- إنت عارف يا "حمزة" بيه إن أنا هعمل مشروعات كتيرة زي مزارع للمواشي، ومزارع للأسماك، ومصانع للأغذية، والبلاط، والزجاج، وهبني مدارس، ومستشفيات، وغيرها كثير.

وصمت لحظة، تطلع فيها لحمزة من خلف دخان سيجاره، واستطرد قائلا:

- وزى ما سعادتك فاهم لازم الأرض تكون تحت إيدنا لاستخراج الأوراق، والتصاريح عشان يبدأ مشروعنا.

ابتسم "حمزة" في نفسه، حين استخدم أسعد لفظة الجمع، وكأنه يشركه معه في كل شيء، فردّ على الفور:

- فاهم يا "أسعد" بيه، سيّب موضوع الأرض عليا، وأنا هقنع الفلاحين.

تراقص قلب "أسعد" بداخله طربا، فقال من بين دخان سيجاره:

- هو دا عشمي فيك يا "حمزة" بيه.

ولمع في عيني كل منهما بريق غامض!



كان يوماً من الأيام المشهودة بالقرية، حيث أقام "أسعد السنوسي" حفلاً كبيراً، ذبح فيه أكثر من عشرة عجول بمناسبة البدء في مشاريعه العملاقة التي ستنتقل القرية نقلة كبيرة على حد قوله..

الجميع يأكلون، ويشربون في سعادة بعد أن وقّع عدد كبير منهم عقود بيع أرضه لأسعد السنوسي، وطلب في أرضه ما شاء من المال، وأسعد يدفع لهم بسخاء، بما فيهم "حمزة الرشيدى" نفسه الذي باع لأسعد قطعة كبيرة مميزة من أرضه تقع على الطريق الرئيسي بالقرية، ووضع "أسعد" في حساب "حمزة" بالبنك مبلغاً تعدي الملايين الخمسة.. راح "دياب" يصيح قائلاً في سعادة، وبين يديه طبق كبير مملوء باللحم، وهو يجري على الطريق بطريقته المضحكة:

- أسعد بيه.. يا أسعد بيه.. إحنا من غيرك نسوى إيه.

ظل علي حاله تلك يجري، ويديه طبق اللحم حتى وصل للمقابر، حيث يوجد عم "أبوالسعد" عند مقبرة "مديحة"، وضع بين يديه طبق اللحم، وراح يقول له، وهو يربّت على كتفه:

- كُلْ يا عم "أبوالسعد"، كُلْ دي لحمة، والله العظيم دي لحمة، ودا نصيبك لوحدك، عشان أنا راجع هناك تاني عشان أشوف الرقاصة.
قال ذلك، ثم ترك الرجل مع طبق اللحم، وانطلق بين المزارع، وهو يردد مرة أخرى:

- أسعد بيه.. يا أسعد بيه.. إحنا من غيرك نسوى إيه.
في تلك اللحظة كان حمزة يقول لأسعد، وهما يجلسان على مائدة كبيرة في مقدمة الحفل:

- مبروك يا "أسعد" بيه.
- مبروك علينا يا "حمزة" بيه.
في تلك الأثناء تعالت صيحات أهل البلدة؛ حين رأوا الراقصة تصعد لخشبة المسرح، فغمز "أسعد" بعينه قائلاً بلهجة ذات مغزى:
- إيه رأيك؟

وتطلع إليها "حمزة"، وهاله ما رأى، سبحان الخلاق فيما أبدع وصور!
لم يرَ امرأة مثلها من قبل..

ذلك الشعر الأسود الفاحم الطويل الذي يتجاوز خصرها، هاتان الشفتان المكتنزتان والتي تغري المرء بأن ينال منها قبله حتى ولو دفع حياته

ثمنا لذلك، والعينان الزرقاوان اللذان يفوقان البحر في صفائه وجماله، وذلك الوجه الخمري الجميل الذي ازداد فتنة وجمالا بسبب طابع الحسن أسفل ذقنها، هذان النهدان اللذان يبرزان في تحد وشموخ، هذا الجسد المتناسق الذي يتلوى أمامه كحبة رقطاء..

فاق حمزة من شروده على صوت "أسعد"، وهو يضحك قائلاً:

- روجت فين يا "حمزة" بيه؟

- سبحة الخلاق ! معقولة يا "أسعد" بيه دي بحق وحقيقي؟

- "سوزي" مش رقاصة عادية يا "حمزة" بيه، دي مبتشتغلش جوه مصر، ملوك وأمراء الخليج بيطلبوها بالاسم.

هتف "حمزة" قائلاً، وهو يتابع جسدها كالمسحور:

- دي هتخليني أعيد حساباتي من ثاني يا "أسعد" بيه، واسمح لـ (حوا) تدخل حياتي من جديد.

تراجع "أسعد" للخلف، وأخذ نفساً طويلاً من سيجاره، نفثه في تلذذ واستمتاع، ثم قال:

- سوزي هدية مني ليك يا "حمزة" بيه.

فَغَرَّ "حمزة" فاه هاتفا:

- هدية؟ معقول !

- أيوه يا "حمزة" بيه، سوزى مترفضش ليا طلب.

تابع "حمزة" جسد الراقصة، ثم نادى على جميل، وهمس في أذنه ببضع كلمات ذهب بعدها إلى خشبة المسرح، ونثر رزمة مالية علي جسد الراقصة، وهو يهتف بصوت جهورى سمعه الجميع:

- التحية دي من حمزة بيه الرشيدى.

والتقت عيناهما.. عينا حمزة، وعينا الراقصة، وابتسم أسعد في سعادة، وقلبه يرقص من الفرح..

وكان هناك آخر يرقص من الفرح أيضا.. كان الشيطان !



هناك..

عند أطراف القرية، وفي كوخ مصنوع من الغاب كان "سعد الزناتي" بصحبة رفيقه "التابعي" الذي كان يلازمه في السجن، وأمامهما يتصاعد بخار إبريق الشاي الذي يغلي فوق حفرة من النار، وقد فاحت رائحته في الجو، أخذ "الزناتي" - الذي تغير كثيرا، وقد ظهرت تجاعيد وجهه بكثرة، وكأن السنوات العشر التي قضاها بالسجن قد ضاعفت عمره مرتين علي الأقل - يتطلع للقرية التي تبدو من بعيد، ثم هتف بالتابعي:

- البلد اتغيرت كثير يا "تابعي".

ناوله "تابعي" كوب الشاي الأسود، وهو يقول:

- وإنت إيه اللي يهكم م البلد غير "حمزة" يا زناتي؟

برقت عينا "الزناتي" في غضب، وهو يقول:

- عندك حق يا "تابعي"، أنا مش عاوز غير "حمزة"، "حمزة" اللي حرّضني

على قتل "عبد المحسن" العمدة، وبعد كده بلّغ عني الحكومة، الندل، الجبان.

تناول "التابعي" رشفه من كوبه، وقال:

- احمد ربنا يا "زناتي" إن المحامي قدر يثبت إنها قتل خطأ، وإلا كان زمانك واخذ تأييدة أو إعدام.

تضاعف بريق الغضب في عيني "الزناتي"، وهو يقول بحقد:

- وهى عشر سنين بسيطة يا "تابعي"، دا اليوم كان بيمر عليها سنة.

- احمد ربنا يا "زناتي"، وأديك خلاص خرجت، وبقيت حُر و..

قاطعها "الزناتي" قائلاً، وعيناه يومضان ببريق يكاد يضيء الليل من حولهما:

- لا يا "تابعي" .. أنا مش هكون حُر إلا لما انتقم من "حمزة"، وأخليه

يدفع تمن كل دقيقة، وكل ثانية قضيتها في السجن و..

قاطعها "التابعي" قائلاً:

- بس خلي بالك يا "زناتي"؛ "حمزة" دلوقت مش حمزة بتاع زمان.

صرخ "الزناتي" في غضب:

- والله.. لو بقى وزير يا "تابعي"، لازم يدفع التمن، لازم.

وتلاحقت أنفاسه في سرعة، والغضب يعصف بكيانه، وفي تلك اللحظة

هبّت نسمة هواء خفيفة زادت النار اشتعالاً، فتراقص ضوءها علي بريق

عينيه الغاضب المخيف، وهو يقول بحقد وغل لا يمكن وصفهما:

- قلبي مولّع نار يا "تابعي" !



(٨٧)

بعد تلك الليلة شعر "حمزة" بالندم الشديد؛ لأنه قاطع النساء كل تلك السنوات، سنوات البحث عن النفوذ والجاه والسلطة، كل ذلك كان بسبب "سوزى" ..

"سوزي" التي جعلته في تلك الليلة يندم على كل لحظة مرت عليه بدونها ..

في تلك اللحظة خرجت "سوزى" لتوها من الحمام، وتناولت زجاجة الويسكي، وصبّت كأسين، ناولت أحدهما لحمزة، وضع كأسه جانبا، وهو يقول لها:

- "سوزى" .. مش هقدر أبعد عنك بعد النهارده.

تطلعت إليه في دلال، وقالت:

- "حمزة" بيه أنا أصلا مش عايشه في مصر و ..

قاطعها قائلاً كمن يتوسل ويتضرع، وهو يتفرس في ملامحها؛ باحثاً عن
السر الذي جذبه إليها:

- خليكى جنبى، واطلبى الي إنتِ عاوزاه، بس ما تسيينيش.

هتفت قائلة في دلال أكثر:

- الي تؤمر بيه يا "حمزة".

تطلع إلي عينيها في وله، وهو يقول:

- بس يا "سوزى" .. إنتِ عارفة وضعى الحساس و..

- عارفة يا "حمزة" بيه، متقلقش ومتفكرش فيا، المهم إنتِ، إنتِ بس.

تطلع إليها "حمزة" في سعادة، وجرع كأسه دفعة واحدة، وهو يحتويها بين

ذراعيه مرة أخرى !



(٨٨)

دخلت "وفاء" مبني الجمعية الزراعية بعد الثامنة بخمس دقائق ولأول مرة!

لقد جفاها النوم طيلة الليل، وهى تفكر في "فريد"، والذي زاد من قلقها أن أحدا لا يعرف عنه أية أخبار حتي "مختار" صديق عمره، وحين ألقت بجسدها في إجهاد خلف مكتبها، فوجئت بالأستاذ "مرتضى" يجلس خلف مكتبه، ويتطلع إليها في خجل كعاداته، تعجبت وفاء من نفسها كيف لم تراه حين دخلت، فقالت في عصبية:

- آسفة.. صباح الخير يا أستاذ "مرتضى".

- صباح الخير يا آنسة "وفاء".

ثم استطرد في خجل، وهو يعدل وضع نظارته كعاداته:

- متأخره خمس دقائق، على فكرة أنا قلقك عليك أوي.

رسمت علي شفيتها ابتسامة باهتة، وهي تقول:

- متشكرة يا أستاذ "مرتضى".

وفتحت الدفتر الكبير لتراجع بياناته، وفجأة سقطت منه وردة حمراء،
تطلعت للوردة، ونظرت للأستاذ "مرتضى" الذي بدا عليه الارتباك، فقالت
له بذهول:

- إيه دا يا أستاذ "مرتضى"؟

- دي وردة.

هتفت قائلة في صرامة:

- عارفة إنها وردة.. مين حطها هنا؟

انتابت "مرتضى" حالة من التوتر والخلج الشديد، فراح يقضم
أظافره، وكأنه طفل ضبطته أمه متلبساً بخطأ ما، ثم رد قائلاً في تلثم:
- أنا.

- ليه؟

- هو أنتِ مش عارفة لغة الزهور؟

- لغة الزهور!

- أيوه.. كل زهرة وليها لغة خاصة بيها، فمثلاً الزهرة البيضاء بتدل ع
الطهارة والنقاء، والصفراء الغيرة أما الحمراء..

وصمت قليلا، وراح يعدل ياقة قميصه قائلا، وهو يتطلع إليها في وله
وهيام:

- الحمرا تعني الحب ..

قاطعته "وفاء" ذاهلة:

- أستاذ "مرتضى" .. إنت اتجننت ؟ !

ارتبك مرة أخرى، وراح يعدل نظارته، وهو يردد بتلعثم:

- في الحقيقة يا آنسة "وفاء"، أنا معجب ببيكي وعاوز ..

قاطعته "وفاء" قائلة، وهي تنهض من مقعدها ملوحة بالزهرة في وجهه:

- أستاذ "مرتضى" .. دا مكان للشغل وبس، ومش هيكون في يوم م

الأيام بينا غير الشغل .. فاهم؟

قالت ذلك ثم سحقت الزهرة تحت قدميها في عنف .. منتهى العنف !



بعد منتصف الليل وصل العمدة "ربيع" إلى الدوار، وقد عاد لتوه من فيلا "أسعد السنوسي" الجديدة، والتي تمّ بناؤها علي مساحة فدانين من الأرض، وقد أحيطت بحديقة واسعة حافلة بشتى أنواع الفواكه والزهور، وكان "أسعد السنوسي" قد دعاهم لحفل ضخم بمناسبة بناء فيلته الخاصة الجديدة، دخل العمدة "ربيع" لدواره، وهو يدندن أحد الألحان لمطرب شاب سمعه في الحفل، دفع "ربيع" باب حجرة النوم، وهو يمني نفسه بليلة هادئة بعد هذه السهرة الجميلة الممتعة وفجأة..

كادت عينا العمدة تقفز من محجريهما، وهو يرى زوجته مقيدة علي مقعدٍ يواجه باب الغرفة بحبل، ويوجد علي قمها منديل يمنعها من الصراخ، وفوق رأسها يقف رجل ملثم، يصوب مسدسا لرأسها.. هتف المثلثم - والذي لم يكن سوى "الزناتي" - وهو يلوح بمسدسه في وجه العمدة:
- أهلا يا "ربيع" ..

- خرج صوت العمدة بصعوبة قائلاً:
- إنت مين؟ وإزاي دخلت هنا؟ وفين الغفر البهايم؟!
- ردّ "الزناتي" قائلاً، وهو يرفع لثامه:
- فاكرني ولا لأ يا "ربيع"؟
- هوى قلب العمدة بين قدميه، وهو يهتف بارتياح:
- مين.. "الزناتي"؟!
- أيوه "الزناتي" يا عمدة.
- قاطععه "ربيع" قائلاً في رجاء، وهو يتطلع لزوجته المقيدة:
- أرجوك يا "زناتي"، الحاجة عندها القلب، ومش هتستحمل، وبعدين إحنا أصحاب من زمان و..
- قاطععه "الزناتي" في غضب:
- والخيانة يا عمدة.
- هتف "ربيع"، وهو يكاد يبكي:
- حمزة هو السبب والله يا "زناتي".
- وإنت فرحت بالعمودية يا ااااا عمدة.

انحنى ربيع يقبل قدم "الزناتي"، قائلاً في مذلة:
 - أرجوك "يا زناتي" ارحمني... ارحمني.
 هتف "الزناتي"، وهو يسدد مسدسه لرأس "ربيع":
 - عاوزك تبلغ "حمزة" رسالة.
 - اللي تؤمر بيه يا "زناتي"، أنا تحت أمرك.
 جحظت عينا "الزناتي" في جنون، وهو يقول:
 - تبلغ "حمزة" إني عاوز منه ربع مليون جنيه وإلا..
 وصمت قليلاً، ثم استطرد في وحشية:
 - وإلا حياتك وحياته.
 قال "الزناتي" ذلك، ثم دفع ربيع أرضاً، وقفز من النافذة، واختفى وسط
 الظلام كالشبح!



(٩٠)

شرعت الطائرة القادمة من برلين تستعد للهبوط بمطار القاهرة، من نافذة الطائرة تطلع "فريد" لأرض المطار، وهتف في نفسه، وأعماقه تموج بانفعالات شتى:

- أخيراً مصر !!

استقرت عجلات الطائرة في أرض المطار، وقف "فريد الرشيدى" على سلم الطائرة، وصوت المضيفه يهتفهم بسلامة الوصول لأرض الوطن، ويخصّس بالتحية رجل الأعمال الملياردير "فريد الرشيدى" ..

ظل "فريد" واقفاً على سلم الطائرة مرتدياً معطفاً طويلاً فاخراً من أجود ما أنتجته المصانع الإنجليزية، من خلف نظارته أخذ يتطلع لمطار القاهرة، إلى البشر، إلى المباني التي تبدو من بعيد..

وشخص بنظره بعيداً؛ علّه يرى المكان الوحيد المسيطر على كيانه في تلك اللحظة.. قريته !

أخذ يهبط درجات السلم في ببطء، وعيناه تتصفح ذلك الكم الكبير من كبار رجال الدولة الذين جاءوا لاستقباله؛ بصفته صاحب أكبر صرح استثماري في مصر والشرق الأوسط، وتجمعهم به العديد والعديد من المصالح الشخصية، وصل "فريد" لآخر السلم، وراح يتطلع لأيديهم، وهم يتسابقون لمصافحته، أخذ يتطلع لأيديهم الممدودة بشroud، وفي تلك اللحظة - وبطريقة لا إرادية - تراقصت أمام عينيه صورة مشهد أهل القرية، وقد وقفوا علي رأسه بالنباتات والمشاعل يطلبون منه الرحيل، وقد أفسحوا له طريقا ضيقا بينهم ليمر منه هو ووالدته.. تقلصت ملامح وجهه في غضب مكتوم، وهو يمد يده ليصافح ذلك الرجل الذي يحتل منصبا كبيرا في الدولة، والذي أتى لهيئته بسلامة الوصول..

ظل "فريد" يرد تحية مستقبلية بابتسامة بسيطة، ومشهد أهل قريته لم يغادر مخيلته قط..

غادر المطار من صالة كبار الزوار، في حين رجاله ينهون إجراءات وصوله بسرعة، وفي خارج المطار كان بانتظاره أسطول من السيارات، في مقدمتها سيارة ذات موديل حديث لا يوجد منه عشر سيارات على مستوى العالم أجمع !

دلف "فريد" إلى العربة الفارحة بعد أن فتح له السائق الباب، واسترخى في المقعد الخلفي، وراح يشعل سيجاره، وينفثه في هدوء، وعيناه تدوران مع المباني والسيارات، وما زال مشهد أهالي قريته يتراقص أمام عينيه !

(٩١)

داخل حديقة فيلته وقت الظهيرة، جلس "حمزة" يدخن سيجاره، وأمامه
فنجان قهوته على غير عادته في ذلك التوقيت.. في تلك اللحظة وصل "
أسعد السنوسي" الذي هتف ضاحكا، وهو يجلس على مقعد مقابل لحمزة:
- إِنْتَ فين يا "حمزة" بيه؟ مش باين من يومين.

ابتسم "حمزة" مرحبا به، ثم قال:

- كنتُ محتاج أكون مع نفسي شوية يا "أسعد" بيه؛ فيه حسابات كتيرة
في حياتي عاوزه تتعدل.

وضع أسعد ساقا فوق ساق وقال، وهو يشعل سيجاره:

- خير يا "حمزة" بيه.. أنا عمري ما شوفتك مهموم كده!

تراجع "حمزة" بظهره للوراء في مقعده، وقال في شرود:

- مرة واحدة اكتشفت إن العمر بيجري، وأنا زي ما أنتَ شايف من غير
ولد ولا وريث.

ضحك "أسعد"، وقال:

- وهو فيه أجهل من كده يا "حمزة" بيه؟ الواحد يكون زي الفراشة من زهرة لزهرة.

أخذ "حمزة" نفسا عميقا من سيجارة، وقال:

- لا يا "أسعد" بيه... أنا باتكلم بجد، والواحد محتاج وقفة مع نفسه.
تناول "أسعد" فنجان قهوته من الخادم، ورشف منه رشفة، وهو يقول ضاحكا:

- واضح يا "حمزة" بيه إن سوزى غيّرتك كثير؟

أشار "حمزة" بيده، وهو يضع ساقا علي ساق، وهو يقول في شروده:

- تعرف يا "أسعد" بيه إن "سوزى" دي هي الحاجة الوحيدة الي خدمني فيها الحظ؛ طول عمري وأنا بوصل لى أنا عاوزة بعد تخطيط وتفكير، بس "سوزى" الوحيدة الي دخلت حياتي، وقلبها من غير أي تخطيط، وكشفتلي إن الحياة مش بس نفوذ وسلطة وفلوس ..

قاطعه "أسعد" قائلا، وهو يهيم بالانصراف، وعلى شفثيه ابتسامة:

- كفاية شعر في "سوزى" يا "حمزة" بيه، معلش أنا مضطر أمشي دلوقت؛ عشان ورايا معاد مهم في القاهرة.

ودعه "حمزة" حتى باب الفيلا، وبمجرد أن انصرف "أسعد" حتى فوجئ بربيع العمدة يقتحم عليه بوابة الفيلا، وهو يلهث قائلا:

- كارثة يا "حمزة" بيه.. كارثة.

التفت إليه "حمزة" في ضيق، وقال:

- إيه اللي حصل يا عمدة؟
- "الزناقي" خرج م السجن.
- ارتعدت أطراف "حمزة" بطريقة ملحوظة، وشحب وجهه، وكاد السيجار يقع من يده، وهو يرد في رعب:
- مين؟! الزناقي!
- أيوه يا "حمزة" بيه، "سعد الزناقي" خرج م السجن، وجاني إمبراح، وعاوز منك ربع مليون جنيه وإلا هيقتلك ويقتلني.
- صرخ "حمزة" في جنون:
- ربع مليون جنيه! هو مش عارف أنا مين؟! أنا "حمزة الرشيدى".
- رد "ربيع" في رعب:
- بس يا "حمزة" بيه..
- قاطعته "حمزة" في غضب:
- متخافش يا عمدة، دا أنا بتليفون صغير أرجعه السجن مرة ثانية، وميخرجش منه خالص.
- وصمت للحظة ثم استطرد قائلاً، وهو يربّت على كتف العمدة:
- رُوّح أنت يا عمدة، ومتشغلش بالك.
- تركه "ربيع"، وهو يتعثّر في خطواته، في حين كان "حمزة" يصرخ في أعماقه، وقد تضاعف قلقه آلاف المرات:
- معقول.. إنت من تاني يا "زناقي"!

(٩٢)

داخل مستشفى الأمراض العقلية، كان الدكتور "عزالدين الرشيدى" جالساً فوق دكة خشبية بحديقة المستشفى، وأمامه مجموعة من المرضى، قد أجلسهم في صفوف متتالية، وكأنهم في أحد الفصول الدراسية واحتل هو - عز الدين - موقع المدرس من فوق الدكة الخشبية، وراح يهتف بصوت أشبه بالأنين، وكل ملاحمه تنطق بالألم والانهايار:

- بعد ربع قرن م الغربية، قلتُ أرجع بلدى، أرجع للأهل والأحباب، أرجع للوطن، بس اتضح إني كنتُ أكبر مغفل، وإن المعاني الجميلة اللي كانت جوايا وهم.. سراب.

وصمت الدكتور "عز الدين" فجأة، وراح يُحمَلُّق في المرضى أمامه للحظات، استطرد بعدها وقد هبّ واقفا فوق الدكة، وراح يلوح بعصا صغيرة وهو يصرخ قائلاً، وقد جحظت عيناه بطريقة مخيفة:

- إنذار..

إنذار لكل اللي يهमे الأمر، القيم والأخلاق والمبادئ في خطر، كل معادلات الكون اختلت، انهارت؛ في أمريكا فرشولي الأرض ورد وهنا في بلدي مفيش غير الشوك، هناك عرضوا عليّ الملايين وهنا نهبوا حقي الشرعي، هناك بنوا لي القصور وهنا دخلوني مستشفى المجانين.. أنا الدكتور "عز الدين الرشيدى"، أنا اللي درّست في جامعات كاليفورنيا وأكسفورد..

هنا.. هنا في مستشفى المجانين.

وفجأة هوى الدكتور "عز الدين" فوق الدكة الخشبية في حالة انهيار تام، في حين كان المرضى ينظرون إليه في بلاهة، وكأنّ الأمر لا يعنيه في شيء، على بعد أمتار قليلة مما حدث، كانت هناك فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها، كانت تراقب ما يحدث ودموعها تنهمر على خدها الوردي الجميل في ألم ومرارة.. ربّت الطبيب - الذي يقف بجوارها - على كتفها في حنان أبوي، وهو يقول:

- زي ماشوفتي يا بنتي، هي دي حالة الدكتور عز الدين.

تطلعت الفتاة إلي اثنين من الممرضين بالمستشفى، وهما يحملان أبيها الدكتور عز الدين، وقد فقد وعيه فوق الدكة الخشبية إلي داخل العنبر، وامتلات عيناها بريق غاضب خفيف، وهي تهتف في أعماقها:

- لازم "حمزة" يدفع التمن.. لازم.

وتضاعف بريق الغضب في عينيها مرات ومرات !

(٩٣)

في مكتبه الرئيسي بذلك الحي الراقي من أحياء القاهرة، وقف "فريد" يتأمل صورته الضخمة التي تكاد تحتل حائطاً بأكمله، ظلّ ينظر للتغيرات التي طرأت على الصورة عن ذي قبل، تطلع لشاربه الضخم الرابض فوق شفتيه في شموخ، تطلع إلى تجاعيد وجهه التي ظهرت بوضوح، مما يوحي بأن السنوات العشر الماضية، قد ضاعفت عمره مرات ومرات، تطلع إلى عينيه، وقد خلت من الصفاء الذي كان يميزها، تطلع إلى السيجار الفخم الذي لا يفارق شفتيه..

ظلّ على حاله تلك اللحظات، اتجه بعدها إلى مكتبه في بطاء، وفتح درج مكتبه، وتناول منه ثلاث صور فوتوغرافية كبيرة الحجم، صور أبيه وأمه وحبيبته مديحة..

أخذ نفساً عميقاً من سيجاره، وهو يرجع بظهره إلى الخلف..
تركزت عيناه على صورة والده الحاج "محمود"..
تذكر حبه وحنانه وعطفه..

تذكر كيف كان يعلم بأمر حبه لمديحة، وكيف رحّب بذلك، ووعدته بأن
يعقد قرانها بعد النجاح..

ابتسم "فريد" بمرارة، وقال في أعماقه:

- ياريتنا ما استثنينا يا حاج !

وضع صورة أبيه، وتناول صورة أمه..

وتذكر كيف كانت تدعو صباح مساء أن يكون مثل "حمزة"..

هتف في أعماقه بمرارة:

- ياريتك هنا دلوقت يا أمي عشان تشوفيني بالصورة الي كنتِ بتتمنيها!

وضع فريد صورة أمه، وتناول صورتها.. صورة "مديحة"..

الفتاة التي سيظل دوما وأبدا حابسا نفسه في محراب حبها إلى الأبد..

الفتاة التي حرّم علي نفسه كل النساء من أجلها..

من درج مكتبته تناول الرسالة التي تركتها له قبل موتها..

فضّ الرسالة في لهفة، وكأنه يقرأها للمرة الأولى، وراح يطالع كلماتها التي

قرأها آلاف المرات خلال السنوات الماضية، ثم طواها بكل الحرص، وهو

يعيدها لمكانها..

بكل ما تموج به أعماقه ضغط أحد أزرار مكتبته، ومن حلقه انطلقت

تنهيدة حارة في نفس اللحظة التي دخلت إلى مكتبته سكرتيرته الحسنة، التي

هتفت في هدوء:

- أوامرڪ "فريد" بيه.

تطلع إليها "فريد"، غير مباليٍّ بجماها الصارخ، قائلاً لها، وهو يشعل
سيجاره:

- ابعثي حد يصرف الشيك دام البنك حالا.
خرجت السكرتيرة لتنفيذ الأمر، في حين رفع "فريد" سماعة هاتفه،
وهتف عبرها قائلاً:
- أهلاً.. إيه الأخبار؟ عظيم.. مستنيك بكره الساعة تمانية في فيلا
الهرم.

وضع "فريد" سماعة الهاتف، وأخذ نفساً عميقاً من سيجاره في استمتاعٍ،
وقد لمع في عينيه بريق..
بريق جنوني عجيب!



(٩٤)

عجبا لذلك الجسد!

إنه كلما ازداد منه قربا ازداد اشتياقا له!

إن المرء - أي امريء - ما أن يراه حتى يشعر بالظماً!

هذا ما شعر به "حمزة" حين افترش الأرض - يجرع من زجاجة الخمر
مباشرة - تحت قدمي "سوزي"، التي ارتدت قميصا شفافا، وراحت تتمايل
في جنون بإحدى رقصاتها المثيرة..

رمته "سوزي" بنظرة من نظراتها التي يخترُ أمامها أقوى الرجال، ثم توقفت
عن الرقص، واتجهت للكاسيت وأغلقتة.. ثم اتجهت إليه، وأحاطت عنقه
بذراعيها من الخلف، قائلة بدلال:

- بتحبني يا "حمزة"؟

أخذ جرعة أخرى من الزجاجة، وهتف وعيناه معلقتان بذراعيها البضة:

- وهى حياتي ليها معنى من غيرك يا "سوزي"؟

- أخذت تعبت بأصابعها الرقيقة خلف أذنه، وقالت بدلال أكثر وأكثر:
- "حمزة" .. إنتَ عارف إن أنا سيبت شغلي، وقعدت معاك هنا ..
- قاطعها قائلاً في قلق:
- "سوزى" .. قولي عاوزه إيه؟
- عاوزاك تأمّن مستقبلي.
- هام بعينه في وجهها الفتّان، وقال دون وعي:
- اطلبي وأنا أنفذ.
- تضاعف الدلال في صوتها مرات ومرات، وهي تهمس في نعومة:
- اكتب لي الفيلا.
- تطلع إليها "حمزة" طويلاً هذه المرة، وقال بذهول:
- الفيلا؟ !
- قطبت ما بين حاجبيها في غضب طفولي زادها فتنة وجمالاً، وهي تقول:
- غالية عليّ؟
- تناول "حمزة" الزجاجاة، وجرع ما فيها مرة واحدة، ومسح فمه بكمه قائلاً، وهو يضحك بشدة:
- لا .. لا يا حبيتي، زي ما أنتِ عاوزه، هاكتبلك الفيلا.
- والتصق الجسدان في جنون، وكأنهما مصابان بالحمى !

علي شاطئ البحيرة جلس "مختار"، وكانت بجواره "وفاء" التي كانت تتطلع إلى "دياب" الذي يجلس بعيدا عنهما، يتطلع لمياه البحيرة، وهو يناجيها كعادته، كانت بيد "مختار" عصا صغيرة، راح يرسم بها أشكالا على الأرض، ثم يمسحها، ويعيد الكرة من جديد، هتفت "وفاء" قائلة:

- عارف يا "مختار"، القرية بتاعتكوا دي جميلة أوي، بس مش عارفه ليه حاسه بحاجة مش مريحاني فيها، حاجة مش فاهماها و..

توقف "مختار" عن العبث بعصاه، وقال مقاطعا إياها، وقد شرد بنظره بعيدا:

- عمر بلدنا ما كت كده يا "وفاء"، طول عمرها نموذج للنقاء والطيبة، لدرجة إني كنتُ بتمنى أعيش فيها عمري كله.

- وإيه اللي حصل؟

- الخوف.. الخوف يا "وفاء" اللي سيطر علي أهلها، وخلاهم مش عارفين أنفسهم.

لمعت عينا "وفاء" في فضول، وقالت:

- وهو الخوف برضه الي خلى "فريد" يسيبها؟

تقلصت ملامح "مختار" في ألم، وقد ضغطت "وفاء" على الجرح وبكل قسوة، فتناول حجرا ألقاه في البحيرة قبل أن يرد، قائلاً:

- لا يا "وفاء".. فريد التحمل الي ميتحملوش حد، صحي في يوم لقي كل الي بيحبهم راحوا منه، أبوه وأمه وحييته، وكم أن أكثر واحد بيعاديه في الدنيا أخوه.

قاطعته "وفاء" متسائلة:

- وإن كنت فين يا "مختار"؟

- أنا ! أنا عمري ما حسيت بالعجز زي ما حسيت ساعتها؛ كنت بين نارين، بين صاحب عمري، وبين أختي الي اتسبب في موتها، وبقيت كل ما أشوفه، مش عارف أعمل إيه، أواسيه ولا أنتقم منه؟

قال ذلك وأعطاهما ظهره؛ ليخفي دمة خدعته، وسالت علي خده، ووفاء تتطلع إليه، وقلبها ينزف دما من أجله.. التفت إليها "مختار"، وقال بصوت يقطر حزنا ومرارة:

- صدقيني يا "وفاء".. إحنا كلنا عايشين في سجن واحد، والسجان هو "حمزة الرشيدي" !!!

وبرقت عيناه في جنون.



(٩٦)

توقفت سيارة "فريد" الفارهة أمام مقهى الحاج "رضوان" في حي القلعة، ونزل منها قبل أن يفتح له السائق الباب، وعلى وجهه علامات الدهشة؛ كان المقهى يحتفظ عن آخره بالبشر، وعلى باب المقهى عُلقَت لافتة مكتوب عليها "بيع المقهى في المزاد"، شقَّ "فريد" طريقه بصعوبة، وسط الموجودين، وسأل أحدهم:

- فين المعلم "رضوان"؟ وليه يبيع القهوة؟

- الحاج "رضوان" - ربنا يشفيه - مريض من مدة طويلة، وابنه يبيع القهوة عشان مصاريف العلاج.

تركه "فريد"، وشقَّ طريقه حتى وصل للمنصة، وسمع أصوات الحاضرين المشاركين بالمزاد:

- مئة وخمسين ألف جنيه.

- مئة خمسة وخمسين ألف جنيه.

اقترب "فريد" من الرجل الذي يدير المزاد، وقال له:

- من فضلك ممكن تلغي المزاد دا؟

وقبل أن يرد الرجل برز "ممدوح" من أحد الأركان، وهو يقول بذهول:
- إنْتَ مين؟ و..

فغر "ممدوح" فاه في ذهول، وهو يتطلع لفريد قائلاً:
- مش ممكن! فريد الرشيدي!

وتعانق الصديقان وسط تساؤلات الحضور.. صعد "فريد" مع "ممدوح" إلى البيت حيث يرقد الحاج "رضوان"، وقد تم إلغاء المزاد بعد أن وعدهم "فريد" بأنهم سيحصلون على أموالهم في المساء، ربّت "فريد" على كتف صديقه الذي تضاعف عمره مرات ومرات؛ لحزنه على والده المريض، قائلاً له وهما يدخلان الشقة حيث الوالد:

- اتغيرت كثير يا "ممدوح".

ابتسم "ممدوح" قائلاً، وهو يتطلع لملابسه الفخمة:

- وإنْتَ كمان اتغيرت يا صحبي، بس للأحسن.

شرد "فريد" بنظره بعيداً، وقال:

- مين يعرف يا "ممدوح".. مين يعرف؟!

وقعت عيناً "فريد" في تلك اللحظة على جسد الحاج "رضوان"، وكان قد تكوّم فوق الفراش، وظهرت عليه علامات المرض والشيخوخة، فقال في إشفاق:

- أَلْف سلامة عليك يا حاج "رضوان".

هتف الرجل في ألم، وهو يحاول أن يتبين ملامح "فريد":

- إِنْتَ مين يا ابني؟

ردّ "مدوح" في سعادة:

- دا "فريد" يا حاج.. فريد الرشيدى صديقي.

ردّ الرجل في وهن، قائلاً:

- أهلا يا ابني.. حمدا لله ع السلامة.

ثم التفت لابنه، وقال في ألم:

- المزاد خلص يا "مدوح"؟

هتف "مدوح" قائلاً في سعادة، وهو ينظر لفريد:

- لا يا حاج.. المزاد اتلغى.

سعل الرجل في شدة، وقال بذهول:

- اتلغى إزاي يا ابني؟ وهنعمل إيه مع الديانة و..

ربت "فريد" على كتف الرجل، وقال:

- متقلّش يا حاج "رضوان"، كله هياخد حقه دلوقت.

- إزاي يا ابني؟ ومنين؟ دول أكثر من خمسين ألف جنيه!

ربّت "فريد" على كتفه؛ ليطمئنه ثم أطلّ من النافذة، وأشار لسائقه الخاص الذي يقف أسفل المنزل، صعد إليه السائق، وأعطاه حقيبة سوداء،

ثم عاد لأسفل المنزل مرة أخرى، فتح "فريد" الحقيبة أمام "ممدوح" ووالده اللذين أصابهما الدهول، وهما يتطلعان للحقيبة المكتظة بالأموال..
هتف الأب:

- إيه الفلوس دي كلها يا ابني؟!

شرد "فريد" بنظره بعيدا، وقال:

- دا الدين بتاعك اللي في رقبتى يا حاج، وأنا حلفت لأبويا قبل ما يموت إنني أرجعه.

قال "فريد" ذلك ونهض من مكانه، وأغلق باب الحجرة جيدا، وأخذ "ممدوح" من يده، وجلسا معا على طرف فراش الحاج "رضوان" و..
روى لهما كل شيء عن حكاية عم عدوي، والأموال التي وجدها بالشفقة، والأزمة التي كان يمر بها والده، والقسم الذي أقسمه لوالده.. وكل شيء..
وما أن انتهى من قصته حتى تناول مصحفا بجوار وسادة الحاج "رضوان"، وقال لممدوح:

- الشنطة دي يا "ممدوح" فيها ربع مليون جنيه، فلوس عم عدوي بالفوايد بتاعتها طول السنين اللي فاتت، وزى ما أنت عارف الفلوس دي كلها من حق الدولة، وأنت هتردها على أساس إنك لقيتها في شقتكم القديمة.
صمت "فريد" لحظات، تطلع فيها إلى "ممدوح"، وقال وهو يضع المصحف أمامه:

- بس الأول يا صحبي، هتحلف ع المصحف دا إنك هترجع الفلوس، بعد ما أزمتمكم تعدي على خير.

(٩٧)

داخل إحدى الشقق المفروشة في ذلك الحي الراقي من أحياء القاهرة..
تطلعت الفتاة التي كانت في زيارة الدكتور "عزالدين" إلى الرجال
الخمسة الذين يقفون أمامها، وهتفت قائلة، وعيناها تلمعان ببريق الحقد
والغضب:

- عاوزه النار تحرق كل حاجة، فاهمين.

رد الرجال الخمسة بصوت واحد، وهم يغادرون شقتها:

- تحت أمرك يا هانم.

التفت إليها شاب في أوائل الثلاثينات، كان يجلس في ركن الاستقبال منذ
البداية، وتبدو على وجهه ملامح عدم الرضا، وقال بلهجته العربية المكسرة:

- "هالة" .. أنا مش موافق ع الكلام دا.

ردت "هالة"، قائلة في غضب شديد:

- بتقول إيه يا "جاك"؟ إنت نسيت اللي حصل للدكتور "عزالدين"؟

نسيت إيه اللي جابنا من أمريكا؟ نسيت وعدك ليا قبل ما نيجي مصر؟

التفت إليها، قائلاً في ارتباك:

- منستش يا "هالة"، بس ممكن نلجأ للقانون ..

تضاعف بريق الغضب في عينيها، وهى تقول:

- قانون !

الدكتور "عزالدين" اختار القانون.. شوفت حصله إيه؟ رموه هناك في

مستشفى المجانين بعد ما قتلوا الدكتور "نصر".

وصمتت للحظة، أشعلت فيها سيجارتها الرفيعة، وسحبت نفساً طويلاً

قالت بعدها، وبريق الغضب يتضاعف مرات ومرات في عينيها:

- اسمع يا "جاك"، حمزة الرشيدى لازم يدفع الثمن، سامع هيدفع

الثمن.

واهتزت جدران الغرفة من دوى صرختها، وهى تضرب بقبضتها على

المائدة بكل العنف ..

وكل الغضب !



(٩٨)

توقفت "وفاء" عن مراجعة الدفتر الذي أمامها، وهتفت في الأستاذ "لمعي":

- أستاذ "لمعي" .. واضح إنك غلطان في الاستمارة دي.

تطلع إليها "لمعي" في ضيق، وسخط، وكأنه لا يقبل أن تعدل عليه فتاة في

عمله، وقال:

- غلطان !

- أيوه .. فكمية السهاد المصروفة للمدعو "حمزة الرشيدى" أكثر من

الحصة المقررة له.

ارتبك "لمعي"؛ لأن "وفاء" استطاعت أن تكشف ذلك، وهتف بتوتر:

- أيوه .. بس ..

هتفت باستنكار، وهى تُنحي الدفتر جانبا:

- بس إيه يا أستاذ "لمعي"؟

ابتسم "لمعي"؛ ليخفي توتره، وقال:

- حمزة بيه الرشيدى حالة خاصة يا آنسة "وفاء" ..

قاطعته قائلة باستهجان، وقد رفعت حاجبيها:

- حالة خاصة؟! وعلي حساب مين؟ الناس الغلابة!

اقترب منها "لمعي"، وقال في خفوت:

- كثير من الناس الغلابة بيستخدموا السهاد البلدي؛ عشان مش قادرين يشتروا سهاد الجمعية ..

وصمت لحظة، اقترب فيها أكثر وأكثر من "وفاء"، وقال لها هامسا:

- وبعدين "حمزة" بيه راجل طيب، وهيدفع لنا الفرق ..

نهضت "وفاء" من مكانها صارخة، وهى تضرب مكتبها بقبضتها في قوة:

- هيدفع لنا الفرق! إنت فاكرني إيه يا أستاذ "لمعي"؟ شيخ منصر!

ثم استطردت قائلة، وهى تلوّح بإحدى ورقات الدفتر قائلة:

- اسمع .. دا الإنذار الأخير ليك، ولو اتكررت هحولك للشئون القانونية، والسهاد اللي خده "حمزة" فوق حصته يرجع للمخازن فورا، والاستمارة دي مش هوقّع عليها، سامع؟
وألقت بنفسها على مقعدها في عنف!



(٩٩)

بعد انتهاء الحفلة التي أقامها "فريد" في فيلته بالهرم، وحضرها كبار رجال الدولة، وكبار رجال الأعمال في مصر والوطن العربي.. ألقى فريد بجسده فوق مقعده في ردهة الفيلا، وراح يدخن سيجاره في شرود، أقبل الخادم في تلك اللحظة يقول:

- الأستاذ "أسامة المهدي" وصل يا أفندم.

تطلّع إليه "فريد" بنفس الشرود للحظات، ثم هتف به قائلاً:

- خليه يدخل المكتب بعد خمس دقائق.

نهض "فريد" متوجهاً لحجرة مكتبه، ووقف خلف النافذة ينفث دخان سيجاره، ويتطلع للأهرامات التي تبدو شاخخة من بعيد، وقد سطعت عليها أضواء القمر في تلك الليلة، التي بدت غريبة في فصل الشتاء.. في تلك اللحظة طرق الخادم الباب، ودخل خلفه المدعو "أسامة المهدي" ليهتف به "فريد" ضاحكاً وهو يقول:

- أهلاً يا "أسامة".. ولا أقولك يا "أسعد" بيه.

- ابتمسم "أسامة المهدي" الذي يتتحل شخصية "أسعد السنوسي" قائلاً:
- في الحقيقة الخطة اللي حضرتك حطتها كانت ممتازة يا "فريد" بيه.
- دعاه "فريد" للجلوس، وجلس خلف مكتبه، وهو يقول:
- دا عشان "أسعد السنوسي" شخصية حقيقية بالفعل، بس اللي الناس متعرفوش إنه مات في الكويت من سنتين، واندفن هناك .
- قدم "أسامة" تقاريره التي أعدها عن القرية لفريد، وهو يقول:
- كل حاجة ماشية حسب الخطة يا فريد بيه.
- أشعل فريد سيجاره، وراح يطالع التقارير وابتسامته تتسع شيئاً فشيئاً، وهو يردد قائلاً:
- عظيم.. عظيم يا "أسامة"، معنى كده إن "حمزة" خلاص يشق فيك.
- مش "حمزة" بس سعادتك، البلد كلها بتتمنالي الرضا.
- نهض "فريد" من خلف مكتبه، واتجه للنافذة ملقياً نظرة أخرى على الأهرامات، ثم قال، وهو يأخذ نفساً عميقاً من سيجاره:
- والأرض يا "أسامة"؟
- تناول "أسامة" أحد الملفات التي معه، وقدمه لفريد قائلاً:
- معظم أراضي البلد باسمي دلوقت، أقصد باسم سعادتك "فريد" بيه
- بس..
- قاطعاه "فريد" قائلاً من خلف دخان سيجاره:
- بس إيه..؟

تردد "أسامة" قليلا، ثم ردّ قائلا:
- فيه بعض الأهالي رافضين البيع.
- والحل؟
- في الحقيقة معرفش يا "فريد" بيه.
وفجأة.. تقلصت عضلات وجه "فريد" علي نحو مخيف، ولمع في عينيه
بريق غضب مخيف، وهو يصرخ في وجه "أسامة" ملوحا بسيجاره:
- أسامة ! كلمة معرفش ملهاش مكان في قاموس "فريد الرشيدى"..
احرق، ولع، دمر.. المهم اللي أنا عاوزه يكون.
وفي تلك اللحظة، أقسم "أسامة المهدي" بينه وبين نفسه - على الرغم
من معرفته السابقة بفريد - أنه لم يكن يعرفه من قبل.. لم يكن يعرفه قط!



(١٠٠)

- " صفقة العمر يا حمزة بيه "

هتف " أسعد " بتلك العبارة في وجه " حمزة " ، الذي كان يجلس عنده في حديقة فيلته الجديدة، فتطلع إليه " حمزة " في جشع قائلاً:

- صفقة إيه ؟ !

تناول " أسعد " تفاحة كبيرة راح يتطلع إليها، وهو يديرها بين أصابعه قائلاً:

- صفقة أغذية مكسبها مليون في المية .

- مليون في المية !

- أيوه يا " حمزة " .. هندفع خمسين مليون، والمكسب هيعدي النص مليار .

جحظت عينا " حمزة " في جشع، وقال مقاطعاً:

- نص مليار !

ثم استطرد قائلاً في توتر:

- بس خمسين مليون كتير وأنا..

قاطعته "أسعد" قائلاً، وهو يضع ساقاً على ساق:

- معاك كام يا "حمزة"؟

- السيولة تقريبا عشرين مليون.

- والأرض والودائع يا "حمزة"؟

ردد حمزة بذهول:

- الأرض؟!

تطلع "أسعد" إلى "حمزة"، وقبض على كتفيه قائلاً في حماس:

- اسمع يا "حمزة" بيه..أنا عارف إن الأرض غالية عليك، بس تخيل

معايا المكسب اللي هتاخده من صفقة زي دي.

صمت "حمزة" قليلاً، ثم قال وهو يبتسم:

- موافق يا "أسعد" بيه، موافق.

ابتسم "أسعد" قائلاً، وهو يشعل سيجاره:

- وأنا هفضل في ضهرك يا "حمزة" بيه، وهاشتري منك الأرض بالسعر

اللي تقول عليه، ومش هتخلّي عنك أبداً.

رَبَّتْ "حمزة" على كتف "أسعد"، وقال:

- بجد إنتَ إنسان عظيم يا "أسعد" بيه و..

قاطعُه "أسعد" قائلاً:

- سيبك من لحظة المشاعر دي يا "حمزة"، وبسرعة قوم وهات عقود الأرض؛ عشان نخلص الصفقة.

نهض "حمزة" سريعاً؛ ليحضر الأوراق، وهو يتخيل المكاسب التي ستعود عليه من هذه الصفقة، في حين راحت ابتسامة "أسعد" تتسع وتتسع بداخله حتى تحولت إلى ضحكة.. ضحكة ساخرة !



(١٠١)

حالة من القلق سيطرت على "ربيع" بعد ظهور "الزناتي" في حياته، وسيطر الرعب على مفاصله خاصة مع تجاهل "حمزة"، وعدم اهتمامه معتمداً على مركزه، وحصانته، ورجاله الذين يحرسونه، هتف بأعماقه، وعقله يكاد يشق من التفكير، وهو يجلس على أريكة داخل الدوار:

- وهتعمل إيه دلوقت يا "ربيع"؟ إنت عارف "الزناتي" كويس، وعارف إنه عمره ماهيسيب حقه... .

فجأة اقتحم عليه الغفير خلوته، قائلاً:

- فيه واحد عاوز يقابلك يا حضرة العمدة.

تطلع إليه "ربيع" في رعب، وقال:

- مين؟

- مش عارف يا حضرة العمدة.

تطلع "ربيع" إلى الغباء الذي ينضح من وجه الغفير، وأشار له إشارة تعني أن يجعله يدخل، فأسرع الغفير لتنفيذ الأمر، ومن وراءه ظهر "التابعي" رفيق الزناتي الذي سأله "ربيع" قائلاً:

- إنت مين؟

- من طرف الزناتي، وهو مستنيك عند الساقية المهجورة بعد ساعة.
تطلع إليه العمدة في رعب، وقد جفّ حلقه، وعجزت قدماه عن حمله،
ولم يستطع الرد، فاستطرد "التابعي" قائلاً قبل أن يتركه:
- متأخرش يا عمدة.
ظل "ربيع" يتابعه ببصره، وهو يكاد يبكي، وفجأة نهض، وكأنّه استرد
عافيته، وقال في نفسه:
- عليّ وعلى أعدائي.
ورغم أنه اتخذ قراره، إلا أن مفاصله كانت ترتعد من الرعب، كلما تخيل
ما يمكن أن يفعله "الزناتي"، وحاول كثيراً أن يلّم شتات نفسه المبعثرة،
ولكنه لم يفلح.. لم يفلح قط !!



(١٠٢)

هتف "مختار" قائلاً، وهو يسير بجانب "وفاء" على الطريق الزراعي:

- مش عاوزك تقفي في طريقهم يا "وفاء".

هتفت "وفاء" في ذهول:

- بتقول إيه يا "مختار"؟ عاوزني أشارك "لمعي" في جريمته؟

هتف في ألم:

- "حمزة" مش هيسيبك في حالِك.

ردت في تحد:

- هاواجهه يا "مختار".

رد "مختار" قائلاً بمرارة، لا يمكن وصفها، وهو يجذب أحد فروع الشجر

الجافة، ويحطمه في عنف، ويلقي به في البحيرة:

- إنتِ يا "وفاء" هتواجهي حمزة؟ !

"حمزة" دلوقت بقي وحش مسعور بينهش كل اللي يقرب منه.

قاطعته قائلة في ألم:

- أنا مقدرة خوفك عليا يا "مختار"، بس صدقني الهروب عمره ما كان حل.

تطلع إليها في يأسٍ، ولم يرد، فأرادت هي تغيير مجرى الحديث، فابتسمت قائلة:

- وبعدين يا فنان إنت نسيت اللي إحنا جاين عشانه؟ فين لوحاتك العظيمة؟

كانا قد وصلا لمنزل "مختار" في تلك اللحظة، فجلست "وفاء" على أريكة موجودة أمام المنزل من الخارج، في حين دخل "مختار" ليحضر لوحاته، راحت "وفاء" تتأمل مياه البحيرة، وابتسمت حين رأت "دياب" يجري على شاطئ البحيرة بطريقته المعروفة، وخلفه بعض الصبية يجرون وراءه، واتسعت ابتسامتها أكثر حين رأت طفلا ممن يجرون وراءه قد وقع أرضا، وإذا "بدياب" يتوقف عن الجري، ويتجه للطفل الصغير، ويساعده علي النهوض حتي يطمئن عليه، ثم يتركه ويمضي ليجري وراءه الصبية مرة أخرى.

خرج "مختار" في تلك اللحظة، فتناولت منه لوحاته قائلة:

- أيوه كده.. وريني إبداعاتك يا فنان.

تطلعت إلى اللوحة الأولى، والتي كانت تصور القمر وسط السماء، وقد بدا مخنوقا تحت هالة ضخمة من السحب التي بدت، وكأنها جاثمة فوق أنفاسه!

وكانت اللوحة الثانية لشاب يبدو وكأنه داخل زنزاة ذات أسوار عالية، يتحرك فيها بعينين زائغتين باحثا عن مخرج، ولكن بلا أمل!

وكانت الصورة الثالثة تصور يدا ضعيفة، وقد أمسكت بخنجر حاد،
وتستعد للطعن، ولكن هناك يدا أقوى منها تمسكها، وتشل حركتها !
هتفت "وفاء" في انبهار:

- إنتَ فنان يا مختار، فنان حقيقي بس..

وصمتت قليلا تفحصت فيها الصور مرة أخرى، وهي تقول:

- ليه الصور كلها كده اختناق، وحبس، وسيطرة.

شرد بنظره بعيدا، وكأنه يحاول أن يخترق الأفق بناظره، وقال في ألم لا
يوصف:

- عشان هو دا إحساسي يا "وفاء"، والفن الحقيقي هو اللي بيكون نتيجة
إحساس صادق .

هتفت قائلة، وهي تتطلع إليه مبتسمة:

- عندك حق يا فنان.



(١٠٣)

وصل العمدة "ربيع" عند أطراف البلدة، حيث توجد الساقية المهجورة، وفرائصه ترتعد من الخوف خاصة مع ذلك الظلام الذي يلف المكان في وحشة، أخذ العمدة يجر قدميه جراً متلفتاً حوله، وهو يبحث عن "الزناقي" داعياً الله بينه وبين نفسه أن يكون عزرائيل قد سبقه إليه لتنتهي متاعبه، ولكن خابَ أمله حين سمع من خلفه صوت "الزناقي"، يقول:

- أهلاً يا عمدة..

تمالك العمدة نفسه بصعوبة، وقال بصوت متحشرج:

- بص يا "زناقي"، أنا تحت أمرك، بس "حمزة" رفض، وهدد إنه هيرجعك السجن تاني.

تألقت عينا "الزناقي" ببريق غضب مخيف، أضاء الليل من حوله وقال، وهو يجذب "ربيع" من ملابسه:

- بتقول إيه؟! !

صرخ العمدة، وهو يكاد يبكي:
- أقسم بالله يا "زناقي" هو ذا الي حصل.
ترك "الزناقي" ملابسه، واستل سلاحه ورفعته في غضب قائلاً:
- الحيوان عاوز يغدر بيا تاني، لازم يدفع الثمن.. لازم.
قال ذلك، واختفى وسط الظلام كالشبح، في حين كانت عينا "ربيع"
تتابعه، وهو لا يصدق أنه ما زال علي قيد الحياة!



(١٠٤)

- "الآنسة وفاء عبد الحميد أحمد".

رفعت "وفاء" عينيها عن الدفتر الذي أمامها، وهى فى مكتبها فى ذلك الصباح، وتطلعت إلى ضابط الشرطة الشاب التابع لنقطة القرية، وتسلى القلق إلى صوتها، حين لمحت تلك الابتسامة المتشفية على وجه الأستاذ لمعى، وهى تردد:

- أيوه.. أنا "وفاء عبد الحميد".

تطلع إليها الضابط للحظة فى إشفاق، وقال:

- اتفضلي معانا.

نهضت من مكانها، وهى تقول كالمصعوقة:

- أنا؟!

- أيوه.. معايا أمر ضبط وإحضار.

- ليه؟!

- بتهمة الرشوة من "حمزة بيه الرشيدى".

هوت فوق مقعدها، وقد شحب وجهها حتى حاكى وجوه الموتى، في حين اتسعت ابتسامة "لمعي"، أما الأستاذ "مرتضى" فقد ظلّ يتابع الموقف بلا أي انفعالات؛ منذ موقفها الأخير معه حين كسرت قلبه، رفضت حبه.. صوت الضابط يتردد مرة أخرى:

- اتفضل معانا.

أخذت تتطلع للضابط في ذهول، وهي تشعر أنها في كابوس سرعان ما ستستيقظ منه، وخيل إليها وهي تسير بجوار ضابط الشرطة أن ابتسامة "لمعي" قد تحولت إلى ضحكة ساخرة ظلت تتردد في أعماقها وبكل قسوة!



(١٠٥)

خرج "مختار" من عمله بالقرب من وزارة الزراعة في ذلك اليوم في حي الدقي، ووقف على الرصيف ينتظر إحدى سيارات الأجرة؛ لتنقله إلى المحطة حيث القطار الذي سيأخذه إلى قريته، وفيما هو واقف بين الواقفين، إذا بسيارة مرسيدس سوداء تتوقف أمامه، ويطل من نافذتها رجل وقور أنيق الملبس، هتف بمختار في هدوء:

- حضرتك الأستاذ "مختار أبو السعد"؟

تطلع "مختار" إلى الرجل والسيارة، وقال في ذهول:
- أيوه أنا..

نزل الرجل من السيارة، وقال بنفس الابتسامة الهادئة، وهو يفتح باب السيارة الخلفي:

- من فضلك اتفضل معنا، فيه حد عاوز يشوفك.

هتف "مختار" قائلاً وهو يبتلع ريقه بصعوبة:

- أنفضل فين؟ ومين دا اللي عاوز يشوفني؟

ردّ الرجل في هدوء، وعلي شفثيه نفس الابتسامة التي بعثت الطمأنينة في نفس "مختار":

- أرجوك يا أستاذ "مختار" .. اتفضل معنا ومتقلّش.

ركب "مختار" السيارة بجوار الرجل الأنيق، وحين فتح شفثيه ليسأل مرة أخرى، قطع الرجل عليه الطريق، وقال له في هدوء:

- أرجوك .. متسألش ومتقلّش.

لاذ "مختار" بالصمت، ودارت في رأسه أفكار شتى ..

إنه لم يكن يوماً ذا ميول سياسية، وكان دائماً ينظر إلى زملائه في الجامعة الذين ينظمون المظاهرات، ويهتفون بشعارات مسجوعة لا معني لها، بأنهم مطمئنون إلى أن طعامهم متوافر مهما كانت الظروف، وكان دائماً يؤكد مع بعض من زملائه أن هؤلاء لو شعروا للحظة أن طعامهم في خطر لتوقفوا عن ذلك العبث - كما كان يعتقد هو -، وخرجوا مسرعين للبحث عن طعامهم، وكان - أيضاً - على يقين بأنهم ينفخون في قربة مثقوبة !

استيقظ من شروده على صوت الرجل الأنيق، وهو يدعوه للنزول أمام ذلك البرج الضخم في حي مدينة نصر، تطلع مختار للبرج، وبدأ قلقه يتضاعف ويتضاعف بداخله، تطلع إليه الرجل الأنيق - وكأنه شعر بما يدور في خاطره -، وربّت على كتفه قائلاً بنفس الابتسامة:

- متقلّش يا أستاذ "مختار".

هزّ "مختار" رأسه، ودخل وراء البناية الضخمة، واستقلاً معاً المصعد الذي توقف بهما في الطابق الثامن، وما أن خطا بقدميه داخل ذلك الطابق،

حتى اعتراه الذهول من منبت شعره لأخص قدميه؛ فقد كان الطابق كله عبارة عن مكتب فخم، فخم بكل المقاييس، في الطلاء، الديكور، الأثاث، المقاعد، اتجه الرجل الأنيق إلى سكرتيرة حسناء، وتحدث معها للحظة، تطلعت بعدها لمختار في نظرة سريعة، ثم ضغطت زرا بمكتبها قالت عبره:

- الأستاذ "مختار أبوالسعد" وصل يا أفندم.

بعدها تركت مكتبها، واتجهت لمختار قائلة له، وهى تشير بيدها لحجرة مجاورة:

- اتفضل.

سارت أمامه، وطرقت الباب بهدوء، ودخل "مختار"، ثم أغلقت الباب، تطلع "مختار" للرجل الأكثر أناقة الجالس خلف مكتبه الأكثر فخامة، واعتراه الذهول؛ فالرجل الذي أمامه لم يكن "مختار" يعرفه، ولا يتذكر أنه رآه في يوم من الأيام، فلماذا أرسل له؟ وماذا يريد منه؟ ..

قطع الرجل حبل أفكاره، وهو يقول بهدوء:

- حضرتك الأستاذ "مختار أبوالسعد"؟

- أيوه.

هزّ الرجل رأسه، وتناول هاتفاً صغيراً على مكتبه هتف عبره:

- الأستاذ "مختار أبوالسعد" وصل يا أفندم.

نهض الرجل، وهو يضع سماعة هاتفه، وقال لمختار وهو يعدل جاكيت بدلته:

- اتفضل يا أستاذ "مختار".

اتجه الرجل، ومن خلفه "مختار" إلى المصعد الذي توقف في الطابق التاسع، وعندما دخل هذا الطابق وجد أن فخامة الدور الثامن تتضاءل كثيراً أمام فخامة هذا الطابق التاسع، وما حدث في الطابق الثامن حدث في الطابق التاسع، السكرتيرة الحسنة التي ترفع هاتفها معلنة وصول صاحب السعادة "مختار بك أبو السعد"، ثم يدخل مكتباً، ويتطلع إلى الجالس بداخله، ولا يتذكر أنه رآه من قبل، ثم يأخذه للمصعد بعد إجراء مكالمة صغيرة عبر هاتفه، ويصعد به للطابق العاشر..

إحساس غريب سيطر على "مختار"، وهو في طريقه للطابق العاشر، حيث تضاعف قلقه مرات ومرات، وأحسّ بأنه لن يغادر هذا المكان مرة أخرى، وأن هذه الابتسامات الزائفة التي يوزعونها ما هي إلا قناع لكارثة ستحل به بعد قليل، وعندما دار هذا الخاطر بذهنه، تضاعف توتره، وقلقه من أجل أبيه "أبو السعد" الذي على الرغم من وجوده عند المقابر، إلا أنه في حاجة لمن يسأل عنه ويرعاه..

ظهر التوتر على ملامحه، وكاد يصرخ في وجه تلك الفاتنة التي تشغل منصب السكرتيرة لولا أن فتحت الباب المقابل لها، وقالت له وعلى شفيتها ابتسامة ساحرة:

- اتفضل... الباشا في انتظارك.

تاه "مختار" في ابتسامتها الساحرة للحظة، وهو يخطو بقدميه داخل ذلك المكتب الذي يتفوق كل شيء فيه علي ديكور الأفلام الأمريكية، أخذ يتطلع لذلك الجالس على مقعده - والذي يوليه ظهره -، وانتظر "مختار" السؤال

التقليدي، ولكن الرجل ظلّ على وضعه صامتا، ودخان سيجاره الفحم يصنع من حوله دوائر متداخلة من الدخان زادته غموضا..

- أهلا يا "مختار".

خُيل لمختار بأنه قد أخطأ السمع، فقال بصوت مبحوح:

- نعم..

انطلقت ضحكة هادئة من بين شفتي الرجل و..

بكل بطء.. أخذ الرجل يستدير بمقعده و..

اتسعت عينا "مختار" في دهول، وراحت شفاته تردد بدون صوت:

- فريد !

نهض "فريد" من مقعده، وهو ينفث دخان سيجاره، وراح يتطلع لصديق عمره الذي أخذ ينظر إليه غير مصدق نفسه، وشفاته ما زالت تردد بلا صوت:

- معقول.. "فريد الرشيدي" بعد كل السنين دي !

ظلّ "مختار" في مكانه، يتطلع لصديقه القديم، وحانت منه التفاتة إلى صورة "فريد" الضخمة التي تكاد تحتل حائطا بأكمله.. حاول "مختار" كثيرا

- وهو يتطلع للصورة - أن يبحث عن صديقه القديم، نظر إلى عينيه، وقد اختفى منهما الصفاء الذي كان يميزهما، نظر إلى ملامح وجهه، وقد أصبحت أكثر قسوة وصلابة من الصخر، نظر إلى شاربه الذي ربّض فوق شفثيه في قوة، وزاد من قسوة ملامحه..

- لقيت صاحب عمرك ولا لسه يا "مختار"؟

تطلع إليه "مختار" في ذهول، وهو يجوب بعينه ملامحه، ولم يرد فهتف
"فريد" في جمود:

- أنا "فريد" يا مختار، صاحبك بتاع زمان، بس الي قدامك دلوقت
"فريد" الجديد، "فريد" المعدل، "فريد" الي الحب مات واندفن جواه، وطلع
مكانه وحش بشع له أنياب ومخالب.

وصمت "فريد" لحظة سيطر خلالها على مشاعر كثيرة تموج بداخله،
واستطرد قائلاً، وهو يطلق من حلقه تنهيدة حارة:

- عرفت أنا مين يا "مختار"؟

ترقرقت الدموع في عيني "مختار"، ووجد نفسه - ودون أن يدري - يفتح
ذراعيه لصديق عمره، هاتفا:

- فريد.

وغاب كل منهما في أحضان الآخر، وبكى "مختار" كما لم يبكِ من قبل،
ولم تذرف عينا "فريد" دمعة واحدة، قبض "فريد" على كتف "مختار" في قوة،
وقال، وهو يتطلع لعيني صديقه، وفي عينيه بريق جنوني عجيب:

- لا يا "مختار" .. أوعى تبكي أرجوك، خلاص زمن البكا راح، ومن
النهارده هنضحك.. هنضحك وبس يا صحبي، عارف ليه؟ عشان الزمن
الي جي بتاعنا، زمن "فريد الرشيدى" ..

أزاح "مختار" كفي "فريد" بعيدا، وصرخ في وجهه قائلاً، وهو يلهث في
قوة:

- كفاية.. كفاية يا "فريد".

وترك جسده يهوي على الأريكة الوثيرة المواجهة للمكتب، وراح يقبض على رأسه بكفيه، وقد ترك دموعه العنان التي انهمرت كالسيل، جلس "فريد" أمامه على ركبتيه، وقبض بكفيه على كتفيه مرة أخرى، وقال في ألم: - أرجوك كفاية بكاء يا "مختار"، إحنا بكينا كثير قبل كده، ومن النهارده هناخد حقنا م الدنيا كلها، سامع يا "مختار"؟ م الدنيا كلها.

مرة أخرى أخذ "مختار" يتطلع لصديقه من بين دموعه، وراح يحبب ملامحه باحثا عن صديقه القديم، باحثا عن الصفاء والنقاء الذي كان يميزه. نهض "فريد"، وأشعل سيجارا آخر نفث دخانه في توتر، وراح يقول: - "مختار"، عاوزك تستقيل من شغلك، وتيجي تشتغل معايا، وهنتقم سوا من اللي ظلمنا و..

نهض "مختار"، وهو يمسح دموعه، وقال بمرارة لا يمكن وصفها:

- يا ريتني أقدر يا "فريد".. يا ريتني!

- هتتخلّى عني يا "مختار"؟

- لا يا صحبي، بس لسه الأوان مجاش.

ثم ألقى على "فريد" نظرة أخيرة، جاب فيها ملامحه مرة أخرى، ثم انطلق مغادرا المكان، في حين أخذ "فريد" يتطلع إليه، وراح يردد، وهو ينفث دخان سيجاره في قوة:

- مع السلامة.. مع السلامة يا "مختار".

(١٠٦)

تطلع مأمور المركز إلى "وفاء" التي جلست أمامه، والدموع مختنقة في عينيها، وقال:

- إنتِ مُصّرة علي أقوالك يا آنسة "وفاء"؟

هتفت "وفاء" قائلة بصوت باكٍ، وهي على وشك الانهيار:

- أنا بريئة.. بريئة.

ضرب المأمور بعضا كانت في يده على كفه الأخرى، وقال بنفاذ صبر، وهو ينهض من خلف مكتبه:

- وشهادة الأستاذ "لمعي" الي بياكد أنه سمعك بتطليبي رشوة من حمزة

بيه الرشيدي؟

صرخت "وفاء"، وقد انهمرت دموعها بعد أن عجزت عن كتمانها، وهي

تقول:

- "لمعي" كذاب يا أفندم، كذاب و..

قاطعها المأمور، وهو يمتط شفتيه قائلا، وقد عقد ذراعيه أمام صدره:

- بصراحة موقفك صعب وأنا مضطر أحولك ع..

ارتفع رنين الهاتف في تلك اللحظة، ليقطع عبارة المأمور الذي تطلع إليه في ضيق، وهو يتناول الساعة قائلا:

- أيوه.. وفجأة انتفض جسد المأمور، وهو يعتدل في وقفته قائلا:

- أهلا سعادتك، أيوه هي قدامي دلوقت، الي تؤمر به سعادتك، ألف سلامة، مع ألف سلامة.

وضع المأمور الساعة، والتقط أنفاسه في سرعة، وكأنه خارج لتوه من سباق طويل، ثم تطلع إلى "وفاء" قائلا، وعلى شفتيه ابتسامة:

- آنسة "وفاء".. إحنا بنعتذر ليكي؛ فيه سوء تفاهم حصل، وتقدري تمشي دلوقت.

تطلعت "وفاء" إلى الهاتف في ذهول، محاولة أن تستشف السبب الذي أصاب المأمور بكل ذلك الذعر، ثم جففت دموعها، وانطلقت مغادرة لحجرة المأمور لتجد "مختار" في انتظارها، فهتفت به في سعادة:

- أفرجوا عني يا "مختار"، أنا مش مصدقة!

هز رأسه قائلا في أسى:

- عارف يا "وفاء"، عارف.

تطلعت إليه ذاهلة، وهي تردد.

- عارف ! وعرفت منين يا "مختار" ؟ !
لاحت علي شفتي "مختار" ابتسامة مريرة، وهو يقول:
- عشان أنا اتصلت بالأكبر م المأمور.
ظنته "وفاء" يمزح، فقالت في تهكم، وهى تغادر مبنى المركز بجواره:
- اتصلت بمين حضرتك.. مدير الأمن ولا وزير الداخلية؟ !
توقف "مختار"، وتطلع إليها للحظة، قال بعدها بصوت لم تغادره المראה
بعد:
- بل بالأكبر يا "وفاء"، الأكبر من كل دول.
- مين يا "مختار"؟ مين؟ !
- أنا اتصلت بفريد.. "فريد الرشيدى" !
كاد قلب "وفاء" أن يتوقف عن النبض مع عبارة "مختار" الأخيرة،
وراحت تصرخ في أعماق أعماقها:
- فريد !!



(١٠٧)

قبيل الفجر بقليل دخل "حمزة" حجرة مكتبه بالطابق الأسفل من الفيلا،
وقد ترك "سوزى" في الفراش.. كان يريد أن يخلو بنفسه، كان مشغولاً بأمر
تلك الصفقة الأخيرة، جلس خلف مكتبه، وأشعل سيجاره، وراح ينفث
دخانَه في شروء، وهو يردد بصوتٍ مسموع:
- نصف مليار.. صفقة العمر يا "حمزة"! فعلا تستاهل إن الواحد يجازف
و..

وفجأة وفي تلك اللحظة، برز "الزناقي" من خلف الأريكة الضخمة التي
تواجه المكتب قائلاً، وهو يصوب سلاحه إلى رأس "حمزة":
- أهلاً يا "حمزة".

ارتعدت مفاصل "حمزة"، وشحب وجهه، وكاد السيجارُ يسقط من فمه،
وهو يهتف بصوت متحرج:

- الزناقي؟!

- أيوه يا "حمزة".. أنا الزناقي المغفل.

نظر "حمزة" للسلّاح المصوب لرأسه، وقال محاولاً أن يكسب صوته بعض القوة:
- اسمع يا "زناتي" .. أوعى تتهور، أنا حمزة الرشيدى عضو مجلس الشعب
ويمكن أن ..

قاطعته "الزناتي" ساخراً، وهو يضحك:

- ياااااه يا "حمزة" .. كل السنين الي فاتت دي ولسه متغيرتش !
مش إحنا اتفقنا أنا وأنت قبل كده، لما نتقابل لازم نخلع الأقنعة؟
دا أنا "الزناتي" يا حمزة، الوحيد الي يعرفك على حقيقتك، الوحيد الي
يعرف أنك واطي وجبان.

قطع الزناتي عبارته، وراح يتطلع لحمزة في مقت وكراهية شديدة، ثم دفع
سلاحه في صدره قائلاً:

- افتح الخزانة يا "حمزة" .

ردّ "حمزة" في غضب:

- وإذا رفضتُ يا "زناتي"؟

برقت عينا "الزناتي" في غضب مخيف، وهو يقول:

- هاها .. ساعتها هفتحتها أنا يا "حمزة" ، بس بعد ما أخلص عليك .

كم شعر "حمزة" بالندم آلاف المرات في تلك اللحظة؛ لأنه انشغل ونسى
أمر الزناتي - بعدما أخبره ربيع - وسط مشاغله، واهتمامه بالصفقة الأخيرة،
وكان يجب عليه أن يرسل له من يخلصه منه، عضّ "حمزة" شفتيه في غيظ،
وهو يقول:

- اسمع يا "زناتي" أنا ممكن أعوضك و..
سدّد الزناتي مسدسه لرأس "حمزة"، وقال في حزم:
- هَعد لحد ثلاثة يا حمزة وبعدها..
- اسمع يا "زناتي"..
- واحد.. اتنين..
تناول "حمزة" المفاتيح في قهرٍ، وفتح الخزانة التي كانت مكتظة عن آخرها بالأموال والمجوهرات، وبرقت عينا "الزناتي" في جنون، وهو يتطلع للخزانة، وقال وهو يرمي حمزة حقيبة سوداء كانت فوق المكتب:
- حُط كل اللي في الخزنة هنا.
راح "حمزة" يفرغ محتويات الخزانة في الحقيبة في ألمٍ وغيظٍ وغضبٍ، وعندما انتهى مدّ يده يناولها للزناتي وفجأة..
ضرب "حمزة" بيده المسدس، الذي يحمله "الزناتي" فطار في ركن المكتب، ولكن "الزناتي" كان قد استمات بيده علي الحقيبة، وكال حمزة لكمة قوية، ثم رفع الحقيبة، وهوى بها فوق رأس "حمزة" الذي وقع أرضاً ليقفز "الزناتي" من النافذة، ويختفي وسط الظلام ليدخل بعدها رجال حمزة حجرة المكتب ليصرخ فيهم "حمزة":
- يا حيوانات يا بهائم، كنتوا فين؟ فيه حرامي في الجينية، بسرعة فتشوها، واللي تلاقوه اضربوه بالنار.

ساد المهرج والمرج داخل حديقة الفيلا، ورجال "حمزة" قد انتشروا في كل مكان، دون أن يعثروا على أي أثر للزناقي، الذي يبدو وكأنه تبخّر في الظلام .. فجأة..

ارتفع صراخ أهالي القرية، وقد شبّ حريق ضخم في محصول القمح الخاص بحمزة الرشيدي، وكان حريقا ضخما قد حاصر المحصول من كل اتجاه، وتحوّل ليل القرية إلى جحيم وسط صرخات الأهالي، وصراخ "حمزة" عبر الهاتف:

- أنا "حمزة الرشيدي" عضو مجلس الشعب، فيه حريقة كبيرة في جرن القمح بتاعي، عاوز سيارات إطفاء حالا.

أخذ "حمزة" يتطلع - وقد وقف عاجزا وسط الأهالي - إلي المحصول في حسرة، وقد أتت النيران عليه، ووصل رجال المطافي، ولكن بعد فوات الأوان، وامتلاّت سماء القرية بسحابة هائلة من الدخان، وقد اسودت وجوه الأهالي، ورجال حمزة الذين حاولوا السيطرة على الحريق بلا فائدة، أخذ "حمزة" يتطلع لجرن القمح الذي خلا من المحصول، وصرخ في الأهالي قائلا:

- واقفين ليه كده؟ كله يغور في داهية.

تفرق الأهالي، وجميعهم يهتفون في أعماقهم "وما ربك بظلام للعبيد" .. وفي تلك اللحظة، وفي مكان آخر، وضعت فتاة سماعة الهاتف، وقد تألقت عيناها ببريق جنوني عجيب، وعلى شفيتها ابتسامة ظافرة، لقد كانت هالة.. "هالة عز الدين"!

(١٠٨)

داخل مركز الشرطة جلس "حمزة" في عباءته السوداء أمام وكيل النيابة، وقال وهو يأخذ نفساً من سيجاره في غضب:

- أنا بتُّهم "سعد الزناتي" بحريق المحصول.

- وإيه سبب اتهامك للمدعو "سعد الزناتي" يا حمزة بيه؟

- "الزناتي" دا سوابق، وما خرج م السجن جاني يطلب المساعدة، بس أنا رفضت.

- إيه طبيعة العلاقة اللي بينكم؟

- كنتُ أعرفه من زمان، بس لما دخل السجن قطعُ علاقتي بيه.

هز وكيل النيابة رأسه، وقال:

- تمام يا "حمزة" بيه، وقّع علي أقوالك وتقدر تمشي.

خرج "حمزة" بعد أن وقع على أقواله، والغضب يعصف به في شدة، وفوجئ بأسعد أمامه يهتف به:

- خير يا "حمزة" بيه، أنا كنت في القاهرة ومعرفش حاجة.

حاول "حمزة" أن يبدو متماسكا، وقال وهو ينفث دخان سيجاره:

- شكرا على اهتمامك يا "أسعد" بيه.

ربت "أسعد" على كتفه، وقال له، وهما يخرجان من سراي النيابة:

- "حمزة" بيه.. إنت أخويا، وأنا تحت أمرك في أي مبلغ و..

قاطعته "حمزة" قائلا:

- متشكر يا "أسعد" بيه و..

أقبل عليهما العمدة "ربيع" في تلك اللحظة، وقال لحمزة في غضب، وهو يلوح بذراعيه:

- أنا حذرتك يا "حمزة" بيه من الزناتي و..

قاطعته "حمزة" صارخا في غضب:

- وهو ذا مكان مناسب للكلام يا عمدة؟!

أحس "ربيع" بخطئه، وهو يتطلع لأسعد وكأنه لم ينتبه لوجوده من قبل، وقال:

- سامحني يا "حمزة" بيه.

تطلع إليه "حمزة" في غضب، ولم يرد بل واصل طريقه مع "أسعد" وبداخله نار..

نار شديدة تعصف به من الداخل في قوة؛ حيث كان قد أخفى عنهم في التحقيق أمر الحقيقة التي أخذها "الزناتي"؛ حتي لا يفتح على نفسه بابا لا يستطيع غلقه، وبكل غضب كانت أعماقه تصرخ:

- يا ريتك ما رجعت يا "زناتي"!

(١٠٩)

في حديقة فيلته بالهرم، كان "فريد" وقت الظهيرة يدخن سيجاره، وقد غرق في تفكير عميق، وأخذ نفساً عميقاً من سيجاره نفثه في قوة، ثم تناول هاتفه، وضرب رقماً لا يعرفه في مصر سوى قلة معدودة، وهتف عبره:

- أهلاً سعادتك، الله يسلمك، موضوع بسيط، عضو بمجلس الشعب يستغل حصانته في ممارسات وصفقات مشبوهة، طبعاً معي كل الأدلة والمستندات، أيوه وهناك أدلة قوية تثبت تورطه في قتل الدكتور نصر حماد، بكره الصبح هيكون الملف كله على مكتب سعادتك وفيه كل الأدلة والتفاصيل، لا متقلقش سعادتك صفقة اللحوم في معادها، مع ألف سلامة.

وضع "فريد" سماعته، وراح ينفث دخان سيجاره في استمتاع بعد تلك المكالمات، في نفس اللحظة التي اقترب منه الخادم، قائلاً:

- الآنسة "وفاء عبد الحميد" عاوزه تقابل حضرتك "فريد" بيه.

تطلع إليه "فريد" في تساؤل، ولمحت عيناه "وفاء" تتطلع إليه في لوعة من بعيد، وهي تهتف بكل جوارحها، وقد تعلق عينها به، وكأنها لا تصدق أنه أمامها الآن، وبعد كل تلك السنوات:

- فريد !

نهض من مكانه وراح يتطلع إليها - ومشهدا منذ سنوات، وهي تودعه بالمطار مائل أمام عينيه كأنه بالأمس - وهتف مرحبا:

- وفاء!! أخبارك إيه؟ اتفضلي؟

تناولت كفيه بين راحتها، وهمست قائلة، وهي تبهر بعينها في عينيه:
- كنت لسه عايشه على أمل إنك ترجع، وخلاص إنت رجعت، رجعتي يا "فريد".

سحب كفيه من بين راحتها في رفق، وأعطاه ظهره قائلا، وهو يتمزق:
- "وفاء" أنا..

قاطعته قائلة في لهفة، وقد شعرت بالقلق:

- إنت إيه يا "فريد".. اتجوزت؟

رد في ألم:

- لأ.. بس..

- بس إيه؟.. دا أنا عمري ما فقدت الأمل لحظة واحدة إنك راجعلي.

أشاح بوجهه بعيدا، وقال:

- "مديحة" يا وفاء..

- "مديحة" ماتت، ماتت يا فريد!

صرخ في وجهها بشدة، وقد تضاعف ألمه مرات ومرات:

- لأ يا "وفاء"، لأ.. "مديحة" لسه عايشة، أيوه عايشة في قلبي، وفي كياني،

وفي وجداني.

تطلعت إليه "وفاء" غير مصدقة ما يقوله..

أبعد كل هذه السنوات لم يتغير بعد؟

يدفن نفسه في قبور الماضي، ويتجاهل حبها..

يطأ قلبها ومشاعرها بكل هذه السهولة !

صرخت بوجهه، وقد انهمرت دموعها، وسالت علي خديها:

- إنْتَ إِيه؟ دا أنا عملت معاك اللي مفيش واحدة بتعمله مع حبيبها، اتنازلت عن كبريائي، وقلتُ الحب هو الكبرياء، الحب هو الكرامة، من أيام الجامعة وأنا بحبك في صمت، أيوه بحبك وهقولها ومش هنكسف، ولما عرفت بحبك لمديحة حزنت بس اتمنيتلك السعادة، ولما ماتت "مديحة" حزنت كمان عشانك، وفي نفس الوقت عرفت إن ربنا بيقرّبني منك، حتى لما سافرت عمري ما فقدت الأمل إنك راجع، راجع عشاني أنا.

كان "فريد" يستمع إليها، وقلبه يتمزق، ولا يدري ماذا يقول لها، كان يشعر في تلك اللحظة بعجز لم يشعر بمثله في حياته، كان لا يدري ماذا يقول لها، وفجأة..

وجد "وفاء" ترتدي نظارتها السوداء بعد أن جففت دموعها، وقالت بصوت حاسم:

- أنا آسفة يا "فريد" بيه.. أنا جيت عشان أشكر معاليك على وقوفك جنبي في موضوع الرشوة.

وألقت عليه نظرة أخيرة، قبل أن تستدير في خطوات واسعة نحو بوابة الفيلا..

بصوت حزين بائس، هتف "فريد":

- وفاء.

وقفت مكانها على بُعد خطوات منه، دون أن تستدير إليه، فاقترب منها قائلاً بألم:

- أرجوكِ يا "وفاء"، قدّري اليّ أنا فيه، وأنا مقدرش أخدعك، حُب "مديحة" ساكن جوا قلبي، وأنا خدت عهد على نفسي إني مكونش لواحدة غيرها أبداً، وأنا مقدرش أخون يا "وفاء"، صدقيني.

استدارت إليه في بطاء، وقالت وهي تخلع نظارتها:

- أنا مقدّرة ظروفك يا "فريد"؛ بدليل إني استنيتك كل السنين الي فاتت، بس إنت لازم تعرف إن إحنا بنعيش مرة واحدة بس، والعمر بيجري، و"مديحة" هي الماضي، وأنا الحاضر والمستقبل.

قالت ذلك، ثم ارتدت نظارتها مرة أخرى، وتركته في خطوات واسعة نحو بوابة الفيلا، في حين ترك "فريد" جسده يهوى فوق مقعده في قوة، وهو يتطلع إليها وعلى وجهه ألم.. كل الألم !!



(١١٠)

صمتت " هالة عز الدين " للحظات، وهى تتطلع لأحد هؤلاء الرجال الذين نفذوا عملية حريق المحصول، وراحت تنفث دخان سيجارها الرفيعة للحظات أخرى، وتبدو عليها أمارات التفكير العميق، ثم قالت للرجل فجأة:

- بكده بعد ما " حمزة " اتهم " الزناتي " بحريق المحصول، نقدر ننهي اللعبة دي كلها بالضربة القاضية.

تطلع إليها الرجل في عدم فهم، وقال في حيرة:

- تقصدي إيه يا هانم؟

لمعت عيناها ببريق جنوني، وهى تقول:

- لو " الزناتي " اتقتل، الشبهات هتروح لمن؟

ابتسم الرجل، وقد فهم أخيرا كاشفا عن أسنانه الصفراء القذرة، وقال:

- فهمت يا هانم، بس تسعيرة القتل حاجة تانية.

ابتسمت في هدوء، واتجهت نحو البار الصغير الذي يحتل أحد أركان الاستقبال، وتناولت من فوقه ظرفاً، أعطته للرجل قائلة:
- الي تقولوا عليه، ودا عربون عشر تلاف جنيه.
اتسعت ابتسامة الرجل، وهو يتطلع إلي الظرف، ويتحسس الأموال بيده
قائلاً:

- الي تؤمري بيه يا هانم.
لوّحت " هالة " بالسيجارة في وجهه، قائلة في صرامة:
- مش عاوزه أي غلط .. سامع؟
تحسس الرجل الأموال مرة أخرى، وقال قبل أن يخرج:
- متقلقيش يا هانم.
وما أن خرج الرجل حتى اقترب منها " جاك "، الذي كان يجلس صامتا طوال الوقت، وعلى وجهه تبدو علامات الغضب وعدم الرضا، ووضع كفيه على كتفيها قائلاً:
- لأ يا " هالة " .. إلا القتل أرجوك، أنا بدأت أخاف منك.
نزعت " هالة " كفيه من فوق كتفيها في عنف قائلة، وهي تصرخ:
- لازم أنتقم منه يا " جاك "، ولو متخلصتش م الضعف الي إنت فيه دا أنا هسيبك يا " جاك "، سامع هسيبك، ومش هتشوف وشي تاني.
وتلاحقت أنفاسها في قوة، وقد تضاعف بريق الجنون في عينيها مرات ومرات !!

(١١١)

- "آسف يا فريد بيه.. حالة الدكتور عز الدين غير مستقرة، ومش هوافق على خروجه" هتف مدير مستشفى الأمراض العقلية بتلك العبارة في وجه "فريد الرشيدى"، الذي تطلع إليه باستهجان، وهو يتبادل نظرة ساخرة مع مدير مكتبه الذي يقف خلفه، ثم تناول سيجارا أشعله في هدوء قائلاً، وهو يضع ساقا على ساق:

- بتقول إيه؟ مش هتوافق على خروجه؟!

هتف الرجل في سرعة، قائلاً:

- ودا عشان حالته خطيرة و..

ضحك "فريد" في جبروت، وهو يلوك سيجاره في فمه، قائلاً:

- ومين الي قال كده يا دكتور؟ إنتَ ولا الي دخله هنا؟

نهض مدير المستشفى واقفا في غضب، وقال:

- "فريد" بيه أنا مسمحش بـ..

قاطعه "فريد"، قائلاً في غضب:

- اسمع يا دكتور.. أنا عارف إزاي الدكتور عز الدين دخل المستشفى، وعارف كمان رقم الشيك اللي دخل في حسابك، بعد ما كتبت تقريرك بحاجة الدكتور عز الدين للعلاج بالمستشفى و..

قاطعه مدير المستشفى في غضب، وقد تصبب عرقاً قائلاً:

- قلتُ لك أنا مسموحش و..

نهض "فريد" من مكانه فجأة، وهتف قائلاً في غضب، وفي عينيه بريق مخيف:

- واضح إنك مش عارف بتتكلم مع مين، أنا "فريد الرشيدى".

ثم التفت لمدير مكتبه، قائلاً في غضب:

- اطلبلي يا ابني رئيس الوزراء التليفون.

ما أن سمع مدير المستشفى ذلك حتى انهار تماماً، وراح يهتف بصوت أقرب إلى البكاء:

- "فريد" بيه.. مفيش داعي، أنا تحت أمرك.

جلس "فريد" مرة أخرى على مقعده، ووضع ساقاً علي ساق قائلاً، وهو

ينفث دخان سيجاره:

- عاوزك تنهي اجراءات خروج الدكتور "عز الدين" دلوقت حالا، وبنفسك.

وبرقت عينا "فريد" في جنون!



(١١٢)

لمعت عينا "الزناتي" وسط الظلام، وهو يجلس داخل كوخه عند أطراف البلدة، وأخذت عيناه تدوران هنا وهناك في قلق، كان في انتظار "التابعي" الذي ذهب إلي البلدة يتحسس الأخبار، وفجأة برز "التابعي" من بين جنح الظلام، وهو يلقي بجسده بجواره قائلا بصوته الأجش:

- لازم نهرب دلوقت يا "زناتي".

- إيه اللي حصل ؟ !

- "حمزة" اتهمك بحريق المحصول، وبلغ عنك النيابة.

هتف "الزناتي" في غضب، وهو يتحسس الحقيقة التي أخذها من "حمزة":

- طول عمرك ندل يا "حمزة".

- لازم نهرب بسرعة؛ الوقت بيمر.

قاطع "الزناتي" قائلا، وهو ينهض من مكانه وييده الحقيقية:

- عندك حق يا "تابعي"، بينا نهرب بسرعة.

قال ذلك، ثم سارا جنباً إلى جنب يتستران بظلام الليل، الذي يلف المكان في وحشة في طريقهما إلى البحيرة، حيث قارب عم "نوح"، ومنه إلى المحطة حيث القطار الذي سيأخذهما إلى الحرية ..
فجأة ..

شقّ سكون الليل عيار ناري قضى على الأحلام قبل أن تولد ..
انطلق العيار في سرعة مخترقاً ظلام الليل إلى هدفه الذي يعرفه جيداً ..
قلب "الزناتي" ..

وقع "الزناتي" أرضاً، وقد سالت دماؤه في غزارة، وأغرقت صدره، انحنى عليه "التابعي" في هلع محاولاً كتم الدماء، وراح يبكي في حرقة، وقد أسند رأس "الزناتي" على ذراعه، الذي استجمع قواه، وقال بضعف شديد، وعلى شفثيه ابتسامة شاحبة:
- كان نفسي أعيش يا "تابعي"، كان نفسي أعيش وأشوف الدنيا، وأتمتع بالفلوس ..

قاطعه "التابعي" قائلاً، وهو يبكي في حرقة:
- متكلمش يا "زناتي"، هنروح لأقرب مستشفى، وهتخف، وتتمتع بالفلوس، وكم إن هنتقم من "حمزة" ..

قاطعه "الزناتي"، قائلاً في وهن شديد، وقد ازداد شحوب وجهه:
- عارف يا "تابعي"، من زمان، أيام ما كنا أصحاب أنا و"حمزة"، وأنا كنت عارف إن الدنيا مش هتسعدنا إحنا الاثنين، وكان لازم واحد يموت عشان الثاني يعيش، و"حمزة" اختار يا تابعي، اختار إنه يعيش وأنا أموت.

قاطعته "التابعي"، قائلاً من بين دموعه:

- متتكلمش يا صحبي، وأوعدك لو حصلك حاجة لانتقم من "حمزة" و..
هتف "الزناقي" مقاطعاً في صعوبة شديدة، وكأنه ينتزع حروف كلماته من
بين براثن الموت:

- لا يا "تابعي" .. مش عاوزك تنتقم، أنا عاوزك تعمل اللي أنا مقدرتش
عليه، خُد الفلوس والمجوهرات وعيش، واعمل كل اللي إنتَ عاوزه وعوّض
أيام السجن، أوعدني يا "تابعي"، أوعد..
وفجأة..

هوت رأس الزناقي على صدر التابعي، التي ضمها إلى صدره، وهو يصرخ
من بين دموعه:
- أوعدك.. أوعدك يا صحبي.

وأراح رأس "الزناقي" أرضاً، وأسبل جفنيه المفتوحين، ثم أمسك بالحقيبة،
وألقى نظرة أخيرة على جسد "الزناقي"، ثم هتف قائلاً بصوت حزين:
- هو دا حظك يا "تابعي"، مكتوب عليك تكمل المشوار لوحذك من غير
صاحب ولا أنيس.

ومضي يتحسس طريقه وسط الظلام، وهو يختزن الحقيبة!



(١١٣)

- "الزناتي اتقتل يا أهل البلد".

تردد صوت دياب في أرجاء القرية، ونواحيها بتلك العبارة في ذلك الصباح الباكر، وتجمّع الأهالي حول الجثة، ووصل رجال المركز بناء على اتصال من العمدة، الذي كان في تلك اللحظة يصرخ بجنون في دواره:

- لا مش ممكن، مش ممكن، هـى وصلت للقتل يا "حمزة"؟ !

وانطلق مغادرا دواره في طريقه لفيلا " حمزة الرشيدى " الذي كان - في تلك اللحظة - يمسك سماعة هاتفه في بهو الفيلا، وقد شحب وجهه، وهو يردد عبرها:

- بتقول إيه سعادتك؟! رفعوا الحصانة عني !! إزاي يعني أوامر عليا؟! ألو.. ألو..

أطاح "حمزة" بسماعة الهاتف أرضا، وهو في حالة أقرب للانهيار، وسقط جسده على أقرب مقعد قابله، وراحت أعماقه تصرخ في جنون:

- يرفعوا الحصانة عني أنا ! أنا " حمزة الرشيدى " !

وفي تلك اللحظة هجم العمدة "ربيع" على الفيلا، وهو يصرخ:
- لآ يا "حمزة" بيه لآ، قتل "الزناقي" مش هيعدي زي قتل "عبد المحسن"،
وإذا كانت الحياة معاك كلها قتل ودم أنا مش عاوزها، مش عاوزها يا "حمزة"
بيه.

صرخ "حمزة" في وجهه بشدة، وهو غير مصدق ما يحدث أمامه:
- بره يا كلب.. اخرج بره..
شيعه العمدة بنظرة غضب هائلة، قبل أن يغادر الفيلا كالعاصفة، في حين
رمى "حمزة" جسده فوق المقعد مرة أخرى، وأعماقه تصرخ:
- يا ترى إيه اللي بيحصل في البلد من وراك يا "حمزة"؟!



(١١٤)

وقفت "هالة" داخل شقتها، ويدها صورة والدها الدكتور "عزالدين" تتطلع إليها، ودموعها تسيل على خدها كحبات من اللؤلؤ، وراحت تهتف:
- عاوزاك تظمن يا بابا، أنا هخلي "حمزة" يندم ع اليوم اللي اتولد فيه، ومش هيرتاحلي بال إلا لما أجييه مكانك في مستشفى المجانين، هو صحيح خرج بريء من قتل "الزناقي" بس أنا برضه وراه ..
- "مش كفاية اللي حصل يا هالة".

انتفض جسد "هالة" حين سمعت تلك العبارة بغتة من وراءها، فالتفت ولم تصدق عيناها ما رأت ..

آخر شخص يمكن أن تتوقعه .. "فريد الرشيدى" ..
تطلع إليها "فريد" للحظات، ثم التفت إلى "جاك" الذي يقف خلفه، وقال له:

- متشكر أوي يا "جاك"؛ عشان اتصلت بيا.

التفت "جاك" إلى هالة، وهتف بها قائلاً في حب:
- سامحيني يا "هالة" كان لازم أعمل أي حاجة؛ عشان أحملك من
نفسك.

ربت "فريد" على كتفه قائلاً في امتنان:
- من فضلك سييني شوية مع "هالة".
تركها جاك وخرج، في حين جلس "فريد" على مقعد مقابل لها، وقال
وهو يشعل سيجاره، وينفث دخانه في هدوء:

- "جاك" عنده حق يا "هالة" لازم ترجعي أمريكا.
ضحكت في جنون قائلة، وهي تشعل سيجارتها الرفيعة:
- أرجع لأمریکا! كده بكل بساطة! وأسبب الي رمى أبويا في مستشفى
المجانين؟

- "هالة".. لازم ترجعي أمريكا، دا أمر.
- أمر! من مين بقي؟!
- من ابن عمك يا "هالة".
غرقت في نوبة من الضحك الهستيري، حتي كادت تقع أرضاً، وهي تقول:
- ابن عمي! ما الدكتور "عزالدين" دخل مستشفى المجانين على إيد
"حمزة"، وهو برضه ابن عمي و..

فجأة نهض "فريد"، وقبض على كتفي "هالة"، وقال بصوت يفوق الرعد قوة، وفي عينيه بريق مخيف:

- تعرفي يا هالة "حمزة" عمل معايا إيه؟

"حمزة" كان السبب في موت أبويا الحاج "محمود"، وموت أمي، وموت مديحة حببتي، وطردي م البلد، ونهب حقي.

كان قد وصل لذروة انفعاله، وألقى بجسده علي المقعد، وأنفاسه تتلاحق في سرعة، فصمت قليلا، ثم أخذ نفسا عميقا من سيجاره، وأفرغ دخانه دفعة واحدة، وقال وبريق عينيه الجنوني تضاعف مرات ومرات:

- حمزة بتاعي أنا يا "هالة"، سامعة.. بتاعي لوحدي.

تطلعت إليه "هالة" قائلة، وقد ترقرت الدموع في عينها:

- فريد أنا..

قاطعها قائلا، وهو يربّت على كتفيها في هدوء، ودخان سيجاره يندفع من بين شفتيه في قوة:

- أرجوكِ ارجعي يا "هالة"؛ حمزة خرج براءة من قتل الزناتي، ولو عرفوا إنك..

قاطعته في ذهول:

- هو أنت عارف؟!

- أيوه عارف يا " هالة "، زي ما أنا عارف كمان إن الدكتور " عز الدين " محتاجلك دلوقت تكوني جنبه في لندن.

- لندن؟! !

- أيوه.. أنا سفّرت الدكتور " عز الدين " لأكبر مصحة علاجية في لندن، والنهارده الصبح جاني فاكس يقول إن حالته اتحسنّت كثير.

هتفت في سعادة، وقد استعاد وجهها ابتسامته الصافية مرة أخرى، وبدت أكثر جمالا بعد أن تخلصت من روح الانتقام التي كانت تسيطر عليها، وقالت وهي تقترب منه لتضع قبلة على خده:

- متشكره يا " فريد " .. متشكره أوي.



(١١٥)

فوجئ "مختار" بطرقات قوية على باب منزله في ذلك الصباح، ولم تكن عيناه قد ذاقتا النوم طيلة الليل، حيث ظل ساهرا طوال الليل - كعادته في الفترة الأخيرة، التي انقطع فيها عن العمل - يراقب والده الرابض بجوار مقبرة "مديحة"، ويرعاه من بعيد..

فتح "مختار" الباب في سرعة، وفوجئ برجلين من أهل القرية يحملان أبيه "أبو السعد" ومن خلفهما كان "دياب" يبكي في صمت.. تطلع "مختار" إلى جسد والده الساكن، وإلى عينيه اللتين فقدتا بريق الحياة، وجحظت عيناه في جنون، وتحجرت فيهما الدموع، وأبت النزول، وهو يتراجع بظهره للخلف حتى اتكأ على الحائط، وترك جسده يهوى بجواره؛ مفسحا الطريق للرجلين اللذين وضعوا الجثمان فوق الفراش..

أما "دياب" فقمع أرضا بجوار الفراش، الذي يرقد عليه أبو السعد، ودموعه تنهمر في غزارة، وراح يردد:

- ليه سيبتني يا عم "أبو السعد"؟

دا أنا وأنتَ زي بعض ملناش متوى غير الأرض، والشجر، والخلا،
والديابة.

أما "مختار" فقد ظلّ مكانه يتطلع لجثمان أبيه في جمود، ولم تذرف عيناه
دمعة واحدة، وقام مع بعض أهالي القرية بدفن والده في صمت، حتي العزاء
لم يتلقاه، ولم يهتم أهل البلد بذلك؛ فقد كان معظمهم يعتبر أبا السعد في عِداد
الأموات منذ زمن طويل !!!

بملاصق تفوق الصخر جمودا، دفع "مختار" باب الحجرة الجانبية في منزله،
ووقف يتطلع إلى صورة حمزة الموجودة علي القوائم الخشبي المواجه للباب،
وقد جحظت عيناه في جنون، وأقدمَ على أغرب شيء يمكن توقعه في تلك
اللحظة، وقد عاد لتوه من دفن والده..

لقد انطلقت من حلقة ضحكة..

نعم.. ضحكة قوية مجنونة استمرت للحظات..

ثم ازدادت عيناه جحوظا، وهو يصرخ في أعماقه:

- ياااااه.. أخيرا بقيت حر !

و بكلتا يديه قبض علي صورة "حمزة"، وراح يمزقها في جنون ويدوسها
بقدمه..

وبكل جمود مدّ يده، وتناول الفرشاة، وبدأ يرسم الصورة.. الصورة
الآخيرة.

(١١٦)

حانت اللحظة التي طالما انتظرها "فريد" لأكثر من عشر سنوات..

اللحظة التي تجرع من أجلها مرارة الغربة..

اللحظة التي عاش علي أمل أن يحياها..

لحظة العودة لقريته..

ويا لها من لحظة !

كانت لحظة تاريخية..

لحظة ستتحاكى بها الأجيال جيلا بعد جيل..

لحظة وصول "فريد" إلى القرية بطائرته الخاصة..

أخذ كل أهالي القرية يتطلعون إلى الطائرة التي ظلت تحوم فوق الطريق

الزراعي، ولم يعد يفصل بينها وبين الأرض سوى أمتارٍ ثلاثة، ثم انفرد سلم

الطائرة، وعلى أول درجاته، وقف "فريد" ..

وقف يتطلع لأهل القرية من خلف نظارته الشمسية..

وحين رأوه تمنى كثير منهم لو انشقت الأرض وابتلعتة..
كثير منهم تمنى أن يكون ما أمامه الآن مجرد كابوس..
ولكن كل ما حولهم يؤكد أنه حقيقة..
صف السيارات الفارهة التي تقف أرضاً بأصحابها ذوي المناصب
السيادية، والمراكز المرموقة في انتظار هبوط "فريد"..
المحافظ ومدير الأمن اللذان كانا في استقباله..
نعم.. نعم إنها حقيقة..
لقد عاد الرجل..
الرجل الذي أهانوه، وطردوه من القرية..
الرجل الذي جروا وراءه بالنبايت والمشاعل كما يجرون وراء اللصوص
وهاتكي الأعراض..
نعم.. نعم.. لقد عاد الرجل.. عاد لينتقم..
كل ذلك دار في رءوس أهالي القرية، وهم يتطلعون إلى "فريد"، وقد بدأ
يهبط سلم الطائرة في بطاء..
مدّ "فريد" يده في شرود إلى المحافظ، وسلّم عليه..
استعد سائقه الخاص ليأخذه بسيارته الفارهة إلى حيث يريد، وكذلك
استعدت كل السيارات، ولكن "فريد" رفض كل ذلك، وقرر أن يدخل
القرية سيرا على قدميه..

أعطاهم ظهره، وراح يتطلع لمباني القرية من خلف نظارته الشمسية،
وقداحتها الذهبية تشعل سيجاره الرابض بين شفتيه..
ومن مكانه على الطريق الزراعي لمح ذلك المبنى الأبيض الذي يقف بعيدا
في شموخ..

فيلا الحاج "محمود الرشيدى" ..

الفيلا التي لم يطأها بقدمه منذ موت والده..
أخذ "فريد" يتطلع إليها لحظات، والعجيب أنها لم تبدُ في عينيه كما كانت
من قبل؛ حيث أصبح اللون الأبيض الذي يميزها باهتا، وقد فقد الكثير من
رونقه وجماله كما فقد - هو - الكثير من المشاعر الجميلة!!
عن بُعد لمح "فريد" عم نوح قابعا بجوار قاربه كعادته..
اتجه إليه في خطوات بطيئة، وأمام عينيه يتراقص المشهد..
المشهد الذي كان يغادر فيه القرية مطرودا مهزوما، وهو يصرخ من بين
دموعه لعم نوح..

- "الدم بقى مِيَّه يا عم نوح".

هتف "فريد" قائلا، وهو يتجه صوب عم نوح:

- إيه أخبارك يا عم نوح؟

استدار إليه الرجل، واتسعت عيناه، وظهرت على شفتيه ابتسامة، ولأول
مرة لم يسأل عم نوح مَنْ يحدثه عمن يكون..
نعم لقد نظر إليه، وكأنه يعرفه، أو كأنه على موعدٍ معه..

حيث نهض، واقترب من "فريد"، وراح يتحسس وجهه، وهو يقول
بفرحة:

- أهلا يا ابني.

ثم لم تلبث ملامح الرجل أن تجهمت، وعاد إليها الحزن مرة أخرى،
وهتف قائلاً، وهو يتجه صوب قاربه:

- دوار يا زمن.

وصمت تماماً عن الكلام كعادته، تركه "فريد"، وانطلق على شاطئ
البحيرة، ورأى "دياب" جالساً على شاطئ البحيرة، يناجيها كعادته:
- حورية..

حورية..

البت الحلوة الجنية..

تنزل لها تطلع م الميه..

تطلع لها تنزل في الميه..

تبص عليها تقولشي حورية..

وهي حورية.

أخذ فريد يتطلع إلى دياب الذي كان لا يشعر به حيث أعطاه ظهره وراح
يتذكر تلك الليلة التي نام فيها مع "دياب" في الخص وسط المزارع.. هتف
"فريد":

- دياب.

علت وجه "دياب" ابتسامة وفرحة، وراح يحملق في مياه البحيرة في سعادة، وقد انفرجت أساريره، فاستدار سريعا، وهو يهتف:

- فريد ——— !

وحين اكتملت استدارته، ووقعت عيناه على "فريد"، حتى ماتت الفرحة علي وجهه، فنهض من مكانه سريعا، وراح يردد في ذهول:

- إنت مين؟

- أنا "فريد" يا دياب.

- لأ.. إنت مش "فريد"، إنت حمزة.

وتركه، وانطلق جاريا على الطريق الزراعي، وكأن كل شياطين جهنم تطارده! هز "فريد" رأسه في دهشة، ثم واصل طريقه حتي وصل إلى منطقة المقابر، ارتجفت شفتاه وقلبه، وهو يخطو بقدميه نحو قبرها.. قبر "مديحة".. أمام المقبرة وقف في خشوع هاتفا، وقد تضاعف الحزن على وجهه مرات ومرات..

- مديحة.. أنا "فريد"، عاوزك ترتاحي في قبرك، وتتطمني فريد زي ما هو، وهيفضل محافظ على عهده ليكي، سنين كتيرة عدت، وسافرت كل البلاد، وشوفت كل النساء، بس عمر ما سكن قلبي غيرك، غيرك إنت يا "مديحة"، يا حبيبتي.

قال "فريد" ذلك، وهو يزيح بإصبعه دمعة خدعته، وسقطت أسفل نظارته السوداء، ولمعت كبئر ماء وحيد وسط صحراء قاحلة.. ثم توجه

وقرأ الفاتحة لأبيه، وأعماقه تتوج بانفعالات شتى، بأصابع مرتعشة أشعل فريد سيجارا آخر، وراح ينفث دخانه في شرود، وهو يواصل طريقه..

في تلك اللحظة كان "حمزة" يقول لأسعد، وهما يجلسان في بهو فيلا الرشيدى:
- أنا مش عارف إيه اللي بيحصل يا "أسعد" بيه، الكوارث عمالة تنزل فوق دماغى واحدة ورا الثانية، حريق المحصول، ورفع الحصانة، وقتل الزناتى.

تطلع إليه "أسعد" ولم يرد، ثم تطلع إلى ساعة يده، وقد بدا عليه الشرود، في نفس اللحظة التي هبطت فيها "سوزى" على سلم الفيلا الداخلى، وقد ارتدت أفخم الثياب، فبدت وكأنها ملكة متوجة، هتفت وهى تجلس بجوار "حمزة"، وتعبث بشعر رأسه في دلال:

- عاوزه أشكيلك من حمزة يا "أسعد" بيه، بقى على طول عصبي و..

قاطعها "حمزة"، قائلا لأسعد وهو يزيح يدها من فوق رأسه:

- في الحقيقة يا "أسعد" بيه.. الأمل الوحيد اللي فاضل دلوقت هو الصفقة اللي بينا.

وقبل أن يرد "أسعد" اتجه أحد رجال "حمزة" نحوه، وهمس في أذنه بعبارة، ما أن سمعها الأخير، حتى انتفض من مكانه، وهو يصرخ بجنون:

- مين؟ فريد!

وتجمّد "حمزة" مكانه للحظات من هول المفاجأة، ثم هرع إلى بندقيته الخاصة المعلقة على حائط الفيلا، واختطفها في غضب، فاعترضت "سوزى" طريقه قائلة، وقد شحّب وجهها بشدة:

- هتعمل إيه يا "حمزة"؟

دفعها في خشونة صارخا في وجهها لأول مرة:

- استني هنا.

واندفع خارج الفيلا، ومن خلفه "أسعد" وبقية رجاله..

وأمام الفيلا وقف "حمزة" بين رجاله، والبندقية في يده وهاله ما رأى..

كان "فريد" أمامه يسير بخطوات واثقة نحو الفيلا، وقد ارتدى أفخم وأغلي الثياب، والسيجار الفخم بين شفتيه، ومن خلفه موكبه الضخم بالرجال والسيارات، وخلف كل هؤلاء كان أهل القرية يسرعون في خطواتهم لمعرفة ما سيحدث..

في تلك اللحظة تخرج "سوزى"، وتقف بجوار "أسعد" الذي كان يسأل "حمزة" قائلا:

- مين الراجل دا يا "حمزة" بيه؟

ردّ "حمزة"، قائلا وعينه شاخصتان في جنون تجاه "فريد"، الذي يقترب من الفيلا، يسبقه دخان سيجاره في جبروت:

- دا موضوع قديم يا "أسعد" بيه، وهيخلص حالا.

علي بُعد أمتار قليلة، وقف "فريد"، ومن خلفه وقف موكبه، وراح يتطلع إلى "حمزة"، وسيجاره يتلوك بين شفتيه وتلاقت النظرات..

وكعادتها قديما تحدثت العيون:

فريد: وأدينني رجعتُ ثاني يا "حمزة" زي ما وعدتك!

حمزة: هتخرج ثاني يا "فريد"، بس على ضهرك المرة دي.

فريد: هنشوف يا "حمزة".

حمزة: هنشوف يا "فريد".

راح أهل البلدة، وقد وقفوا في صفين على الجانبين، يتابعون ما سيحدث،
وعيونهم تنتقل بين "حمزة" و"فريد"؛ لمعرفة لمن ستكون الغلبة.. هتف
"حمزة"، وهو يلوح ببندقيته صارخا في وجه "فريد":

- إنت رجعت ليه؟

- إيه اللي بتقوله دا يا "حمزة"؟! إنت نسيت إن أنا ابن الرشيدى
ولا إيه؟!

تطلع "حمزة" إلى الأهالي الذين تجمعوا في ترقب، وقال بصوت عالٍ محاولا
إثارة غيرتهم وحماستهم:

- لأ.. بس واضح إن إنت اللي نسيت يا "فريد"، نسيت إزاي خرجت
مطرودم البلد، بعد العار اللي جبته لأهلها الطيبين و..

قاطعهُ "فريد" ضاحكا بصوت عالٍ، وهو يصفق بيديه، ثم صمت فجأة،
صارخا في وجه "حمزة":

- ثاني يا "حمزة"!

هتمثل نفس المسرحية القديمة، دا إنت غبي يا "حمزة"؛ غبي وأعمى؛
عشان مش عارف تشوف كويس، وتعرف إن أبطال المسرحية اتغيروا،
والأحداث كمان اتغيرت، عارف ليه؟

عشان دلوقت أنا الأقوى يا "حمزة"، وأنا اللي هلعب دور البطولة.
وصمت "فريد" لحظة، سَحَقَ فيها سيجاره بقدمه في عنف، ثم استطرد
قائلاً في جنون:

- ودلوقت جه وقت الحساب يا "حمزة"، وكلها دقائق ويطلع إذن النيابة
بالقبض عليك، وعندك بدل الجريمة عشرة: التحريض علي قتل الحاج عبد
المحسن عمدة البلد، قتل الدكتور نصر حماد وإصابة زوجته، تلفيق تهمة
الرشوة لموظفة الجمعية الزراعية، صفقات الأغذية الفاسدة اللي دخلتها البلد
وأنت متخفي ورا حصانتك، التآمر علي الدكتور عز الدين وإدخاله مستشفى
المجانين، قتل الزناتي بعد ظهور أدلة جديدة تثبت إنك ورا الجريمة.

وصمت "فريد" قليلاً، أشعل سيجارا آخر، ونفث دخانه في قوة، وهو يتطلع
لوجه "حمزة" الذي حاكى وجوه الموتى، وراح يستطرد قائلاً في جنون مضاعف:
- دا عن حق القانون يا "حمزة"، ودلوقت يفضل حقي أنا، حقي في موت
أبوك، وموت أمي، وموت مديحة، وتحريضك للبلد كلها ضدي، وطردني م
البلد وأنا متحاصر بالنبايت والمشاعل.

وصمت لحظات أخرى تطلع فيها لأهل البلد، واستطرد صارخاً يسبقه
دخان سيجاره الذي ينطلق من بين شفثيه كالعاصفة، وقد لمعت عيناه ببريق
جنوني عجيب:

- وأهل البلد اللي وقفوا ورايا زمان بالنبايت والمشاعل، النهارده هيركعوا تحت رجلي عشان أرحمهم، عارف ليه يا "حمزة" بيه؟
- عشان البلد دي كلها، بأرضها، وزرعها، ومصانعها، ملكي أنا..
- أنا "فريد بيه الرشيدى"، صاحب البلد دي كلها.. ها.. ها.. ها..
- صرخ "حمزة" في جنون، وهو ينظر لأسعد:
- اتكلم يا "أسعد" بيه، انطق.. قوله إن الأرض والمصانع ملكك أنت.
- تطلع إليه "أسعد"، وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة، ثم اتجه إلى "فريد" قائلاً:
- تحت أمرك يا "فريد" بيه.
- ترددت ضحكة "فريد" في كل أرجاء القرية، وهو يصرخ في جنون قائلاً:
- مش بقولك إنت غبي يا "حمزة".
- استطرد قائلاً في جنون، وهو يشير لأسعد:
- أعرفك بـ "أسامة المهدي" مدير أعمالى في القاهرة.
- وكانت المفاجأة من نصيب الجميع هذه المرة..
- "حمزة" وأهل القرية جميعاً الذين يعرفون أنه أسعد بن إسماعيل السنوسى، وارتفعت حواجبهم في دهشة، في حين جحظت عينا حمزة في جنون، وهو يتطلع إلى "أسعد" صارخاً:
- اتكلم يا أسعد، انطق.. والصفقة.. الصفقة يا أسعد؟ اتكلم.
- رد أسعد (أسامة) في هدوء ساخر:
- بصراحة يا "حمزة" بيه أنا معنديش فكره حضرتك بتتكلم عن إيه.

كان الأمر أكبر من أن يتحمّله بشر، حتى ولو كان "حمزة الرشيدى" نفسه، لذا فقد جحظت عيناه في جنون، وأخذ يتراجع للخلف، حتى اضطجع بظهره على سور الفيلا غير مصدق ما تسمعه أذنه، وراح يردد، وضحكات "فريد" تدوى في أذنه:

- لا مش ممكن، مش ممكن دا كابوس.. كابوس.

وطافت عينا "حمزة" بوجوه الجميع حتى توقفت عندها.. عند "سوزى".. صرخ "حمزة" في وجهها:

- سوزى.. اتكلمي يا "سوزى"، قولي إن دا كابوس، كابوس وهصحى منه. تطلعت إليه "سوزى" في سخرية، ثم تركته، واتجهت إلى "فريد" ووقفت أمامه، وهى تناوله ورقة أخرجتها من ملابسها:

- تحت أمرك "فريد" بيه.. دا تنازل الفيلا اللي طلبته.

ومرة أخرى دوت ضحكات "فريد" تتردد في أرجاء البلدة..

وتراجع "حمزة" أكثر وأكثر كالمصعوق..

كانت الصدمة الكبرى لحمزة..

كان يتوقع خيانة الجميع إلا هى..

لقد كانت صادقة معه في كل شيء كما يكون الصدق..

نعم.. نعم.. الفراش.. الليالي الحمراء..

تشبثت بملابسه أكثر وأكثر، وقالت في صعوبة شديدة:
- مكافأتي هي أنت يا "فريد" .. وهوى رأسها بين ذراعيه..
يا لعجائب الأقدار! لقد ظلت سوزى سنوات وسنوات تراوض "فريد" عن
نفسه..

ظلت تحلم باليوم الذي يحتويها فيه بين ذراعيه..
وها هي الآن بين ذراعيه..
ولكن جثة هامدة..
صرخ "فريد"، وقد جحظت عيناه في جنون مضاعف:
- "سوزى" ... سوزى. ولكن ما من مجيب!
وضع "فريد" رأسها أرضاً، وبحث بعينه عن "حمزة" فلم يجده، حيث
اختفى داخل الفيلا أثناء انشغالهم بسوزى..
انطلق "فريد" جارياً لداخل الفيلا، وهو يصرخ في "أسامة":
- اطلب الشرطة بسرعة .
ظل "فريد" في حديقة الفيلا يصرخ بأعلى صوته:
- اخرج يا "حمزة" خلاص، اللعبة انتهت، كلها دقائق وتدفع تمن
جرايمك كلها.
في تلك اللحظة كان "حمزة" بأعلى مكان بالفيلا..

داخل برج الحمام الذي أصابه الفزع، راح "حمزة" يتطلع من خلال الفتحات الصغيرة إلى الليل الذي أرخى سدوله على القرية، وراح يصرخ في جنون:
- يقول إن اللعبة انتهت ها.. ها.. ها..

وصمت لحظات تناول فيها بعض الخرفات القديمة، التي كانت ملقاة في ركن الحجرة، وراح يمزقها في جنون، ثم يربطها في رجل أحد الحمام المذعور، ويشعل فيها النار من قداحته، ثم يُطلق الحمامة التي تنطلق مذعورة؛ تحاول عبثا التخلص من النار بلا فائدة، فتحط في ذعر على أي مكان تصل إليه، وقد يكون هذا المكان حقل، أو سطح بيت، أو جرن قمح، أو قمة شجرة..
تابع "حمزة" النيران التي اشتعلت في أكثر من مكان، وأعاد الكرة مرة ومرة ومرات، وهو يصرخ في جنون:

- عاوز يبقى كبير وسيّد البلد!

زي ما أنتَ عاوز يا "فريد" بيه، هتكون إنتَ السيد، بس سيد الخراب، سيد الدمار.. ها.. ها..

تابع "حمزة" من مكانه صراخ وعويل أهل القرية، الذي يملأ أرجائها بسبب الحرائق التي شبت في كل مكان، وترك مكانه، وهرع إلى السلم الخلفي للفيلا؛ ليتخذ طريقه للهروب؛ مستغلا حالة الهرج والمرج التي تسود القرية، وما أن فتح الباب الخلفي الذي يقوده للخارج حتى وجده أمامه..
"مختار" ..

نعم كان "مختار" يقف أمامه، وييده نبوتا من الخشب، يلوح به في وجه "حمزة" ..

هتف "مختار"، وفي عينيه بريق جنوني عجيب:

- على فين يا "حمزة" بيه؟!

صرخ "حمزة" في جنون:

- ابعد عن طريقي يا بن الجنائني .

رشق "مختار" نبوته بالحائط، وأغلق طريق الخروج على "حمزة" قائلا:

- أيوه يا "حمزة" بيه، أنا ابن الجنائني، وأخو مديحة، فاكر مديحة يا حمزة بيه؟

وفجأة.. وقبل أن يستوعب حمزة ما سيحدث، انتزع "مختار" نبوته من الحائط في سرعة، وهوى به علي رأسه، وهو يصرخ في جنون:

- فاكرها ولا لآ؟

سقط "حمزة" أرضا مغشيا عليه تحت قدمي "مختار" ..

أخذ "مختار" يتطلع إلي الجسد المكوّم تحت قدميه غير مصدق أنه جسد الحمزة.. حمزة الرشيدي !!

جحظت عيناه أكثر وأكثر في جنون، وأعماقه تصرخ:

- أخيرا!! أخيرا يا حمزة! وتضاعف بريق الجنون في عينيه مرات ومرات.



(١١٧)

طلع صباح ذلك اليوم علي القرية.. وليته ما طلع!
كانت القرية مجرد خراب، خراب بكل ما تعنيه الكلمة من معان، اللون
الأسود يغلف كل شيء..
حوائط البيوت أو التي كانت بيوتا، الأشجار التي صارت جذوع متفحمة
القمم، الأراضي التي كان محصولها الأخضر يهتز ويتمايل في جنون شاب
عابث، أجران القمح التي كانت عامرة بالخير الوفير، خراب.. خراب..
خراب.. وكل خراب تعمره الغربان!
حتي الأهالي تمزقت ملابسهم، واسودت وجوههم حزناً، إما علي خسائرهم
من بيت، أو محصول، وإما علي أولادهم الصغار الذين أصيبوا بالحريق..
ظلت عربات الإسعاف - بعد اتصال "فريد الرشيدى" برئيس الوزراء
- تنقل الأطفال والمصابين طوال تلك الليلة السوداء، النساء جلسن على
أبواب بقايا بيوتهن التي أصبحت بلا أبواب، وقد عصبن رءوسهن بالشال
الأسود، وبين كل لحظة وأخرى، يرتفع صراخ إحداهن، وقد تذكرت
صغيرها، في لوعة..

باختصار.. كانت القرية من أراضٍ، ومزارع، ورجال، ونساء، وأطفال، مجرد بقايا..

نعم.. بقايا هزيمة مُرّة..

وانقلبت الدنيا ولم تهدأ طوال الليل، صحافة، إذاعة، تليفزيون، تليفونات كبار المسؤولين بالدولة لم تنقطع طوال الليل، والكل يطمئن على صحة فريد بك الرشيدى، الرجل الذي تجمعهم به العديد والعديد من المصالح المشتركة.. في تلك اللحظة كان "فريد" يصرخ في رجاله:

- يعني إيه اختفى، اتبخر في الهواء، ولا الأرض انشقت وبلعته؟ !

ردّ عليه أحد الرجال، قائلاً في حيرة:

- مش عارفين يا "فريد" بيه راح فين، دورنا في كل مكان، حتى البحيرة تمّ تمشيطها بالغواصين، ومالوش أثر خالص.

ابتعد عنهم "فريد" في غضب، وطالبهم بإعادة البحث مرة أخرى في كل مكان، وراح يشعل سيجاره، وهو يتطلع للخراب الذي أصاب القرية، والحسرة تعصر قلبه، وهو يردد:

- يا ترى أنتَ فين يا "حمزة"؟! و..

- "يا ريتك ما رجعت يا فريد".

التفت "فريد" لصاحب الصوت، فوجد "دياب" الذي كان يتطلع إليه في حزن وألم، فربّت على كتفه قائلاً:

- ليه بتقول كده يا "دياب"؟! دا أنا حبيبك فريد !

تطلع "دياب" للحقول السوداء، وقال:

- عارف يا "فريد"، أنا سألت عليك كثير، وكان نفسي أشوفك عشان واحشني، بس بعد الي حصل بقول يا ريتك ما رجعت يا "فريد".

هتف "فريد" قائلاً، والألم يعصر قلبه:

- كنت عاوزني أسيب حقي يا "دياب"؟

- بس البلد اتحرقت يا "فريد".

مدّ "فريد" يده، وأخذ "دياب" بين أحضانه، وهتف قائلاً، وهو يربت على كتفه:

- إنت طيب أوي يا "دياب"، يا ريت أهل البلد كلهم زيّك، ميعرفوش غير الحب وبس، لكن متخافش أنا دلوقت معايا فلوس كثير، وهابني البلد من تاني، هابنيها على شيء واحد بس، ع الحب يا "دياب".

تطلع إليه "دياب" في سعادة، وقد استعاد وجهه ابتسامته المعروفة، وقال:

- أنا بحبك أوي يا "فريد".

وتركه، وانطلق جارياً وسط المزارع كعادته، في حين كانت أعماق "فريد" تشتعل بنفس السؤال:

- يا ترى إنت فين يا "حمزة"؟ !



(١١٨)

عادت "وفاء" من إجازتها بالقاهرة، وشاهدت بعينها كل ما حدث في القرية.. وعلمت بعودة "فريد"، وحريق القرية، واختفاء "حمزة"، ووفاة "أبوالسعد"، وضعت حقائبها بالاستراحة، وقررت أن تذهب لمختار لتواسيه، وهى في طريقها رأت الدمار والخراب الذي أصاب القرية، فهتفت في أعماقها بحسرة - لم تغادر حلقها، منذ لقائها الأخير مع "فريد" في فيلا الهرم:

- واضح إن قلبك مبقاش يعرف غير الحقد وبس يا "فريد".

هزّت رأسها في أسى، وواصلت طريقها، ووقفت أمام منزل "مختار" تتطلع إلى الشجرة العجوز التي كانت تظلل الدار فيما مضى، وقد ذبلت أوراقها واصفرت، راحت تطرق بيدها الباب، وما من مجيب، وفجأة برز "دياب" كعادته، وهو يقول:

- "مختار" مش جوه يا "وفاء".

- راح فين يا "دياب"؟

- مش عارف، من ساعة عمي "أبوالسعد" مات محدش شافه.

- معقول ! دا كده ممكن يكون عيَّان يا "دياب"؟

اتسعت عينا "دياب" في ذعر، وراح يطرق الباب، ويدفعه في قوة، وهو ينادي بأعلى صوته:

- يا مختار .. مختار ..

فُتح الباب تحت ضربات "دياب"، واندفع إلى الداخل يبحث في كل الغرف عن "مختار"، في حين دخلت "وفاء" وراءه في بطء، وهي تنادي عليه، وفجأة.. وقعت عيناها على إحدى صور "مختار" ملقاة على الأرض، وقد مُزقت نصفين، تناولت الصورة، ووضعت النصفين بجوار بعضهم البعض، وشهقت في ذهول، وقد اتسعت عيناها في هلع، كانت صورة جديدة لمختار لم ترها من قبل، صورة لمكان مظلم أشبه بمقبرة ضخمة، و"همزة" يرقد بداخلها، وفوقه قبضة تمسك بسكين، وتهم بغرزها في قلبه..

هتفت بارتياح، وقد شحب وجهها في شدة:

- مش ممكن .. مش ممكن ..

أخذت الصورة، وانطلقت جارية، ومن خلفها كان "دياب" يهتف:

- مختار مش جوه يا "وفاء".

ظلت تجري وتجري على الطريق الزراعي، وهي تهتف بأعماقها:

- لازم "فريد" يعرف، لازم يلحق صديق عمره.

وصلت إلى الفيلا، في نفس اللحظة التي كان فيها "فريد" يصرخ في رجاله:

- يعني إيه مالوش أثر؟ لازم تلاقوه، سامعين؟

أقبل "أسامة" في تلك اللحظة هاتفا:

- فريد بيه.. تحريات المباحث بتأكد إن "حمزة" لسه في البلد، وكم إن قبضوا على شخص اسمه "تابعي" وكان معاه شنطة مليانة فلوس ومجوهرات، واعترف إنها تخص "حمزة".

دخان سيجار "فريد" يندفع من فمه في غزارة، وهو يصرخ في غضب:

- أنا ميهمنيش فلوس ولا مجوهرات، أنا عاوز أعرف "حمزة" فين و..

- "أنا عرفت مكان حمزة يا فريد".

قاطعته "وفاء"، وهى تنطق عبارتها السابقة بأنفاس لاهثة، تطلع إليها في ذهول، فناولته الصورة، فنظر إليها، ثم صرخ في هلع:

- مش ممكن.. لازم نلحق "مختار".. لازم.

قال ذلك، وانطلق في اتجاه مقابر البلدة، ومن خلفه رجاله، ووفاء، ودياب، وأهل البلد الذين كانوا يجرون وراءه دون أن يعرفوا السبب..

وهناك.. عند المقابر تجمع أهل البلد، وكأنهم في يوم الحشر، راح "فريد"

يتطلع للمقابر المحيطة به في حيرة، وهو يردد:

- يا ترى في أي مقبرة من دول إنت موجود يا "حمزة"؟ !



(١١٩)

في تلك اللحظة كان "مختار" يقف داخل المقبرة، وبيده مصباح صغير يلقي ظلالاً رهيبية على جدرانها، وأمامه كان "حمزة" مقيداً، ويرتعد في جنون بعد أن استعاد وعيه، ووجد نفسه داخل المقبرة، برقت عيناً "مختار" في جنون، وقد ألقى المصباح الذي يحمله في يده ظلالاً رهيبية على السكين الذي يحمله بيده الأخرى.. صرخ مختار في جنون:

- جه وقت الحساب يا "حمزة" ..

ارتعد جسد "حمزة" في رعب، وهو يتطلع إلى "مختار" الذي صرخ بجنون:

- يااااه .. حمزة الرشيدي بيترعش م الخوف !

هو حمزة بيه الرشيدي يعرف الخوف زي بقيت البشر؟

هو جواه قلب بيحس ويشعر ويتألم زينا؟

وبرقت عيناه في جنون، وهو يدفع قدمه في بطن حمزة في ضربة قوية، قبل

أن يضعها أمام وجهه صارخاً:

- لو عاوزني أرحمك بوس رجلي يا "حمزة".

"حمزة" ينحني، ويقبل قدم "مختار"، وإذا بالأخير يصرخ في جنون:
- لآ يا "حمزة"، مش هرحمك، لازم تدفع ثمن كل جرايمك، في مديحة،
وأبويا، وفريد، وأمه، والدكتور عز الدين..

سامع يا حمزة؟ تدفع ثمن كل جرايمك.

ازداد ارتجاف "حمزة" أكثر وأكثر، وراح يزحف بجسده إلي الخلف، حتى
التصق بجدار المقبرة في رعب، تطلع إليه "مختار"، وقد انعقد حاجباه في
جنون، تراقصت ذُباله المصباح بسبب دفعة من الهواء - لا ندري من أين
جاءت - فتراقصت ظلالُ مخيفة على جدران المقبرة، جعلت قلب "حمزة"
يسقط بين قدميه، وجعلته يتمنى الموت ألف مرة، ازداد انعقاد حاجبي
"مختار" أكثر، وهو ينحني على "حمزة"، ويربت على كتفه قائلاً في صوت
عميق بدا، وكأنه صادر من أعماق أعماق الجحيم:

- متخافش يا "حمزة"، أنا هاحكمك محاكمة عادلة، إيه رأيك؟ موافق..
هه.. موافق.

قال "مختار" ذلك، ثم تراجع إلي الخلف، حتى وقف في آخر المقبرة في
مواجهة "حمزة"، وراح يتطلع إليه في جمود، وظلال السكين تتراقص مع
ضوء المصباح علي الجدران، وانطلقت صرخات "مختار" تردد في جنبات
المقبرة، مما جعل "حمزة" لا يشك لحظة واحدة أنه قد مات، وهو الآن يحاسب
في القبر أمام ملك الموت:

- حمزة يا رشيدي..

إنت متهم بقتل مديحة أبو السعد... ما قولك؟
إنت متهم بأنك السبب في موت عم أبو السعد.. ما قولك؟
إنت متهم بتحطيم مختار أبو السعد نفسيا، وجعله يكفر بكل القيم والمثل
والمبادئ.. ما قولك؟

إنت متهم بطرد فريد من البلد وسرقة حقه وموت أمه.. ما قولك؟
إنت متهم بإصابة الدكتور عز الدين بالجنون.. ما قولك؟
وصمت "مختار" للحظات، وأخذ يتطلع إلى "حمزة" في جنون، وجمود،
وضوء القنديل الباهت يتراقص، ويلقي ظلاله المخيفة على السكين، ثم
استطرد يقول في صوت عميق رهيب:

- طبقا لما ثبت أمامنا فقد قررنا الحكم علي المتهم حمزة محمود الرشيدى بـ..
وصمت "مختار" فجأة، وهو يتطلع إلى "حمزة" الذي يرتعد، وعينه
معلقتان بشفتي "مختار"، تترقبان النطق بالحكم، وبعد لحظات بدت لحمزة
دهرا بأكمله، صرخ "مختار" قائلا، وقد ازداد جحوظ عينيه، في جنون رهيب:
- متخافش يا "حمزة"، مش هقتلك بالسكينة، هقتلك بطريقة تانية،
طريقة أشد، هادفك بالحيا ها.. ها.. هادفك بالحيا يا "حمزة".

قال "مختار" ذلك، وأخذ المصباح والسكين، واتجه لباب الخروج، في حين
كان "حمزة" يحاول جاهدا البحث عن مخرج بلا فائدة، فراح يصرخ في رعب،
خرج "مختار" من المقبرة، وقد تعفّرت ملايسه، ووضع المصباح والسكين
أرضا، وبدأ يُغلق المقبرة بالطوب والحجارة مرة أخرى، وأنفاسه تتلاحق

في سرعة و.. فوجئ "مختار"، وهو على حالته تلك بأقدام تحيط من حوله،
رفع رأسه إليهم في بطاء.. فريد ووفاء ومنير ودياب وأهالي البلد.

نهض "مختار" ملوحاً بذراعيه، وهو يقول لفريد:

- خلاص يا "فريد"، المحاكمة خلصت، والحكم صدر، حكم مالوش
نقض ولا استئناف، حكم بالإعدام.

صرخ "فريد" في وجهه، وهو يمسك كتفيه:

- إِنْتَ قَتَلْتَ "حمزة" يا مختار؟! !

تخلّص منه "مختار"، وانحنى يلتقط حجراً ضخماً، ووضعه على باب
المقبرة، وهو يقول:

- لأ يا "فريد"، هو هيموت لوحده، أنا حبسته في المقبرة.

ثم تناول حجراً آخر، ووضعه على باب المقبرة، وهو يقول في جنون:

- تعالى يا "فريد"، تعالى وساعدني بسرعة عشان نقفل المقبرة.

تطلع "فريد" إلى صديق عمره في ألم، وأشار لرجاله، فحملوه بعيداً، وهو
يصرخ صرخات قوية تردد صداها في أرجاء القرية:

- لأ يا فريد لأ، حمزة لازم يموت، لازم يموت بدل المرة ألف مرة..

ظل "فريد" يتابعه في ألم، في نفس الوقت الذي كان فيه رجاله يفتحون
المقبرة مرة أخرى لإخراج "حمزة"، وبمجرد أن أخرجوه حتى دفعهم بعيداً
غير مصدق أنه نجا، وراح يسعل في قوة، وأراد أن يجري بعيداً، ولكنه وقع
أرضاً بسبب قيوده، أشار "فريد" لرجاله ففكوا قيوده، راح "حمزة" يتحسس

يديه وقدميه، وهو يتطلع لأهل القرية المحيطين به في نظرات خاوية، وقد
جحظت عيناه في جنون، وكأنه لا يعرفهم..

حاول بعضهم أن يساعده على النهوض، ولكنه نظر إليهم في رعب،
وأخذ يتراجع للخلف حتى وقع علي ظهره وسط ذهول الجميع، وفجأة..

نهض من مكانه، وقد ازدادت عيناه جحوظا في جنون، وراح يتطلع
للجموع الغفيرة بنظرات متناقضة، مرة في غضب وقسوة وقد شد قامته في
تكبر وغرور، وأخرى في انكسار وخوف وذلة، وقد وضع كفيه أمام وجهه
في رعب، وكأنه طفل أخطأ ويخشى عقاب والده..

وأمام كل العيون الذاهلة..

أقدم "حمزة" على أغرب تصرّف من الممكن أن يخطر علي بال أحد ..

لقد وضع جلبابه بين أسنانه، وأخذ يجري بين المزارع، وبين كل لحظة
وأخرى، يتلفت خلفه فيقع علي الأرض، ويتدحرج عليها، ثم ينهض ويجري
ليقع، وكأن كل شياطين جهنم تطارده..

رباه !!! لقد فقد الرجل عقله !

وأي رجل ! إنه الحمزة.. "حمزة الرشيدي".



(١٢٠)

قبيل الغروب بقليل كان "فريد" هناك، أمام مقبرة "مديحة"، كان يقف وحيدا أمام المقبرة في خشوع، وكأنه يتلو صلاته الأخيرة..
وبكى "فريد" ..

نعم.. بكى كما لم يبك من قبل..
انهمرت من عينيه دموع غزيرة..
دموع ظلت حبيسة في عينيه لأكثر من عشر سنوات..
من بين دموعه التي تنهمر كالسيل، هتف:

- تقدرى دلوقت تستريحى في قبرك يا "مديحة"؛ خلاص خدت حقك من "حمزة"، وخليته يدفع ثمن كل اللي عمله، أيوه يا حبيبتى .. "حمزة" انتهى، انتهى خالص.

راح يجفف دموعه، وهو يلقي علي القبر نظرة أخيرة، قبل أن يتحرك، ويغادر منطقة المقابر في خطوات متثاقلة، أشعل سيجاره، وراح ينفث دخانه في توتر، وأعماقه تشتعل بأسئلة عدة حيرته طيلة الأيام الماضية منذ أن حقق انتقامه، لماذا لا يشعر بالسعادة بعد أن انتقم من "حمزة"، وحقق كل ما كان

يحلّم به منذ عشر سنوات؟ وما سر تلك الغُصة التي تقف في حلقه منذ أن حقق انتقامه؟ هل كان على صواب حينما خطط ودبّر؛ لينتقم مَن نال منه، وأفسد عليه حياته؟ أم هل كان عليه أن يصبر ويرضى حتى يفصل بينهما الحق الذي لا ينام؟

- "فريد".

فاق من شروده على صوت "وفاء"، التي كانت واقفة أمام بوابة الفيلا تنتظره، تطلع إليها طويلا ثم قال:

- أهلا يا "وفاء".

تطلعت إلى عينيه، ولم يخف عليها بكأؤه، فانفطر قلبها من أجله، فأبعد عينيه عنها، وهو يقول:

- تعالي يا "وفاء" نتكلم في الجنيّة.

دخلت وراءه، وجلسا معا في حديقة الفيلا، وبعدها هتفت "وفاء" قائلة:

- أكيد بتسأل نفسك عن سبب الزيارة دي؟

ابتسم "فريد" في توتر، وهو ينفث دخان سيجاره ولم يرد، فاستطردت قائلة:

- بصراحة يا "فريد" أنا في مشكلة، ومحتاجة رأيك فيها.

اعتدل "فريد" قائلا في اهتمام:

- مشكلة إيه؟ اتكلمي يا "وفاء"، فيه حد ضايقتك تاني و..

ابتسمت "وفاء" وقاطعته قائلة:

- لا.. لا.. دي مشكلة أسرية، ومش عارفها حل.

رد "فريد" قائلاً في حذر:

- مشكلة أسرية.. تقصدي إليه؟

تطلعت "وفاء" إلى عينيه للحظات، وكأنها تتساءل عن سر ذلك الحزن الرابض فيهما، وقالت:

- أمي يا "فريد".. أمي عارضة عليا العريس رقم خمسة في السنة دي بس، وبصراحة مش لاقية سبب واحد أرفض عشانه المرة دي؛ شاب من أسرة عريقة مرشح لمنصب سفير بدولة أجنبية، ومش عارفة أعمل إيه؟ تراجع "فريد" إلى الوراء، وأخذ نفساً عميقاً من سيجاره، وهتف قائلاً في جمود:

- بصراحة دي فرصة يا "وفاء" و..

قاطعته قائلة، وهى تنهض من مكانها في ذهول:

- فرصة!!

وصمتت قليلاً، ثم استطردت في جمود:

- عندك حق يا "فريد" بيه، هى فعلاً فرصة، وشكرا ع النصيحة.

وانطلقت تغادر حديقة الفيلا مندفعة كالعاصفة، قبل أن تهزمها دموعها أمامه، وفي تلك اللحظة كان عقلها قد اتخذ القرار.. أخطر قرار!



(١٢١)

من نافذة حجرته بالفيلا، وقف "فريد" يتطلع إلى الظلام الذي يلف القرية في وحشة، وانطلقت من حلقه تنهيدة حارة، وهو ينفث دخان سيجاره في هذا الوقت المتأخر من الليل، أطفأ سيجاره في توتر، وهو يشعر بأن شيئاً ثقيلاً يثمن فوق أنفاسه، أوى إلى فراشه، وقد وضع رأسه فوق ذراعيه، وراح يتطلع لسماء الحجرة، وغاص بين ذكرياته، وأمام عينيه مرت أحداث كثيرة..

تذكر والده الحاج محمود الرشيدى، وحب له وطيبته التي لا حدود لها..
تذكر أمه التي ماتت، وهى تدعو الله أن يكون مثل حمزة..
تذكر حبيبته مديحة، ولقاءاته معها تحت شجرة الصفصاف..
تذكر صديقه مختار، وخوفه المستمر من المستقبل..
تذكر حمزة، وجبروته، وكيف كانت نهايته..
تذكر ألمانيا والسيد براون وابنه بيتر..
تذكر مصرع سوزى بين ذراعيه..
وفجأة..

شعر "فريد" بأن حركته ثقيلة، وأطرافه مقيدة، وتناهى إلى مسامعه صوتاً
أنشويًا مألوفاً ينادي عليه من خلف ضباب كثيف:
- فريــــــــــــد.

من بين الضباب الذي يحيط به من كل جانب رأى وجهها مألوفاً، بل أكثر
من مألوف، هتف بصوت لم يتعدّ حلقة:
- مين؟ !

- إنتَ غلطان يا "فريد".

- غلطان في إيه؟ ومين إنتِ؟

- لسه مش عارف صوتي؟

صرخ في ذهول:

- مش ممكن ! "مديحة".

- نسيّيني يا "فريد"؟

- لا لا أبدا، أنا مش ممكن أنساكي يا "مديحة".

- هى بتحبك يا "فريد".

- بتحبيني! تقصدي مين؟!

- "وفاء".

- "وفاء" بتحبيني! وإنتِ اللي بتقولي كده يا مديحة؟!

- أيوه يا "فريد" .. وفاء بتحبك بإخلاص.

- مش ممكن يا "مديحة" أحب غيرك.

بدت الصورة تتضح أكثر وأكثر أمام عينيه، والصوت يتردد في أذنه وعقله وكيانه بوضوح:

- فريد.. لازم تعرف إني سيبتك عشان بحبك، والنهارده بقولك اتجوز "وفاء" عشان برضه بحبك، أرجوك يا فريد.. أرجوك.

تلاشت الصورة من بين الضباب، واستيقظ "فريد" من نومه، وهو يصرخ في فزع:

- مديحة.. روحي فين يا مديحة؟!

نهض من فراشه، والعرق يكسو وجهه، وتناول كوباً من الماء جرعه مرة واحدة، وراح يشعل سيجاره لينفث دخانه في توتر، وهو يمرر أصابعه بين شعره، الذي تهدل فوق جبينه، وأنفاسه تتلاحق في سرعة، وكأنه خارج لتوه من سباقٍ طويل، وكانت كلمات "مديحة" ما زالت تتردد في أذنه..
تدوي في أعماقه!



(١٢٢)

اندفع "فريد" في الصباح إلى مبنى الجمعية الزراعية وهو يبحث عن "وفاء"، وهوى قلبه بين قدميه حين وجد مكتبها خاليا، هتف في الأستاذ "مرتضى" الذي نهض فور رؤيته:

- فين "وفاء"؟

ردّ عليه بحزن:

- قدمت استقالتها، وراحت تركب القطر عشان تسافر.

هتف "فريد"، وقد جحظت عيناه في جنون:

- قدمت استقالتها؟ ! إمته؟

- من حوالي نص ساعة.

تركه "فريد"، وألقى بجسده داخل سيارته، وانطلق في سرعة، وهو يهتف في أعماقه:

- لو ضيعتي مني يا "وفاء" مش هسامح نفسي العمر كله.

أوقف سيارته، وألقى بنفسه في قارب عم نوح، وراح يتطلع كل لحظة إلى ساعته، في قلق متمنيا أن يقف الزمن عند تلك اللحظة..

هو قلبه بين قدميه، حين سمع من بعيد صوت القطار قادما من بعيد..
ولمَح "وفاء" من بعيد، وقد نهضت من مقعدها، ووقفت على رصيف
المحطة انتظارا لوقوف القطار، ويدها حقيبة سفرها..
هَبَّ واقفا علي قارب عم نوح، فاهتز القارب في شدة، وراح يتمايل وهو
يصرخ بأعلى صوته:

- وفاء... وفاء...

وذهبت صرخاته أدراج الرياح، مع صوت القطار الذي دخل المحطة،
وهو يطلق نفييره القوي..

عقد "فريد" حاجبيه في غضب، وهو يرى "وفاء" تلقي بجسدها داخل
القطار بسرعة، وكأنَّ كل شياطين جهنم تطاردها، قفز "فريد" من القارب
قبل أن يصل للمرسى، وهو يلهث في قوة، وقد تهدلت خصلة شعره فوق
جبينه، وراح يصرخ بأعلى صوته، وهو على أول الرصيف:

- وفاء... وفاء...

أطلت "وفاء" برأسها من نافذة القطار في ذهول، وهو ما زال يصرخ:

- وفاء.. أنا فريد يا وفاء، ارجعي، ارجعي يا وفاء.

انهمرت دموع "وفاء" في غزارة على خديها، وهى ساكنة مكانها لا تتحرك..
القطار يطلق نفييره القوي؛ استعدادا لمغادرة المحطة..

صرخات "فريد" تتلاحق من بين أنفاسه اللاهثة:

- أرجوك.. ارجعي يا "وفاء"، ارجعي وارحمي عذابي، أرجوك.

انهمرت دموعها أكثر وأكثر، ولم تستطع أن تخدع قلبها أكثر من ذلك،
فألقت بجسدها خارج القطار في اللحظة الأخيرة، وكادت أن تقع لولا أن
تلقاها "فريد" بين ذراعيه، وقد أجهشت بالبكاء..

هتف "فريد" في ألم:

- كفاية يا "وفاء".. كفاية أرجوك.

هتفت من بين دموعها، وهي تتطلع لعينه:

- أخيرا يا "فريد" !

هتف قائلاً، وهو يقبض على كفها بين راحتيه:

- أخيرا يا "وفاء".

تأبطت ذراعه في سعادة، وهي تتطلع للقطار الذي مضى بدونها، وقد
جفت دموعها، وزينت الابتسامة وجهها الجميل مرة أخرى، وهي تقول:

- عمري ما شكيت لحظة إنك ليّا.

تطلع إلي عينيها في حزن، وقال في هدوء:

- وفاء.

- روح وفاء.

- قلبي.

- ماله؟

- لسه منسيش مديحة.

- كفاية عليا أكون جنبك.

- هاجي أزور القبر بتاعها.

- هنزوره مع بعض.

- أنا مش ضامن أسعدك.

- أنا أضمنُ سعادتي وسعادتك.

علت الابتسامة الصافية شفتيه، وقد خلت من الشحوب الذي كان يميزها، وهو يفرد لها كفه، لتضع كفها في كفه، ليسيرا جنباً إلى جنب في طريقهما إلى قارب عم "نوح"، الذي كان يتطلع إليهما مبتسماً، وعلى وجهه ملامح من السعادة لم تزره لسنواتٍ طوال!



(١٢٣)

ذات ليلة عاصفة - بعد عام كامل من تلك الأحداث - وقد اخضرت الأرض من جديد، وزالت كل آثار الحريق، كان "دياب" يجري على الطريق الزراعي، وذيل جلبابه بين أسنانه كعادته، وقد وضع شالا فوق رأسه؛ ليحمي نفسه من لسعة البرد..

وصل عند أطراف البلدة، ورأى "حمزة" جالسا بجوار شجرة ضخمة على شط البحيرة، وكان يرتعد من البرد، وقد تقوقع داخل ملابسه الرثة الممزقة، وراح يهمهم بكلمات لا معنى لها، وقد طال شعر رأسه ولحيته بشكلٍ يدعو للرتاء..

تطلع إليه "دياب" للحظات، ثم خلع الشال من رأسه، ووضعته فوق رأس حمزة، وتناول من طيات ملابسه صُرة الطعام، راح يفردها أمامه، ويربّت على كتفه قائلا:

- كُل يا "حمزة" .. كُل.

تطلع إليه "حمزة" بنظرات لا معنى لها، وقد عقد حاجبيه في بلاهة، وما زال يهتمهم بنفس الكلمات الغير مفهومة، يتناول دياب قطعة من اللحم، ويناوها لحمزة قائلاً:

- كُل يا "حمزة"، كُل لحمة، والله العظيم دي لحمة، الحاج "عبد الوهاب" عمدة البلد عمل ليلة لأهل الله.

فجأة.. تنتاب "حمزة" حالة من الخوف الغير مبرر، وهو يضع كفيه أمام وجهه، ويتراجع بجسده إلى الخلف، وقد شحبت ملامحه، يتطلع إليه "دياب" قائلاً، وهو يلوح بقطعة اللحم أمام عينيه:

- كُل يا "حمزة".. كُل.. إِنْتَ عارف يا "حمزة"، أنا وَأَنْتَ زي بعض، ملناش متوى غير الأرض، والشجر، والخلا، والديابة.

تشدد الرياح في تلك اللحظة، فيتطلع "دياب" إلى مياه البحيرة، التي تموجت مياهها بفعل الرياح، فيهبُّ "دياب" من مكانه تاركاً "حمزة" والطعام أمامه، ويجري على الطريق الزراعي، وهو يردد، وعينه على مياه البحيرة:

- حورية..

حورية..

البت الحلوة الجنية..

تنزل لها تطلع م الميه..

تطلع لها تنزل في الميه..

تبص عليها تقولشي حورية..

وهي حورية.

في تلك اللحظة داخل ردهة فيلا الحاج "محمود الرشيدى" تجمّع الكل
حول مائدة الغداء..

فريد ووفاء التي نجحت في أن تجعله يبادلها حبا بحب..
الدكتور "عزالدين" وقد شُفى تماما، وعاد للقريّة مع ابنته "هالة" التي
تركت "جاك"، وكانت من نصيب "مختار أبوالسعد" الذي استعاد ضحكته
الصافية ونفسه النقية..

وارتفعت ضحكات الجميع في صفاء، واستيقظ الحبُّ في قلوبهم من
سباته العميق بعدما ظنوا - جميعاً - أنه.. مات.

تمت بحمد الله

مجدي محروس

للتواصل مع الكاتب

mohamedmagde.mm93@gmail.com

<https://www.facebook.com/profile.php?id=100009512051255>

